الرواية العربية

أضلاع الصحراء

رواية

إدوار الخراط

أضلاع الصحراء

رواية

إدوار الخراط

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٧

الاخراج الفنى : مراد تسيم

الاشراف الفنى : عفاف توفيق

H.B
27/02/2010

الفصل الأول

كانت حموة الظهر قد أخذت تعلو ، والولد ينوشه حس صغير بالخوف ، وتعتريه رهبة جديدة عليه ، وهو يهرول وحده فى رحابة الغيطان الموحشة ، وقد فرغ الآن من تحميل الحمار الأعجف بالسباخ من احدى الكيمان الشاهقة التى تقوم على حزن من الأرض بين جسر النيل وبراح خاو ، فيما وراءه ، لا يؤنس وحشته الا قلع مركب بعيد يعلو من وسط النيل عند منعطف الجسر ، صامتا أبيض مفرودا فى الهواء الساكن الذى يهتز بالصهد ، لكنه يحمل رسالة بالطمأنينة والرفقة وسط الغيطان والكيمان · وهو ينخس حماره بعصـــــاه القصيرة ،وينحدر معه على الكومة السوداء فى هرولة ، ثم تطمئن قدماه اذ تعودان الى الف حســـهما بالتراب الناعم الكثيف على الجسر ، والى سلوك الطريق المعهود الذى طالما قطعه جيئة وذهابا ، منذ الصباح ، بين الغيط وأكوام السباخ الكفورى · وفى نفسه التى مازالت بعد نفس طفل هبوة من فرح اذ يستشرف لقياه بأبيه وأنسه به ويتشوق الى لحظة من الراحة والظل عندما يروح أبوه يفرد السباخ على الغيط ·

ويعلو الفرح الصغير فى نفسه فيهتف بالحمار :

ـ حر ٠٠ حر ٠٠ يامنكود !

واذا براكب وحيد على حماره يطلع من وراء شجر السنط على منحنى الجسر ، واذا بالخوف المبهم ينجاب تماما عن سماء نفسه الطفلة ، وينزو جسمه الناحل الهضيم بالحياة والنشاط ، وهو يخب فى قميصه الواسع الخلق المخروق الذى أغبر وحال لونه من طيلة ما علق به من التراب فى الغيط والطريق والبيت ، ويهرول خلف الحمار ، وتنتقل خطواته السريعة المتداركة وراءه من جنب الى جنب ٠ ومازالت السماء فوقه صامتة ثابتة كعين زرقاء هائلة تحدجه، وحده ، فى هذا السكون الفسيح ، بنظرة حديدة ساخنة مصممة ٠

لكنه الآن أقدر على احتمال ثباتها ووقدتها ٠ فهذا الراكب الذى يخب به حماره من بعيد يلوح أنيس المظهر ، وقد ارتخى على ركوبته واستسلم لاهتزازها الرتيب ، كأنما هدته نقلة طويلة لا تغيير فيها ، فهو لا يكاد ينخس جنب الحمار الأبيض الضليع برجليه المتراوحتين مع خطوات الحمار ، وعليه جوخة زرقاء ناصلة قديمة وان كانت بنت عز غابر ، غشى التراب كتفيها وردنيها ، والشيخ تتبدى قسمات وجهه الطيبة الرخية ، على نحولها ولطفهـــا ، مازالت ندية فيها غضوضة وطراوة ، تحت عمامة من شاش دخانى عتيق كساه التراب غبرة فوق غبرته ٠ لابد أنه آت من بعيد ٠

وفجأة هب الخوف الطفلى مرة أخرى فى أرجاء نفس الولد ٠

يقولون انها تطلع فى وقدة الظهر العالى ٠ باسم الله الرحمن الرحيم ٠ اللهم احفظنا واجعل كلامنا خفيفا على قلوبها ٠

ويقولون ان الواحد منها يتخذ هيئة الانس الطيبين ، بل هيئة المشايخ من أصحاب اللحى والعمائم ٠ يركب حمارا من جنسه

ويطلب شربة ماء ، حتى اذا اقترب الولد منها قبضـــت على يديه بكلابات من حديد ، وارتفع الحمار مصعدا فى السماء ، عاليا عاليا فى الظهر العالى ، ومعه ضحيته ـ اللهم احفظنا ـ ثم يطوح به من الارتفاع الشاهق ٠

وهو ذا الشيخ المعمم يقترب على ركوبته البيضاء ٠ وحبات العرق تتفصد على وجه الولد الأسمر وتشعره بسخونة تتقبض بحلقه وقلبه ، وعيناه قد ثبتتا وسطع فيهما لهب خوف غير عاقل ، وغير مدرك كأنه مسحور فى هذا الظهر الموحش الخالى ٠ وفى نفسه نزعة كاوية لجوج أن يردد ما يحفظ من سورة آية الكرسى ، وكأنها على طرف لسانه ، لكنها عصية عليه لا يتأتى له أن ينطق منها بكلمة ٠ فقد أرتج عليه ، وهو يريد أن ينطلق هاربا بنفسه ، لكنه لا يستطيع ٠ كأنه فريسة لرصـــد ٠ والشيخ مايزال يدنو على حماره ، بخطاه الهادئة الرتيبة ، ونظرته الكليلة ، والحمار ضخم فاره وثيق المنكبين ٠ والولد يرى نفسه منذ الآن ، مرفوعا بكلابات من حديد فى أجواز هذه السماء ، على وشك التردى من أعلى عليين الى وهدة الجســـر السحيق ٠ وهو يهرول هرولة لم يعد له عليها سيطرة ولا تحكم ٠ رجلاه تسوقانه من تلقائهما ، خلف حماره الأغبر ، نحو مصير ٠ مخوف ٠

ثم انكسر السحر فجأة ٠ واذا بحماره هذا الأعجف المجهود ، حمار السباخ المكدود الناتىء العظام الذى ماتزال ندوبه وقروحه تنكأ وتتغل بعد أن ترم ــ هذا الشقى ــ يرفع منخريه فى الهواء فجأة وهما يرتعشان بالنبض المتسارع الملهوف ، وينهق ، وتتردد أصداء النهيق فى جنبات الحقول الخالية ، ويغذ الخطى منحرفا مسرعا نحو الراكب الوحيد ٠ والولد قد استبد به الخوف على حمله الثمين من السباخ أن ينتثر ويضيع فى هذه اللهفة المبادرة ، التى اســـتأثرت

بحماره ٠ فهذه الركوبة اذن أتان قد ثارت لها نوازع كامنة ضاربة الجذور حتى عند الحمار الشقى المنكود ٠ والشيخ قد انتبه كأنما أفاق من سنة ألمت به ، وهو مفتوح العينين ٠ وابتسم للولد ابتسامة عذبة طيبة ريقه ، وقد التقيا الآن واستدار الحمار الأغبر القمىء وانحرف عن وجهته ، خف الآن عنه حمله الرازح وانبثت فى سيقانه وأوصاله حياة جديدة ناشطة ، وراح يمد رأسه وأنفه ويتشمم فى نزوع مستبد ٠ والولد يوسعه نخسا بالعصا ، ويهتف به ويحايله ويشده من مقوده المتدلى على جانب العنق ٠ لكن الأتان البيضاء الفارهة لم تكد توليه اهتماما ٠ كان السير الطويل قد أرهقها فاستمرت فى حال سبيلها ، والحمد لله ، والحمار قد زاد حظه نكدا على نكد ، ببلية الحبوط والخيبة ٠

ألقى الشيخ بالتحية على الصغير :

ــ السلام عليكم يا بنى ٠٠ شد حيلك

ــ السلام عليكم يا عم ورحمة الله ٠٠ الشدة بالله ٠

يقولها فى رزانة أسن منه وأجدر فعلا بالرجال ، وفى توقير أيضا لم يغفل عنه بالرغم مما هو فيه من كرب وخوف ٠

ولكن الغاشية تنجلى فى النهاية ، وينحدر الولد بحمله الثمين لم يكد يمسســه ضير ، على حافة الجســر ، من درب ضيقة ممهدة مسواة من طول ما دبت عليها الرجل ، تدور بين الغيطان جنب مسقى يترقرق فيه ماء قليل ٠

ويمتد الطريق طويلا موحشــــا ، أمام الشــيخ الذى تخلعت مفاصله حتى لقد أصابها الخدر وخشى عليها أن تصيبها يبوســـة وزمانة ، فانه ما يكاد يسعه أن يحركها من طيلة ما لصق بالبرذعة الجافة ، منذ مشرق الشمس وهو على الطريق ، وقد شبع أنفه وفمه

ترابا دقيقا مما تثيره حوافر أتانه الوفية الصابرة · لم يقطع رحلته الطويلة منذ أن غادر الاسكندرية الا ريثما أقام الى جوار المشهد الزينبى فى القاهرة بضعة أيام للتبرك والدعاء وعندما نزل ببلبيس ، فى بيت الامام البوصيرى ، للمذاكرة والتلاوة ، ومنذ أن نزع عن بلبيس ، وقد خلف فيها بضعة من قلبه ، فتعاقبت عليه الكور والقرى والمحلات ·· والحمد لله أن الطريق سابلة والأمن وافر ، على رغم اختلال النفوس بما ترجف به الألسنة وتتواتر به الأخبار عن مقدم الفرنج الوشيك ونزولهم المتوقع على الديار · على أن شيئا من ذلك لم يصح به الخبر اليقين ، ولو صح ماثناه ذلك عن العودة الى دمياط ، مادامت فى حوزة أهل البلاد باذن الله ، فقد طالت به الغربة عنها وأوجعت قلبه منذ ارتحل عنها فى غمار المحنة الكبرى ، صبيا لما يتجاوز العاشرة ، كذلك الولد الذى التقى به الآن على الطريق · شد ماكان مرتاعا ، ذلك الولد ، وما أرزنه عقلا مع ذلك وأصحه رجولة · ارتحل عنها منذ ثلاثين عاما ، مع أبيه وأمه وأخيه الطفل ، على أثر أن أخذها الفرنج بعد حصار قاس طويل · ومازال فى غائرة نفسه شيء لابرء منه ولن ينحل أبدا من تلك المحنة · واضطربت به الحياة فى الاسكندرية ، ومازال معتركها يضيق عليه تارة ويوسع ، وتتقلب به دوراته بين الجوامع والأسواق والساحات والمراسى ، يكسب عيشه بقدر طاقته ، ويكسب فقها ودينا أيضا ، ما استطاع الى ذلك سبيلا · أما أخوه الطفل ـ عبد المؤمن ـ فما ان انقشعت الغمة وأذهب الله عن البلاد غاشية المعتدين حتى عاد الى دمياط مع أبيه وأمه · واشـــتد عوده وتفقه دينه وقرأ القرآن بالروايات ثم زاره بالاسكندرية وأقام عنده حينا · متى كان ذلك يا عبد الله ؟ كم تمضى السنوات بنا سراعا ، مثقلة مع ذلك حبلى تتمخض بالحدث ، تلو الحدث ، عساها عشر سنوات أو اثنتى عشرة ، منذ أقبل شـــرف الدين عبد المؤمن ، فتى فيه عنفوان الاقبال على الحياة وفيه تقى وورع أيضا · حفظك الله ورعاك فى غربتك يا عبد المؤمن · لقد حباك الله

بفضله وأغناك عن ذوق مرار المحنة ومعاناة الاضطرار الى كسب لقمة العيش بالعمل والشقاء • اصطفاك لتحدث بحديث نبيه ورسوله، أخذته عن أصحاب السلفى ثم مضيت الى القاهرة فأخذته عن الحافظ المنذرى ، ولازمته • ووافتنا الأخبار بالاسكندرية أنك قد أعدت عنه الحديث بدار الحديث الكاملية مع ابن خلكان وابن دقيق العيد وغيرهم ممن يعدهم الله لعبادهم ذخرا ونورا • وما كان أشوقنى الى رؤياك يا أخى والسماع عنك • لكن الأيام لم تمن ، ورغبتك التى ماتنى تلج بك فى طلب العلم قد مضت بك الى بلاد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم وأتاح لنا شفاعته اليوم العصيب ــ فذهبت تحج وتسمع بالحرمين •

وما أدرى عنك بعد ذلك شيئا • قيل انك ارتحلت الى الشام منذ سنة خلت • أين أراضيك الآن يابن خلف •

وما أصبى قلب أخيك الى التملى من طلعتك ، والارتشاف من منهل علمك • تخبطت بين وعور الحياة ، لكنى قد نفضت يدى ، بعد لأى ، عن متاع الدنيا الفانية • وهكذا أخلصت لله نفسى ، وما عندى من الفقه والعلم عدة أعتدها ، لكن قلبى يجيش بحب الله ونبيه المصطفى • وما متاعى فى هذه الغرور الزائلة الا ركوبتى وجبتى وزاد تافه فى خرجى • والله رحيم بعباده القانتين • نذرت ألا يكون عيشى الا خصاصة ولا متعة لى الا بذكر الله • وسوف يكون قوتى من ثمن هذه الأتان اذ يحط بها الترحال فى دمياط ، وأجاور جامع الفتح فيها أعيش فيه عيشة المجاورين ، حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا • فتح الله علينا ونفع عباده المسلمين • تقطعت بنا السبل ياشرف الدين عبد المؤمن يابن خلف ، يا أخى وخدينى ، أنت فى بلاد الله طلبتك العلم والفقه والدين ، أما أخوك عبد الله فمقامه الى جوار بيت الله وطلبته محبة الله وذكره •

وقد فشا الخدر فى أوصاله جميعا ، وعادت السنة ترنق بعينيه ، الوجوخة تلفه بسخونة متربة تنعقد لها حبات من العرق غلاظ يحسها على جسمه الضاوى تنثال من تحت ابطيه كأنها تنز من جدار قديم ٠ لكنه يستشعر فى دخيلته سعة وروحا ٠ شوقه الى أخيه ، وقلقه على مفترق الطرق قد هدهد من وطأتهما استشرافه الى رؤية بلد صباه ٠ وفى حسه وضاءة وادعة ناعمة الى ما قد انعقد عليه عزمه وأنه سوف يرصد نفسه لله ٠

وهو فى سبحاته تلك ، اذا بالأرض ترتج من خلفه بوقع سنابك الخيل التى تهد السكون حواليه ٠ وصحا من رتابة نبضات التعب الذى يتفتر بجسمه ، ورهق خطوات الأتان الصبور ، والتفت وراءه فاذا بكوكبة من الخيل المطهمة المسومة تقبل من آخر الجسر ، خلف ستر من النقع منعقد العباب ، وهذا التراب الذى يثور ويتألب حول الفرسان يرتفع تحت سنابكها ولا يكاد يهبط ، فى عقود مقببة متتالية بطيئة الاســـتقرار ، كأنها بناء هش وطىء تتعاقب قبابه ، ورعيل الفرسان دائما يسبق القبة الأولى من هذا البناء البطىء الذى يلاحقهم من قريب ٠ والخيل تطبق عليه فجأة ، وتمرق من جانبه ، وهو يجرض بريقه مما ابتلع على رغمه من تراب، ويسعل، وتدمع عيناه٠ وتخطف الخيل راعدة الى جواره ، وعلى صهواتها فرسان فى كامل عدتهم واعتدادهم ٠ زردياتهم الحديدية الدقيقة النسيج تومض وتلمع من تحت التراب ، وأكسية الخيل الثقيلة تصطفق فى الريح التى تثيرها ، والنشاب تخشخش فى جعباتها ، والقسى قائمة الى جوارها تحمل نذيرا ومخافة ، والسيوف فى أغمادها تتمنطق بها الفرسان ، تخبط جنوب الخيل خبطات مكتومة متداركة ٠

أولئك بلا شك فرسان الملك الصالح ، تنطلق بهم خيلهم الى حيث تقضى الحاجة أن يكونوا ٠ هناك ٠ جند البلاد ، وعسكر الله ٠ ولكنه لم يســـلم مع ذلك من خشية اعتورت نفسه ، مايزال يحس

عقابيلها فى نبضه المتسارع وبهر أنفاسه ، حتى بعد أن مروا به وكادوا يغيبون وراء عقود التراب الذى يهبط بطيئا وراءهم · أولئك الأتراك والأكراد من مماليك الصالح ، على شجاعتهم وفروسيتهم ، لا يرعون ذمة الراكب الوحيد من أهل البلد اذا التقوا به على طريق · ولو قد عن لهم لما سلم من أذيتهم · وهم مع ذلك درع لنا وثيقة · حماهم الله للبلاد وحمانا مما قد يلهمهم به الشيطان ·

ومازال يسعل ويشهق ويجهد أن ينفض عن زوره ما علق به من غبار · ومد يديه الى الخرج وفتح راوية الماء الجلدية القديمة السـوداء المجعدة ، وصب فى حلقه آخر ما فيها من ماء ، فهبطت القطرات العذبة الخصبة باردة ، بللت جفاف حلقه ونزلت بطعم التراب من على لسانه وغسلت صدره · وعندما روى وانتقعت غلته حمد الله ونشق نفسا طويلا ملأ به صدره من هواء النيل ، وقد اقترب من حافته التماسا للروح من نسيمه بعد ان انقشع الغبار · لكنه أحس الشمس ثقيلة الوطأة على رأسه ، فادحة ، وغامت عيناه · ورفع يده ، وذراعه يحسها كالرصاص ، فمسح به على لحيته قطرات من الماء ندتها ورطبتها · وعندما صفت نظرته تعلقت بقلع المركب الضخم الذى يسير بحذائه على صفحة النيل المنخفضة الخضراء ، فنحن فى أول الصيف بعد ، ومازالت ثمة شهور طويلة قبل زيادة الماء وكسر الخليج فى القاهرة · ورأى نوتيا يبدو صغيرا بعيدا وهو غارق تحت حافة المركب ، عند سكانها ، يحركه ويضبطه ببطء وحرص ، والنوتية يشتغلون مقعين عند قاعدة القلع الكبيرة ، مشتغلين ببكر وحبال تدور وتشتد وترتخى ، وفى قاع المركب العميق بغال وحمير مربوطة ، وأحمال مكومة ، وأعدال مرصوصة من العلف ينام عليها ثلاثة أى أربعة من الحمالين ، وجوالقات من الغلة والميرة ترتفع من القاع حتى تشفى على حافتى المركب · والقلع الأبيض الكبير مبسـوط لا يختلج ولا يرف ، ولكن للموج الهين حفيفا ورقرقة واصطفاقا على خشب المركب العتيق المدخن ، والقلع يرمى بظل كبير ، منعش ، يبرد

القلب ، على كل هذه الحياة المحتشدة فى قاع المركب ، ساكنة لا تند عنها الا أصوات يغلفها البعد والهواء ويخفف منها · وتمنى عبد الله لو انه وجد ظلا يقيه أوار الحر ووطأة الصهد ، ويخفف عنه ثقل هذه الشمس التى تترصده من السماء ، تتعقبه بلا رحمة ·

وعلى طول ما أعتاد من السير على الطريق والسفر المرهق الذى يحطم الأشلاء ، فقد أخذ ينصب فى نفسه وفى جسمه ثقل بطىء رازح أخمد جيشان الراحة القليل الذى ثار فيها بعد أن شرب آخر ما فى راويته من ماء · فمسح على وجهه المغضن الذى غشاه التراب ، واستعان بالله ، واستسلم فى همود لعذاب السفر ، وقد تناهى به حتى أصبح شللا وخدرا بحتا لا ألم فيه ، استقرت الأوصال الموجوعة كلها الى أوضاعها اليابسة المتصلبة المقوضة ، وهمدت فى هذه اليبوسة المفروضة عليها ، وطال عليها انصباب وقدة الحر وثوران التراب الخفيف وجفاف الحلق وهزات الركوبة بنفضاتها الرتيبة · وعاد الشيخ الى تهويم طويل كأنه الترنيق يأخذ بمعاقد عينيه المفتوحتين المتعبتين ، ولا تهويم ولا نعاس هناك ، وانما الكلال والرهق الخامد المستمر الذى ضاع فيه سياق الزمن ومعناه ، فى أبد متحرك متوهج الشمس ·· حتى أحس الأتان الأصيلة تحته تغير من وقع خطاها ، تتعثر ثم تدأدىء فى سيرها ، ثم تكاد تحرن وتتوقف ، فدعا باسم الله وأفاق من هذا الوخم الذى يفشو فى نفسه ويتخثر به بدنه · وتلفت فاذا هو يواجه بناء واطىء السقف عليه قبة صغيرة ، وفيه شباك من حديد ساذج الزينة ، وتحت الشباك قاعدة كالصفة من حجر مكلس عليها كوز من نحاس قديم ، وبجانبه ابريق دقيق الصنعة تلمع على نحاسه طبقة خفيفة من الماء ، مربوط بسلسلة رفيعة تتدلى الى داخل البناء المعتم · فتشهد الشيخ واعتدل فى جلسته ، وتأوه بالرغم عنه من وجع مفاصله ، وقد توفز فى جسمه المهدود نشاط جديد · آن له أن يستريح وأن يروى ويملأ راويته أيضا بالماء · وهو قد قارب الوصول الى بلد يأوى اليه ليلته · فهذه سبيل الشـــيخ

نجم الدين ، على مسيرة ثلاث ساعات أو نحوها من فارسكور · وقد وصفت له السبيل · وبوسعه الآن أن يصلى الظهر وأن يريح جسمه فترة من زمان قبل استئناف الرحلة · وهو اذ ينزل من على الأتان بمشقة ، تتخلع عظامه وتصر وتبعث فى أوصاله بشرار متطاير من الألم اللاسع ، لكن ذلك كله يهون ، فقد قاربت مسيرة اليوم على الفراغ ·

وهو يبادر الى الشباك ويغمس الأبريق فى الزير الذى يأوى تحت كن العتمة الخفيفة فى داخل البناء ، وعيناه اللتان سدرتا من الشمس لا تكادان تتبينان الزير ، لكنه يصطدم بجداره اللزج ثم يحس يده تنغمر فى الماء البارد الغنى يصطفق ويترقرق حول الأبريق ، وهو يعب الماء ويصبه فى راويته الجلدية العتيقة التى تمتلىء وتنتفخ ، ثم يملأ الكوز ، وللماء فيه بقبقة عذبة الجرس فى أذنيه ، ويسكبه بين يديه يطسه على وجهه ويمسح سبل لحيته وسالفه ووجهه · وقد انتعش وردت اليه الروح · والأتان تتململ وتفحص الأرض بحافرها ثم تنهق نهيقا خافتا فيه شكاة ، كأنما تعتب عليه أن نساها ·

فيبتسم الشيخ لنفسه ويهمس بها :

ـ لا بأس ، لا بأس عليك ياحمارة عبد الله · آن لك أيضا أن تشربى وأن تصيبى غذاءك وتأوى الى الظل · أتعبتك مشاركتى فى الرحلة الطويلة الى مقام الجوار · ولو كان للأنعام جنة ونعيم مما وعد به الله عباده المتقين لكانت لك فيها محلة التكريم ، وعلف طرى غض لا ينضب له زاد يا حمارة عبد الله ·· فيالطول ما شاركت عبد الله صبره الطويل !

وهو يقود أتانه الى ما وراء مبنى السبيل ، ويوثقها بأخية مجعولة لركائب الطريق ، تحت ظلة من سعف النخل وحطب الذرة ، أمام مسقى الدواب ، ويأتى بالمخلاة المحشوة تبنا فيضعها تحت خطم الأتان الذى يسقط منه خيط من لعاب الجوع أبيض لزجا على يديه ، فيمسح يديه بالمخلاة ، ويربت عنق الأتان ويدلف الى الظل البارد الظليل فيسقط على الحصير المفروش على أرض لينة طرية ، وتهب به نسمات هينة من النيل ٠

الفصل الثانى

توضأ الشيخ وصلى الظهر ثم أصاب شيئا من طعام مما قسم له الله ، حزمة فجل وقطعة من جبن قريش ، مع فرخ بصل كبير وشيئا من الصعتر والقثاء أيضا · وتجشأ وحمد الله وتسربت الى أوصاله الراحة المضناة التى تعقب التعب المبرح الطويل · واستند الى جدار السبيل الخلفى الذى تساقط طلاؤه من الرطوبة والقدم ، وجعل ظهره الى الطريق وعينيه الى النيل ، واسترخى ولانت أعضاؤه المكدودة ، وراحت حبات مسبحته تتساقط فى يديه الواهنتين ، يتلو الأوراد والأدعية ، رقرقة أمواج النيل من تحت الجســـر ترتفع اليه كأنها تسابيح خافتة ، وأتانه تمضغ علفها وتجتر فى صوت رتيب · وهو ناعم بهذه اللحظة من الراحة ، بعيد ، قد أحتجز العالم كله دونه ، فما تعود تهمه قرقعة سنابك الخيل التى تقبل من بعيد ، على الطريق ، فى عاصفة من الهدير ترج الأرض وتهدها فى وقع منتظم سريع يعلو ويعلو ثم يخفت ويضيع · ومازال الشيخ يتلو ، ويســـاقط حبات مسبحته ، تلاوة لا بدء ولا نهاية لها فيما يخال ، والهواء حلو ظليل يداعب وجهه ، وثم طنين ذبابة تئز وتدور ، والعالم وضىء وضاءة خاصة ليست من الشمس بل من نور آخر · وهو يسمع جلبة ودبدبة

وحركة وأصواتا متداغمة لا يفقه لها دلالة مستبينة ، وناسا تتحدث وتلغط ، ودوابا تحمحم من بعيد ، ونباحا · أصوات مغلفة كلها ببطانة من الراحة والدعة والغموض ، ثم يعقبها غياب النوم وغمغمة التلاوة التى لا ينقطع تردادها فى حلمه ، وتعاقب حباب المسبحة بين أصابعه الواهية ·

لكن ضحكة رقراقة أنثوية غريبة هزته مرة واحدة فأفاق من غفوته ، وهب فى جلسته وهو يستغفر ، ولولا أن تماسك واستجمع شتات جأشه لما أفلت من أن يكون مثارا لشىء من السخرية فى هبته المفزعة من النوم الى فجاءة هذا الاقتحام الأنثوى لخلوته ·

كانت صلاته وتلاوته ، وغفوته القصيرة قد بثت فى جسمه الضاوى وأوصاله المعقودة راحة ونعمة ، فلما أجال البصر حواليه ، وقد ذهب عنه وصب السفر واستشعر فى أعضائه صعود ماء القوة والجلد القديم ، رأى الظلمة تموج ، فيما خيل اليه ، بالناس والدواب · وما أن زالت عن ذهنه وخامة النوم الأولى ، بعد لحظة ، حتى أشرق الأمر فى عينيه ، فهى قافلة من قوافل الغجر الطوافة فى البلاد ، ببغالها وخيامها وعتادها · وغصت نفسه للوهلة الأولى بالضيق والضجر، فما كان ليستريح الى أهل الملاهى والملاعب هؤلاء. والمتواتر عنهم أيضا أنهم لصوص نهابة لا يزعهم رادع من خلق ولا دين ، وهم على ذلك أصحاب مفسدة وغواية ، وان كان لا يخشى منهم شيئا على ماله ، فليس له مال مذكور ، ولا على دينه فانه لوطيد مكين بحمد الله ، ولا على نفسه أيضا ، فهى أبية بالطبع على المجانة والتبذل فى كل الأحوال ·

أخذت عينه عجوزا فى ركن الظلة ، تطعم صبيا ناحلا فى زهاء الرابعة من عمره ، لوحته الشمس ولكنه مورد الوجه ، فيه قسامة ودماثة مونقة ، وان كان مشعث الشعر كأنه لم يحلق قط · ورف قلب

الشيخ للصبى ــ فليس له ولد ــ ولكنه استعاذ بالله من الفتنة ، كانت العجوز فى ملابسها السوداء السابغة المغبرة تضوء بالحنان على الولد ، بالرغم من فمها الأدرد وغضون وجهها الغائرة الأخاديد ، فهى سافرة غير منتقبة · ورأى الشيخ ثلاث بغال تنوء بأحمالها من الخيام والحبال والأوتاد والمتاع الثقيل ــ على غثاثته ــ من قصاع وبرام وقفاف ومقال ومواعين ونحوها ــ مربوطة الى الأخيات بجانب أتانه ، وقد شاع بين الدواب جميعا جو من الألفة والفهم والزمالة ، كلها نضو سفر ينعم الآن بالعلف والظل والراحة ، وانبعثت منها أيضا رائحة حريفة ثاقبة من روثها وعرقها ، وانحط على الأرض بين سيقانها كلب أعفر ضخم غريب الخلقة ، قد أغمض عينيه نصف اغماض ودفع رأسه بين ساقيه الأماميتين واسترخى فى همود يند عنه هرير خافت · فأوشك الشيخ أن يبتسم · ولكنه بهت وفوجىء وجمدت عيناه ونفسه · هذه المرأة تقبل من وراء مبنى السبيل ، تنحنى فى لدونة ورشاقة أمام الدواب ، كأنها تلتقط خطواتها التقاطا من بي المسقى وأكوام العلف الصغيرة ، وجسمها الرطب الغض كله يترقرق كضحكتها ــ لا ريب أنها كانت ضحكتها ــ لكنه كالماء فى قربة مطواعة ملآنة ، يترجرج ولا ينسكب ، من خلف ثوبها السابغ الذى يضيق مع ذلك على مواضع الفتنة ، ثوب من القماش العنابى الغالى مخطط بحمرة وصفرة ، تتمنطق عليه بحزام عريض من الديباج الفستقى يدور ببطنها وينهض من عليه نهداها الراسخان ، على ما يحدسه البصر فيهما من طراوة وارتخاء خفيف ، وهما يترجرجان اذ تعتدل بعد انحناء ، ويضمهما الثوب المخطط فى مسكة عاشقة ملتفة ، وجهها السافر الصبوح قمحى منور بالجمال ، فى ملامحه دقة ونضرة كأنها طفلة ، وفيها شبه قوى من الصبى ، فلعلها أخته ، أو أمه ، حتى اذا وقعت عيناها عليه ارتعد الرجل من وقع نظرتها العميقة · عينين واسعتين دعجاوين سوادهما متلالىء يسطع بالتماع غريب مخضل ، تحت أهداب طوال لها ظـــلال داكنة مرمية على عظـــام الوجنتين

اللطيفتين ، وتنوس عذبات شعرها مغلفة من تحت عصابة من القصب مدورة وثيقة تلف شعرها الاثيث الوحف وتنسدل على جدائله الملقاة على العنق ٠

بهت الرجل لمرآها ، وذهل عن نفسه حتى لم يكد يتبين الرجلين اللذين كانا يتبعانها ، وان طاف بشعوره ان أحدهما طوال وثيق البنيان راسخ الخطى ، والآخر سريع متوفز يوشك أن يكون قميئا تقتحمه العين ٠

وعندما اعتدل فى جلســـته كانت البنت الغجرية تؤول فى خفر وحياء ، وصوتها مع ذلك يأتيه ناعما رخيما فيه أثارة من دل ، وشبهة من غنج :

ـ صـــح النوم ياسـيدنا الشيخ ٠ نوم العافية ٠ أزعجناك فاعذرنا ٠

فأجابها وصوته لما يكد تستقر نبرته ، من وجيب قلبه المضطرب، وهو يغض بصره ، ويلتقط مسبحته من على الحصير :

ـ صح بدنك ياستى ٠٠ الحمد الله ، واستغفر الله ٠٠

وهو يلمح الرجل الفارع القوام يذهب الى البغال فيوثق عليها حبالا ويعكف عليها يربط ويفك وينزل أحمالا ، والبنت تجلس على الحصيرة بجانبه وتنحنى فتسدل طرف ثوبها على كاحليها وقدميها ، ويهتز قرطها الكبير الزجاجى الأحمر بجنب خديها الناعمين ، وتستند بظهرها اللدن الى الحائط ، فتند عنها ـ كأنما برغمها ـ آهة استراحة بعد طول تعب ، آهة صادرة عن عمق فى الأحشاء تنم ، على غير انتظار ، عن شىء كالأسى الغائر المدفون ، يناقضه كل ما يبدو عليها من وسامة ورونق وبهاء ، ويتبعها القصير ذو السراويل الخفيفة الحائلة الصفرة ، فيحتبى فى جلسته ويضم ركبتيه الى صدره الضيق

الذى يبدو مع ذلك من فتحة جلبابه الخشن قويا مكين العظام على رغم قضافته البادية ويبوسة جسمه ، والفتى اذ يجلس على مبعدة منها ، صامتا متوتر العصب ، يرمقها بنظرة غريبة مليئة يعتمل فيها الشىء الكثير ، لا تخطئها عين الشيخ الحصيفة النافذة • وتغمض البنت عينيها لحظة فى متعة بالاسترخاء ، ولكنها لا تلبث أن تتوفز بالنشاط ، وتبدو اذ تتململ فى جلستها وركاء لفاء مثيرة فى جسمها المدور الطرى ، وتتجه الى الشيخ بنظرة طلعة متسائلة كأن فيها معابثة وغزلا ، لولا ما عصم الله :

ــ الى أين ياسيدنا الشيخ ان شاء الله ؟

ــ ذاهب الى بحرى •

ــ أم متجه معنا الى قبلى ؟

ــ آه •• ما أروح هذا الظل بعد صهد الشمس ••

ــ بحرى أم قبلى ياسيدنا الشيخ ؟

ــ الى دمياط بعون الله ••

وهو يقتضب الكلام اقتضابا ، وينأى ببصره ، على جهد ومشقة عن هاتين العينين •

ــ دمياط ؟ ياخرابى •• ! دمياط وما جرى لدمياط ! ألم تسمع بعد ما حدث وما يحدث ؟ العسكر تملأ العين فى دمياط وحواليها - يقولون ان مولانا السلطان ــ ربنا يشفيه ويقيمه لأمة المسلمين ــ بعث الى دمياط بعساكر تسد عين الشمس • والناس فى هم مقعد مقيم ، من الفرنج الذين يقولون انهم ركبوا البحر الى شواطىء مصر المحروسة ــ ربنا يحميها وينصرها على من يعاديها ــ لكن للضرورة أحكام • لابد أن الأمر قد حبك ياسيدنا حتى أنك لا تستغنى عن دمياط !

ومازال فى عينيها هذا الذى يخيل للشيخ أنه غزل وتعريض بأشياء مثيرة حميمة · لم يكن الشيخ قد ألف حديث النساء البتة . اللهم الا محارمه والعجائز من قريباته، ولم يكن بطبعه ودينه ممن يترددون على النساء الخواطى والعوديات والرقاصات وأهل المفاسد، فهذه التجربة تهز نفسه وتزلزلها ، لكنه الآن قد تمالك جأشه وأمسك بقياد نفسه مسكة حازمة ، واستعاد السيطرة على ثوران حواسه ، وعاد ذهنه بعد أن مال ، **وطيدا متمكنا فى القواعد الراسية التى اختطها له فقـــال وهو ينأى ببصـــره الى النيل ، فى غير تعجـل ولا اضطراب :**

ــ دمياط بلدى ياستى ·· والبلد عزيز على أهله ، مهما ألم به · ولمأعد اليها من زمن طويل · وقد استخرت الله وتوكلت عليه وعزمت على المضى اليها ، وعلى جوار جامعها « الفتح » أزره الله ·

تنهدت الفتاة ، وانجاب عن نظرتها كل غزل أو معابثه وترددت فى كلماتها نغمة الأسى الخفى الدفين ·· كأنه من شجن عريق فى القلب :

ــ جعلنا الله من بركاتك ياسيدنا الشيخ ، وادع الله ان يتوب علينا من الشقاء وهدة الحيل ·

ــ أى نعم ، الله تواب غفور · وما يلجئك يا بنيتى الى الشقاء وهدة الحيل والرجال قوامون على النساء وأنت تقدرين أن تستكنى الى حمى رجل يرعاك ويقيك العوادى ؟

ــ مكتوب علينا ياسيدنا · مكتوب علينا · قسمتنا وبختنا · من الشام لمصر ، ومن طنطا لبنها ، ومن دمياط للمنصورة ·· أكل عيشنا ياسيدى ، ورث آبائنا وأجدادنا من الشقاء والعرق ·

كانت البنت قد شط بها التعب والرثاء لنفسها ولمصيرها ، وهى على الرغم من وفرة جسمها الذى يستكين الآن الى الحائط غنيا بكنوزه ورابيا غضا زاكيا ، تبدو كأنها شىء مهجور صغير منسى ٠

ـ استغفر الله ، استغفر الله ٠يارب رحماك بعبادك أجمعين ٠ الى المنصورة ذاهبون أنتم الآن ؟

فقالت بصوت مهيض :

ـ ومنها باذن الله الى أشموم طناح ، فى محلة مولانا السلطان عسى أبواب الرزق تفتح لنا ٠ بيت السبع لا يخلو من العظام ٠ وفى أشموم عساكر السلطان والأمراء ٠ لو رأيت ما نفعل من ملاعيب ياسيدنا ٠٠ ! هذا الكلب ـ محروس ـ وهذه المعزة ـ مبروكة ـ يفعلان الأعاجيب ، مع مسرور هذا الذى تراه عيناك هناك ٠

وقد عادت الى صـــوتها نغمة خفيفة فوارة بالمرح والمعابثة والفرح بالحياة ٠٠ قلب حول هذه الفتاة ٠٠ ما أغربها ٠٠ ! وهى تنادى بصوت أغن ، وتصفق بيديها صفقة منغمة مخصوصة :

ـ مبروكة ٠٠ ! مبروكة ٠٠ !

ويرى الشيخ لأول مرة معزاة عجفاء تمضغ ، من وراء البغال والأتان ، أعوادا خضراء ، وفى عينيها نظرة حزينة عاقلة ٠ ترفع رأسها وتســـقط العود من خطمها فيتعلق ورقه الأخضـــر الدقيق بعثنونها ، وتثغو المعزاة فجأة ثغــاء طويلا كأنهــا ترد على نداء سيدتها ٠٠ والضحكة العذبة الرقراقة تنطلق مرة أخرى ، منتشية بالزهو والفرح ـ كأنها طفلة ـ من الصدر الخصيب الوثير ، فى نسيان تام لكل شىء ماعدا الفرحة الصغيرة الآن ٠ على انها تعرف بلا شك خدعة هذه المعزاة ، وقد دربتها وعلمتها ، لكن ردها عليها يأتيها كل مرة كأنها حدث باهر جديد ٠

والطويل الفارع الجهم الوجه قد فرغ من ايقاد النار وتأريثها فزهرت وتأججت تحت القدر المنصوبة على أثافيها السوداء ، وأزيز الماء قد بدأ فى القدر المدورة الضخمة ، وراح الطويل يمسح يديه على جنبى قبائه الأحمر الداكن القديم ، ويشد حزامه الغليظ على وسطه المتين ، ثم نادى بصوت أجش آمر ، دون أن يلتفت :

ـ بهية ، قومى راعى النار والقدرة ، وأنت يا مسرور أذهب فأغسل المواعين ٠

ـ طيب يا يحيى ٠٠ الله ٠٠ طيب قلنا ٠

واذ تهيأت بهية للنهوض انفلت الصبى من حجر العجوز ، متجها الى القدرة التى تغلى ولها نشيش ، فصرخت العجوز ولحقت وهى ترمى بنفسها على الأرض بآخر طرف من تلابيب ثوبه القصير وجرته اليها فى عنف لهفتها عليه ، فانكب على وجهه فى حجرها وأجهش فجأة بالعويل مروعا ، وعندئذ هبت البنت الغجرية تجرى اليه ، فاحتضنته وضغطته اليها وأحاطته بذراعيها ، وراحت تبوس وجهه وهى ترفعه اليها وتسوى شعره وتهدهده ، وبكاؤه يخفت ويهبط الى نهنهة الطفل الذى أعول واستنفد كل روعه فى البكاء حتى فحم ، وأخذ يشهق الآن اذ يتشبث بحضن أمه ويدفن وجهه المبلول فى صدرها ، بتلك الحركة من التسليم النهائى الذى لا يتأتى قط من الطفل ، الا لأمه وحدها ، حركة اللواذ بصدرها من كل شر وكل خوف ، والأمن الأخير اليها وحدها فى عالم محفوف بالخطر والفزع ٠ بينما القمىء ، ذو السراويل الصفر الكابية يقفز واقفا فى خفة ــ على ما يبدو عليه من ارهاق ــ ويتجه نحو البغال وهو يلقى على الأم بنظرة فيها عبادة ويأس وفيها أشياء أخرى كثيرة لم تخطئها عين الشيخ ، وينزع من على احدى البغلات صحافا ومقلى من نحاس قديم لكنه ملمع وهاج ، وينزل بخطى دقيقة متوثبة الى النيـــل ٠ والعجوز تسار نفسها بحديث لا يسمعه أحد ، فيه تسخط ولعنة على

الولاد المساخيط المدللين ، ولاد آخر زمن ، وتخالس الولد نظرات فيها محبة الجدات التى لا تخفى على أحد ٠

ذاهبون الى أشموم طناح ، حيث عسكر السلطان والأمراء ، يسعون وراء الرزق ٠٠ الحلال أو الحرام ؟ الله أدرى بعباده وهو الرحمن الرحيم ٠

وبهية ـ هذه بهية ، فقد ناداها الطويل الجامد الوجه القطوب القسمات باسمها ذاك ، بهية هذه راقصة بلاشك وصاحبة عود وغناء، جسمها وصوتها لا يدعان فى ذلك شكا ، استغفر الله ٠ كم يشقى الناس أحيانا ، بل فى غالب الأحيان ، وراء لقمة العيش ٠ وقد يضطرون فى تصيدهم لها الى المعصية ٠٠ ولكن الله غفور واسع المغفرة ٠ اللهم فاغفر لنا ، جميعا نحن عبادك ومتقوك ٠

وقد نهض الشيخ يلملم جوخته ، فقد مال ميزان النهار ، وآن وقت الرواح ، وأمامه مسيرة ساعات ثلاث حتى ينزل بمنزلته القادمة فى فارسكور ، وعساه يجد فى جامعها مبيتا وراحة حتى مطلع الفجر ، ثم يغذ السير الى البلد التى طال شوقه اليها ، فليتهددها العدو ولتخيم عليها سحابة القلق والترقب ، كما تقول هذه البنت ٠ ذلك لن يصده عنها ، وعسكر مصر تحدق بها ، على أى حال ، وفوارسها تذود عنها ، وسوف تدفع الغاشية وتمحق العدوان ٠

وبهية ترفع رأسها من على ولدها الذى يتشبث بحضنها ، وترمق الشيخ بنظرة طويلة مثقلة ٠ هذا الرجل الهادىء الرزين ذو الوجه الوضاح ــ فى عنفوان رجولته القوية الصلبة العود ــ قد مس فى أعماقها أبوابا كانت موصدة ، فانفتحت فى دخيلتها مناطق مخبوءة لم تكن تدرى أنها هناك ، مساحات من الحنو والرقة والأشواق الغامضة ، والصبو الى أمانى بعيدة ٠ وهى الخبيرة بالرجال التى شبعت منهم رأت فيه معدنا آخر حرا أصيلا ٠٠ لعلها عندما رأته نائما فى جلسته الى حائط السبيل راعتها منه وضاءة فى وجهه وخطوط

العزم واليقين ـ حتى فى اغفاءته ـ تنم عن جلال ما فى النفس ، عن مهابة تركتها آلام كفاح طويل مرير قد تكلل بالفوز ، كأنه هو سلطان حق ، وملك له صولجان · وهذه الرزانة فى صوته وكلماته ، بعد اضطراب وزلزلة ، ذلك قد شاقها وأرضى فيها زهو المرأة أيضا · لقد اهتز الشيخ حقا ـ ثم آب الى رصانته وجده ، واستعاد مهابته وجلاله ·

لقاء عابر على الطريق · ويمضى كل فى سبيله · هو ماض الى دمياط ، والى جامعها ، والى حياته الطيبة وهى الى دورة الطرق والموالد والافراح والملاهى والصخب والضجيج · وما بوسعها أن تنزل عن ذلك كله أو تتخذ منه بديلا ـ تلك حياتها الحق التى لا حياة لها الاها ، تبعث الدم الحار الساخن الى قلبها ، وما بوسعها أن تخيل لنفسها ولا أن تقبل نمطا آخر للحياة · وكل ما عدا ذلك خواء وموات ·

لقاء عابر ثم تتشعب الطريق بالمسافرين ·

والشيخ يلقى عليهم بالسلام ، من على ركوبته ، ويجيئه رد السـلام فى نغم أجش كثيف الطبقات متغير النغم ، أجش وعميقا ورخيما وخافتا ورد الصبى أيضا فيه سقسقة صغيرة ولثغة حلوة :

ـ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ··

كانت بهية ماتزال تتابعه البصر عندما واراه الجدار ، وعندما انطلق على أتانه فى عرض الطريق على خطو وئيد ينشط رويدا وينبعث الى التسارع المنتظم الرتيب، والتراب الخفيف يثور من حوافر دابته فى سحابة صغيرة منخفضة على الأرض · وقد راح يبتعد ، دون أن يلتفت الى وراء ـ ولا مرة واحدة ـ ويمضى حقا وفعلا الى بعيد ، الى غير لقاء ·

ـ بهية ··

ـ طيب يابحيى ، طيب ···

الفصل الثالث

لم يكن فى الحجرة الفسيحة المعتمة حس ولا نأمة ، الا حفيف المراوح الكبيرة من ريش الطاووس تهزها أربع جوار حبشيات تلمع بشرتهن الأبنوسية السوداء بندى خفيف من العرق ، اذ يقفن على نواصى السرير المنخفض الواســـع ، والريح الخفيفة التى تجلبها المراوح تهز ذؤابات عماماتهن الصـــغيرة ، من الديباج الأبيض ، ولا تكاد تهون من وطأة حر الضحى · وقد ثبتت عيونهن بانعكاس أشعة الشمس المخططة المشبكة الساقطة من خصاص نافذة المشربية دقيقة الزخرف ، على ستار ثقيل متموج بألوان عنق الحمامة ، منسدل من السقف حتى البساط الوثير العميق الخمل · وفى ركن الحجرة كرسى عال مطعم بالعاج بألوان وصدف ، عليه مبخرة يقوم منها عمود رقيق منتصب لاتكاد تنثنى قامته الرفيعة ، من بخور العنبر والبلسان والمصطكى ، يتبدد اذ يصطدم بالسقف ويشـــيع فى هواء الغرفة عبقا ثاقبا لكنه مريح يهدهد الحواس ويتسلل بالخدر الى نظرة الجوارى الحبشيات ، وهن واقفات فى ســـراويلهن الشفافة البيضاء من الخز الرقيق الساقط فى طيات تهف بها نسمات المراوح -

وقد ثبتت أردافهن الثقيلة وتصلبت سيقانهن من طول الوقفة ، وعلى وجوههن بلادة متعبة هى نقيض ما يرفلن فيه من بذخ ، كأنهن تماثيل ترسبت فيها آلام بشرية مثيرة للرثاء ، تتجاوزها كل الأنظار ، ولايكاد يحس بها أحد ، وقد ثبتت عيونهن فى حلم صامت خفى عساه يعود بهن الى هضاب فسيحة بين شعاب ووهاد وجبال وحشية عرفتها طفولتهن التى سرقت منهن وضاعت فى ذل الأسر والاسترقاق القديم ٠

انبعث من بين أغطية الديباج الدمشقى فى السرير أنين عميق خافت ، منتزع ، على حافة النوم ، من أغوار أحشاء موجعة ، تبعه سعال قصير متقطع جاف ٠ وتململ النائم ، وامتدت يده المعروقة الشاحبة تمسح ، فى نومه القلق ، ندى العرق على جبهته وصلعة مقدم رأسه وشعره القليل ٠ وانتبهت الجوارى ٠ ونشطت حركة المراوح فى انتظام آلى رتيب ٠ وانزاح من الباب ، للفور ، ستر ذو شقين ، ودلف منه رجل مترهل يخب فى فرجيته الخفيفة المفتوحة عن كرش بطين يلفه حزام عريض ، وسراويله المنتفخة تسقط على خف من أديم طائفى ناعم ٠ وفى وسط قسمات وجهه السخية اللزجة عينان ضيقتان تبرقان بذكاء قاطع حاد ، نظرتهما الثاقبة تنتزعان الانتباه عن دسامة الوجه الطرى والشفتين المتدليتين اللامعتين ٠

صحا النائم واعتدل فى جلسته على السرير ، بينما يدخل عليه الطواشى الرهل ، ووراءه غلام خفيف الخطو مليح أشقر ، أسرع يعدل المساند خلف ظهر السلطان ٠

نظر اليه الملك الصالح نجم الدين ، نظرة غائمة ، ومازال خاثر البدن قد راب دمه من النوم الثقيل الذى لا راحة فيه ، وامتدت يده تمسح ترائب صدره الناحل الأشعر من تحت فرجة القميص الكتانى ٠ واستقرت نظرة الملل والبرم على استاداره وهو يحنى رأسه فى توقير قائلا :

ـ أصبحت بخير يا مولاى ·

ولا يزيد الطواشى ، بل يلزم الصمت ، وقد لمعت فى عينيه نظرة خوف واختفت على الفور ، بذكاء ، فليس يملك أن يدع السلطان يرى فى عينيه خوفا ، والا ما سلمت العاقبة ، على ما يلوح من الثقة الكاملة التى يوليها السلطان أياه · وللرجل المســتيقظ لتوه من النوم ، على رغم ما يبدو عليه من النهك والسقم ، مهابة بادية فطرية تحجز استاداره ـ وهو أقرب الناس اليه ـ عن مجرد السؤال عن صحته ، وتلجئه الى السكات والانتظار ·

وقد صحت الآن نظرة السلطان واستقامت ، فهى آمرة نهائية اذ يقول للطواشى ، وهو يأكل كلماته الأولى ثم تشتد عبارته وتقوى وتتضح مخارجها ، على ما يحسه من ألم ينحت اضلاعه :

ـ وأسعد صباحك يا جمال الدين · أبو حليقة بالباب ؟ اذن فقل للأمير جاندار أن يدخله ، وأبعث الى الزمام دار يدعو الى مولاتك السلطانة ·

وأشار بيده دون أن يلتفت اشارة لم تكد تستبين لفرط دقتها ، لكنها أتت بما يشبه السحر ، فقد توقفت المراوح ، وانسحبت الجوارى الحبشيات الى ركن الغرفة ، ووقفن بجانب كرسى المبخرة ، وطوين المراوح وسكنت أجسامهن الى وضع من الصلابة المنزوية لا نسبة فيه الى الطراوة العجينية فى أثدائهن التى تنفرج عنها دراعات قصيرة مفتوحة من القصب الثقيل ، تتحلب تحتها قطرات لامعة من العرق على بطون مدورة مكشوفة وان كان ذلك كله ليس له من أثر على السلطان ، كأنهن لا يزدن عن دمى كبيرة من خشب أسود منجور ·

ما كاد الملك يلتفت الى طواشيه وهو يخرج بظهره ، ولم يبق الى سريره الا الغلام الأشقر ، على أهبة الاستعداد لتلقى أوامر

مولاه · وعاد الملك يحس نفسه وحيدا فى القاعة الوثيرة الفسيحة ، وعصف به سعال جاف مكتوم كاد ينشرخ له صدره ، وقد انحنى الغلام على وسادة جنب السرير ، وأمسك من بين ما عليها من أوان طبسيا مدورا ، صب فيه من أبريق فضى ، قليلا من ماء الزهر ، لكن السلطان كف عن السعال، ولم يلتفت الى الغلام وان كان قدأحس بما فعل ، وسال فى قلبه ماء من الحنان والرقة له ، وقد دار رأسه ، وأحس السرير يرتفع به وينخفض ، واهتزت فى عينيه أشعة الشمس المتراقصة المشبكة على ستار النافذة ، وطاف بذهنه فى غموض ، انه مازال فى محفة يشق بها صحراء الرمل ، فى قافلته التى تغذ السير نحو أشموم طناح ، بعد ان تواترت اليه الاخبار وجاءه رســـول الامبراطور فردريك متنكرا فى زى تاجر ، ينبئه بخروج ملك الفرنجة فى قوة بحرية عظيمة يقصد شواطىء مصر · وشمس الصحراء فى شهر المحرم ، تهتز على ستر محفته ، وتنفث عليه سخونتها ، شمس الصحراء التى طالما سقطت عليه بأوارها ، على شبابه وحياته التى نقطتها الرحلة والغزوات ، والوقوف على الحصـار خارج أسوار دمشق وحمص وحماة ، والركوب للحرب الى ســـنجار ونصيبين والخابور ، والوقوع فى الأسر فى الكرك وسنجار ، والخروج الى المنفى فى كيفا ، وحتى فى صباه الباكر عندما سيره أبوه الكامل رهينة عند الفرنجة فى دمياط الشهيدة ، حياته تمضى تحت هذه الشمس · تنخفض وترتفع على صهوات الجياد أولا اذ كان فى عنفوان شبابه ورجولته ، ثم فى فرش المحفة اذا انفجر به هذا المرض منذ نحو سنة ، فى أشموم طناح هذه نفسها ،فاذا به يستيقظ ذات صباح ، كهذا الصباح بالضبط ، وقد عرض له ورم فى خصـــيتيه ولم يبرأ · لكنه ارتحل للحرب ، وفتحه له أبو سعيد هبة الله ، الطبيب فى دمشق ، ولم تهنأ له بعد ذلك حياة ، التاث جســـمه وحط عليه الاعياء والمرض ملازما لا يبرح ، وامتد الورم الى مأبضه ، وانفتحت فيه قرحة ممتدة وتعسر البول ، وألم الناصور يعذبه عذابا لا يكاد يطيقه ولا يكاد يصبر عليه

لكنه يطيق ويصبر ، ثم هذا السعال الذى ينفضه نفضا ويخرج بخيوط الدم من صدره ٠

وأمور الدولة مع ذلك ملحة لا تصبر ، لا تهادنه ولا تهاوده ٠ لكن همته القوية لا تقصر عنها ، وهو يسوم نفسه أن ينهض بحمل أعبائها مهما كانت تؤوده وتنوء به ٠ كأن تجاربه المرة فى شبابه قد ألزمته أن يسوس كل شىء بنفسه ، وأن ينظر بنفسه فى كل شىء وأن يجد متعة فى حمل أعباء الحكم والسلطنة ٠

كان الصمت التام قد ساد القاعة من جديد ، لا تكاد تصل اليها من الخارج أصوات مكتومة ، طامنت منها الجدران والستور ، خيل تصهل من بعيد وجمال ترغو فى فحولة ، وهى فى مناخاتها بساحة القصر ، كأنها هى أيضا تنهض بأعباء ثقيلة ، لتسير فى خط حياتها الذى يعلو وينخفض ٠

هفت رائحة عطرة من المسك والخزامى والريحان ، عبق وديع لكنه لا يغيب ، ممتزج عنده دائما برائحة حميمة خاصة كنفس الورد الغض ، ـ هى بالفعل كأنها أنفاس الورد فى حدائقه ـ ينبعث له دائما من جسد ناعم رطب وثير طيب الملمس ٠ ودخلت عليه صاحبة هذا العطر ، سيدة فى زهرة العمر ، زهرة ناضجة متأخرة كأنها فى آخر صيفها ، وردة قد اختزنت فى أوراقها الداكنة ، المخملية ، كل دفء الشمس تنفحه فى بذخ هادىء كريم ، لأن عندها منه زادا لا ينفد ، وكأنما اذ هى تدخل عليه القاعة تزيدها صمتا على صمت ، من مهابتها وحسن سمتها وروعة جمالها ، فكل شىء يحبس أنفاســـه لمرآها ، فارعة القوام رشيقة خفيفة الخطى ، ومتموجة القامة فى لدونة ، وامتلاء مكتف بنفسه ، وفى عينيها الواسعتين العميقتين حياة صافية ساطعة غير داكنة ، كأنها نمرة راضية متملكة ، لكنها نمرة فيها ، مع الخطر والروع ، خير رائق وحنو رضى دمث الأعطاف ٠

وهو يلمحها تقبل عليه رافلة فى سـحابة عطرة هفهافة من ثوبها الفستقى السابغ الناعم الواسع الأكمام ، ولا تلقى بالا الى شىء فى الحجرة عداه · ويحس بنفسه مرة أخرى مركز الكون ومحور العالم حقا، وها هو ذا فى محضرها يستعيد عرشه ، ويأنس من وحشـة يقظته ، وحده ، من نوم المرض ، ويشعر بكل شىء يستقر من جديد فى مكانه المرسوم · وها هى ذى قد اقتربت منه ، وانحنت عليه ، ومسحت جبهته بيدها الرخصة الرطيبة ، وأصابعها الطرية تهدىء بقية وقدة الحمى الخفيفة فى جسمه ، أطيب من العنبر وأروح من ماء الورد ، وعيناها العميقتان تفيضان عليه محبة وولاء ، بئران يرتشف منهما رحيق الأمن والراحة ، وهمستها الشجية تأتيه ، له وحده ، فيها ذل الحب والوفاء ، وفيها جرأة المحب المحبوب :

ـ صباح الخير يا سيدى · أصبحت بعافية يا مولاى وحبيبى · الحمد لله زالت عنك الحمى ·

ـ صباح النور يا سيدتى ووردتى · يا كنزى أنت ، ياشجرة الدر ، كنزى الوحيد ·

وترفع شجرة الدريدة الشاحبة الواهنة الى فمها ، فى امتنان الحب ، وتقبلها قبلة بطيئة مليئة ، بشفتيها النديتين ، على عظام الأصابع اليابسة النحيلة ، وقد انهل فى قلبها ينبوع من الحنان · وهى اذ تنحنى على يده قد خطفت فى عينيها مع ذلك نظرة مرت كالبرق سريعا ، تنم عن مخاوف غامضة ، بل عن خشية صريحة ما قد يخبؤه الغد بكل احتمالاته المجهولة ، لكنها اذ رفعت اليه وجهها عادت عيناها صافيتين تترقرق فيها ظلال مريحة تبرد غلة الروح · ذلك كله يدور على مرأى من الجوارى والغلام ، كأنما لا وجود لهم ، ولم يكن لهم فى الواقع وجود عند السلطان وأميرته ، فهم بعض المتاع ·

كلمة واحدة ، بل أقل ، اشارة واحدة هينة ، حسبها ان تزيح هذه الأشياء من الطريق لوَ عرض أدنى ما يدعو الىَ ذلك · والجوارى والغلام قد استقر فى أعماقهم ادراك متملك تام بذلك ، بلغ من قوته أن أصبحوا بالفعل أقرب الى الأشياء الجامدة ، كأنهم لا يرون ولا يسمعون · حرصهم على مجرد البقاء أحياء جمد فيهم خصائص الحياة ، فهم الآن يكملون رياش القاعة وأثاثها ، لا أكثر · لكنهم مع ذلك سمعوا رد السلطان ، وطافت فى عتمة ادراكهم دهشة خفيفة لا صوت لها ، فالسلطان فى العادة صموت مداوم على الصمت ، وقور جاد لا يكاد يقول الا النزر النادر من الكلام ، وفى المهم العظيم من الأمور ، لكنه اليوم ردد كلمات المطايبة الكثيرة للسلطانة · قالها بصوت خفيض أجش ـ صحيح ـ وبلهجته الواثقة الركينة ، لكنه قالها ·

وقد شرد انتباه الرجل الذى مازال فى جلسته المضطجعة على السرير · وكان الولاء والحب فى عينى جاريته وسريته وزوجته قد ذكراه بالولاء والحب الذى عرفه فى جسمها أيضا · وهذا العبق المتأرج منها قد أعاد لذهنه ذكريات قديمة لكنها لا تمحى ، جسد وفى خالص الوفاء فى هبته الحميمة لأخفى كنوزه وأسراره ، لم يخنه قط ولم ينفر منه ، ولا احتجز عنه النشوة ولا الثمل الذى يستغرق كل شىء ويتجاوز كل شىء فى روعته الفسيحة غير المحدودة · انسربت الى فمه مرارة وأحس طعم الحبوط ، كالتراب · انما خانه جسده هو ، وتمرد عليه ، وانفلت من حكمه ، دانت له الدنيا وعصاه أطوع شىء للناس جميعا ، وما عاد يسعه ، هو ، مجرد أن يسير أن يحرك ساقه المتورمة ، ولا أن ينسى هذا الورم البذىء المتضخم بين فخذيه ، متخثرا ثقيلا يغمزه فى أدق مواطن جسمه حساسية ويضع على رجولته نفسها شبهة وظلا ، ولا هذه القرحة التى امتدت حتى فخذه اليمنى وعاثت فيها فسادا ، ثم جفت رطوبتها من فرط نحوله وفراغ المواد فى جسمه ·

ثم هذه الحمى التى تأتيه ليلا فتنفضه نفضا ، والسعال الذى يمزق صدره ويوشك أن يحطم أضلاعه · ما عادت الحياة تهنأ له فى شىء ، منذ أن مات أخوه العادل · أصبحت كلها خاوية ناحلة شفافة ، ولولا هذا الحب الذى يراه فى عينى جاريته القديمة الوفية ، وأم ولده خليل ، لما علت همته الى شىء ، أو عساها ·

ولكن هذا الطبيب لم يأت بعد · وعليه أن يصرف أمور هذه الدولة التى يظل يمسكها بين يديه بمجرد قوة ارادته وصحة عزمه ، والا تبددت منه شتاتا · ولن يحدث ذلك ما بقى فى صدره هذا نفس يتردد · أفلتت مرة من بين يديه ·· مرة واحدة لن تتكرر أبدا ، وبعد أن عهد اليه أبوه الكامل ــ رحمه الله وغفر له ــ بولاية العهد ، وسار بشعارها يشق القاهرة ·· ما أروع ما كان ذلك فى صدر شبابه الأول ، والحياة بهيجة حلوة ، والقاهرة كلها ، عاصمة الدنيا ، تحت قدميه ، والأمراء الكبار يتناوبون بين يديه حمل سرجه الأديم المخروز بالذهب يلفتونه يمينا وشـــمالا ليراه الكافة ، كأنهم بعض الخدم ، والقبة الحرير الصفراء تظلل رأسه ، فى أعلاها طائر من فضة ، مطلية بالذهب ، ورقبية الأطلس المزركشة بالذهب على عنق فرسه ، والموكب الحافل الباذخ بالأبواق والطبول النحاس ·· وبعد أن كادت الدنيا تنقاد له وملك المماليك الغفيرة ، وتكامل له منهـــا ألف مملوك . وأصبحت له دولة وسلطة ، خانته امرأة وقوضت بمكرها كل ما شيده · لن ينسى أبدا كيف وشت به زوجة أبيه سوداء بنت نصر ، ودست عليه عند أبيه الكامل وأوغرت صدره عليه ، حتى تمهد الأمور لأبنها العادل ، هذا الغر المتلاف الذى أوشك أن يضيع الدولة · رحمه الله أيضا ، فما تجوز عليهم جميعا الا الرحمة · وغفر لى وله · ثم نفاه أبوه الى حصن كيفا فى المشرق ، وتوالت عليه المحن · لكنه عرف كيف يحتملها بشبابه واقدامه وطموحه الذى لا يقصر دون غاية ·

ــ تذكرين يا شجرة الدر أيام كيفا ؟

ـ نعم يامولاى ·· كيف لا أذكرها · ما الذى أعادها الآن الى فكرك ياسيدى ؟ كانت أياما شاقة ، فيها شظف وعناء ·

قال السلطان وهو يصر بأسنانه ، يكاتم ألما ثار فجأة به :

ـ ولكنها يادرتى أجمل ما عرفته من أيام · كنت صغيرة خائفة ولكن فيك جرأة ، لا تقف عند شيء · وأنت مليكتى ، أسرتنى وملكتنى ومنحتنى أيضا ابننا الوحيد رحمه الله · أريدك يا شجرة الدر أن تعرفى امتنانى وعرفانى يا أم خليل · عسى الله يريد أن يعاقبنى · لماذا حرمنى منه ، ابنى وصلبى ؟ ثم أفقدنى الآخر فى دمشق ، فى السجن ، ومات الملك القاهر فى حياتى أيضا · ولم يبق لى الا هذا الفاسد المضياع فى كيفا ·

ـ سيدى ·· علام تقليب الجراح ؟ سوف تنهض بعد قليل ، ويكون لك ما تشتهيه من ذرية صالحة ومجد مؤثل بإذن الله ··

لكن السلطان كأنه لم يسمعها ، كانت دفقة الأحزان الغامضة قد اندفعت به لا تقف ، وهو يكاد يهمس لنفسه :

ـ رحمك الله يا خليل ، رحمة واسعة ، يا أصغر ابنائى ·· وأفسح لأبيك ، اذ يحين الحين ، مكانا بجوارك أنت يا شهيد ·

ثم التفت الى زوجته فجأة ، جادا ثابت النظرة :

ـ اسمعى يا شجرة الدر ·· اذا حم القضاء فاتركى الأمر بين يدى الخليفة المستعصم فى بغداد · هذه وصيتى اليك ·

فهتفت فى جزع ولهفة :

ـ مولاى · مولاى · شفاك الله وحفظك من كل سوء · وحماك لأمتك فأنت ذخرها وعتادها ·· وأبقاك يا سيدى لجاريتك وأمتك ·

أن يهنأ لى عيش بعدك لحظة واحدة ياحبيبى ، لا قدر الله· ولتشيعنى أنت الى قبرى يامولاى فتلك أمنيتى وهناءتى الأخـــيرة وفيم هذا الحديث كله يا سيدى ؟ سوف تنهض الى صهوة جوادك يا نجم الدين، أنت تعرف ذلك ، وسوف تملك وتبقى مملكتك ودولتك وارث آبائك الى ما شاء الله · لا تعد أبدا الى مثل هذا القول يا مولاى ، بحقى عندك، وحق ابنك الشهيد ·

عيناها الجزعتان قد تحيرت فيهما الدموع ، ولكنها لم تنحدر على شدة شوقها أن ترتمى على الوسائد فتبكى ويتقاطر قلبها كله دمعا من الشجن والألم الذى يزلزل أحشاءها · لن يبرأ سقم قلبها أبدا من موت ابنها الوحيد ، ولن تعود الى قلبها أبدا سلامته · لكن ارادة قوية مكينة هى التى احتجزت دمعها خلف ستر من الصلابة والتشدد ، وردت عليه أبوابا ثقيلة ·

قال السلطان فى وهن وتسليم ، كأنه يطيب طفلا أو يغض العين عن حقيقة سافرة لا تحتاج لكثير بيان :

– نعم ·· نعم ·· يا شجرة الدر لن أعود ·· لن أعود ··

وكأن فى لجهته نذيرا وادراكا فطريا بأنه فى الحق لن يعود ، لن يعود الى أشياء كثر مضت وانقضى عهدها · كان يريد الآن ان يستجم لحظة قبل ان يأتيه الطبيب وقبل ان يقوم الى شئون دولته – فى الراحة التى تلفه وتغشاه وتهدهد جراحه مع شجرة الدر ، فى عبق شخصها الطيب الذى يحجب عنه كل شىء عداه · ولكن نفســـه لا تستكين الى راحة ، ودارت عيناه فى سأم المرض وقد عاد الى قسماته الصارمة قطوبها المألوف ، وثبتت نظرته فلم ير الجوارى الحبشيات ولم يحس أنفاس الغلام الأشقر تتسارع فى لهفة وخوف مفاجىء لا سبب له · ومضى ذهنه ، فى مجراه المعهود ، يحسب حساب الجند الذى سيره الى دمياط استعدادا لملاقاة الغزاة الفرنجة

الذين يرتقب سقوطهم على البلاد فى أية لحظة ، ان فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ على رأس الجند ، وهو رجل يوثق برأيه وشجاعته · ينزل عنده منزلة العم · فهو أخ لأبيه فى الرضاع · ثم هو قد شاركه المرة والحلوة · كان معه عندما بعث به الكامل رهينة عند الفرنجة فى دمياط ، منذ ثلاثين عاما أو تزيد ، حتى تم تسليم المدينة ، ثم أقام يدبر معه أمور المملكة عندما ناب عن أبيه فى غيبته أثناء ولاية العهد ، وصاحبه فى محاربة التتر عندما غضب عليه أبوه ، وشاركه منفاه فى كيفا أيضا ، وعمل على تخليصه من الأسر مرتين ، مرة من أسر بدر الدين لؤلؤ صاحب سنجار ، ثم من أسر ابن عمه الناصر داود ، فى قلعة الكرك · كان له دائما وفيا ، فى هذا الزمن الذى يعز فيه الوفاء · بل كان يشاركه أيضا لعب الكرة والصولجة · الحمد لله ، لئن اخترم الموت أبناءه واحدا بعد واحد ، ولم يترك الا غياث الدين طوارنشاه ، هذا العاق الشقى ، ما فيه أيد ولا جلد ، ولا رأى لتسيير الدولة ، كأنه قد حرم الولد جميعا ، فقد وهبه الله مع ذلك مماليكه الذين يمحضونه الولاء ، ويخلصونه الحب ، وأصحابا خلصا من خاصته : فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، وبهاءالدين زهير صاحبه ووزيره ، وطبيبه أبو حليقة رشيد الدين أبو الوحش ، الرجل الطيب البارع الطب والحكمة ، ثم كنزه ومولاته شجرة الدر الأثير العاقلة التى لا يعدل بها فى الدنيا شيئا · هذه التى تقف دائما الى جواره سندا وظهيرا ، وتكاد الآن تقرأ ما يدور بخاطره ، فهى تنظر الى عينيه ، وتطل على داخل روحه ، وليس فيها ما يخفيه · نفسه كلها ساحة مفتوحة مكشوفة لحبها · وهى تمسح على يده الناضبة الماء ، ولا تستميح لنفسها أن تسائله عما يعنيه ويؤود ذهنه ، فانها لتعرف فيه ايثاره الصمت واخلاده الى الفكر وكراهته كل ما يشغله عنه ·

عندما رفع الصالح نجم الدين رأسه ، فى السكون الســـائد المطبق ، رأى أمامه استاداره الطواشى جمال الدين محسن وقد عاد ومعه طبيبه أبو حليقة · كانا يقفان على مبعدة من السرير ، صامتين،

أحنيا رأسيهما ولزما السكون · فما كان أحد يجسر على الكلام ابتداء فى حضرة نجم الدين ، بل لا يكاد أقرب مقربيه أن يبدأه بالتحية · ونظر اليهما الصالح من غير كلام ، نظرة طويلة ، وانحدرت عيناه الى جعبة الطبيب وآلاته التى كان الغلام الأشقر تقدم فحملها عنه ، دون أن يصدر عنه حس ، من محاذرته وهيبة السلطان ·

وقال بصوت ضـــجر ملول ، شأن المريض الذى تقلبت عليه الأدوية ، وفى سخرية هينة :

ـ أسعدت صباحا يا أبا حليقة · وما وراءك اليوم ؟ حجامة ومعاجين وسفوف ؟

ـ سعد صباحكم يا مولاى ·· وأبرأك الله ·· انما الشفاء بيد الله · يسمح لى مولاى أن أنظر فيما آل اليه الجرح اليوم ؟

ـ أى نعم ، نعم ·· تول شغلك ·· لماذا تسألنى ؟

وانســـحب الطواشى جمال الدين الى ركن الحجرة ، وحدج الجوارى السود بنظرة بعثت رعدة باردة فى أوصالهن الثقيلة ·

كشف الطبيب الغطاء الديباج عن ساق مريضه ، فانكشـــفت ناحلة هضيمة شعراء ، مازالت فيها آثار العضل المفتول المعقود ·· ساق فارس قديم طالما ركب الخيل للحرب واللعب والطراد ·· وأدار المريض ساقه على صعوبة وجهد ، وأزال الطبيب من عليها ضمادة كتانية صفراء بما تحتها من مرهم عجين ، فبدا الورم فى مأبضها مزرقا كامدا ينذر مظهره بالشـــر ، وأمعن النظر فى القــرحة التى استطارت على طول الفخذ ، ثم رفع الغطاء والقميص عما بين ساقيه، ونزع حشوا من وبر الأرنب ودواء الكندر القاطع للدم ، ووضـــع كتانا فى سكرجة صغيرة بها ماء قليل، يطفو فيها حجر البازهر المسكن للسموم ، ويستقر فى قاعها جوهر اليازنج ، ومسح بالكتانة على

القرحة الخبيثة الشكل التى تآكلت أطرافها وأبيضت ونشفت قيحها وامتدت عليها قشرة خفيفة وردية . مسحها مسحا رفيقا حريصـــا مدققا ، ولم يترك فيها جانبا ، ثم وضع عليها حشوا جديدا معجنا بالمرهم ، ثبته بضمادة لزقها بين الساقين بشرائط خفيفة مغراة ، ثم لف على الورم ضمادة أخرى مبلولة بسائل أصفر ، وثبتها ·

الجوارى لم تطرف لهن عين أمام هذا المشهد كله ·

والسلطان فى أثناء ذلك يكابد ألما دار له رأسه وغامت عيناه . راحت الوسائد والمساند تعلو به وتميد ، مرة أخرى ، وهو يحجز الأنين الذى تود أحشاؤه أن تتقطر به ، وأنفاسه مبهورة تتتابع فى الصمت المخيم الثقيل · والطبيب يعرف هذا الألم ، ولكن لا يسعه أن يجنبه المريض · شخص واحد هو الذى يتقاسمه مع المريض ، ويحسه معه فى أحشائه · ذلك ما تشى به العينان المعذبتان اللتان تطلان من وراء النقاب الخفيف من لون الرذاذ ، وقد أسدلته شجرة الدر بمجرد أن أشار الحاجب بمقدم الطبيب · والسلطان يجد فى الماء المضطرب المهتز فى هاتين العينين عزاء ويستمد منه تجلدا ·

أومأ الطبيب برأسه للغلام ، ورمز بشفتيه دون أن يتكلم ، فذهب الغلام يسترق خطاه الى المبخرة ، وشب على قدميه فوضع فيها ما تناوله من حق على رف الكرسى · ونفث البخور على الفور عبقا فواحا كثيفا أمتزج بالنتونة التى فاحت من القرحة المكشـــوفة ، وبروائح المرهم الحريفة الساطعة ·

لم يستطع السلطان فى نهاية الأمر أن يحبس السعال الذى تجمع فى صدره ثم انفجر فجأة ، فأزاح يد الطبيب بحركة هوجاء ، وانثنى ينفث صدره فى دفقات جافة ترجه رجا ، وأمتدت يد شجرة الدر فأحاطت بظهره وأسندت رأسه الى صدرها ، وعلى وجهها تعبير

ممض من الألم والحنو · وعندما أفاق ، يشهق طلبا للنفس ، مد يده الى الغلام بمنديل خططته خيوط صفراء حمراء قانية ، وأحس جسمه يهفت ويتهاوى بين المســـاند ، ينهج ولكن عينيه اللامعتين المتوهجتين ماتزالان تحدان البصر الى طبيبه · قال بصوت متقطع، وان كانت مازالت فيه السخرية والكبرياء :

ـ ثم ماذا يا أبا الوحش ؟ أحجامة اليوم أيضا ؟

فمد الطبيب يده يجس نبض سيده ، ثم قال بعد لحظة تأمل :

ـ باذن الله يا مولانا ·

ـ ولكننا لسنا فى وسط الشهر ياشيخنا · نحن فى عشرين خلت من صفر وقد تناقص النور فى جرم القمر ، وعادت أخلاط الجسم الى الاستقرار بعد هياج ، فما تنفع الحجامة ·

ـ زادك الله علما وفقها بأمور دينك ودنياك يامولاى · حق ما تقول · وانما يتبقى على ذلك ، أن نخلص الأخلاط من الدم الفاسد الذى ينفثه الطبع فى السعال · فالحجامة نافعة ، وهى تنفع أيضـــا فى جراحات الساق · وعن أشياخنا أنها يتطبب بها من وجع الصدر · الى أن الأزياج تنبىء بطابع يسر وبركة فى الطب · نحن فى برج الجوزاء ، وقد اقترنت الزهراء بالمشترى · وســوف تصــبح عليك الجمعة فى خير ، باذن الله ·

وهو يخرج مبضعه ، ويتلمس عرق الصافن فى الساق اليابسة ، وما يكاد يمسه مسا رقيقا حاذقا حتى يتسرب منه دم أسود بطىء الرشح يمسحه وينشفه بكتانة نظيفة ، ويمد يده بقرص من المســـك

ا ، مع قدح

للغلام ، ولكن شجرة الدر تبادر فتناوله وتعطيه سيدا ك بين يدى
من البلور الملون يترقرق به ماء زهر ، والغـــلام يتا عيناه تنطقان
الطبيب ، كأن له مائة يد ، كلها وفاء لسيده المريض ، و
بوده لو ان شخصه الغض جميعا كان وفاء له وفداء ٠ ب من وجهه

تنهد السلطان فى راحة ، وأشار بيده فقرب الطب يه ، وأسدل
نافجة المسك ، ونشق السلطان نفسا عميقا وأغمض ع نت صلصلة
الطبيب عليه الغطاء ، ومضى يجمع شؤونه ، وعندما عاد الصمت
الأدوات وخشخشة الضماد والكتان فى الجراب الجلدى
المخيم لا يتخلله الا صوت احتراق البخور ٠

الفصل الرابع

انبعثت فى الجسم الهامد حياة جديدة مفاجئة ، ونادى السلطان بصوت آمر :

ـ يا جمال الدين ، اذهب فهيىء مقدمى الى المجلس · وادع الى الجوارى والغلمان ، ثم الأمراء والمهتدارية ·

دبت فى القاعة على الفور حركة نشطة مدربة سريعة ، واقتربت الحبشيات بمراوحهن يجلبن له النسيم والروح من الحر ، ودخل الغلمان يحملون خواتم السلطان والعبيد يحملون كرسيه · وغلام من خاصة السلطان يزيح السترمن على النافذة المشبكة الخصاص ، فتغمر الشمس جانبا من البساط العجمى الوثير اللون بهيئة زهور ونباتات تلتف بغزلان نافرة · وتقبل على السلطان جوار شقراوات بيض عسليات العيون ، وبين أيديهن وسائد ونمارق عليها ثياب الديوان · ولكن السلطان يأمرهن فى جفوة بأن يؤتى له بمجلس الحرب وعدته · وتهرول البنات مذعورات وفرحات ، ثم يرجعن وعلى الوسائد قلنسوة السلطان الصفراء المذهبة من الجوخ الفاخر ،

مطوقة بفرو أسود غال ، والقباء الأبيض الضيق الأكمام من الحرير المبطن المنجد ، والحزام الفضى ذو الحلقات والابزيم الذهبى ، والخف الجلدى الأسود الطرى · وينسحبن وراء الأستار اذ تحتشد القاعة بكبار موظفى السلطان يحملون بأنفسهم عدته العسكرية : أمير السلاح خاناه ومعه زردية السلطان ودرعه المذهبة وسيفه ، وأمير الطبردارية يحمل فأس القتال ، وأمير آخور الاصطبلات السلطانية ومعه المهماز الفضى المكفت بالذهب ، ثم مهمندار الطست خاناه يحمل الخواتيم ، الياقوت الأحمر الكبير والماس وعين الهر ، وجواهره التى ترشق فى قلنسوته وقبائه ، ويحدق بهؤلاء جميعا الفرسان الأربعة قواد حلقة السلطان ، أيديهم على سيوفهم ، بأجسامهم المشـــوقة الفارعة ، وعيونهم متقدة باليقظة والحذر ، فما يدخل أحد على السلطان بسلاح ــ ولو كان سلاح السلطان ــ الا فى حراسة أخص خاصته ·· بيبرس وأقطاى وأيبك وسنقر الأشقر ·

هذا الجسم الضئيل المقوض على فراشه هو الآن مركز دوامة من النشاط والعمل والتأهب ، وجمدارية السلطان قد ألبسوه ملابس الحـــرب كلها ، وقد وقف وراءه الأمراء يحملون الخوذة والطبر والدرع ·

ثم أقبل المزين يرجل لحيته ويضمخها بالمسك · واعتدل السلطان على السرير وأدلى قدميه من حافته ، وحانت منه نظرة فرأى السلطانة على كرسيها ، منتقبة محجبة ، من وراء ستارها الشف الخفيف ، وحولها جواريها ، مهيبة جليلة · هو وحده يعرف سر جمالها · ودائما الى جواره · وخفق لها قلبه ودر بالحب · ثم نسيها تماما ونحاها عن انتباهه · كانت اشارته تلك بأن يؤتى له بملبس الحرب وعدته نافورة انبثقت فى أرض نفسه ، متدفقة بماء التحدى للمرض ووهن الجســـم ، التحدى لهذا الحب الذى يفيض عليه من عينيها

ولا يعرف أن يفيه أو يرده · كأنه ، فى عدة الحرب يثبت لنفسه قوته من جديد ·

وأقبل العبيد السود الأشداء يحملون الكرسى المخرم المسدس الأضلاع المطعم بالفضة والذهب والملبس بالعاج والأبنوس ، وعليه وسادة صغيرة بكسوة حرير أسود قصيرة تنسدل بأهداب بيضاء من خيوط متموجة البياض ·

خرج السلطان من عند حريمه ، على كرسيه يحمله أربعة من العبيد السود ، الى مجلسه · والأستار تنفرج أمامه سترا بعد ستر فى أروقة القصر الطويلة ، وفرسان الحلقة وأمراء خاصته يحيطون به ويتبعونه ·

انفتح عن الموكب الصغير باب الحريم الى فناء القصر الداخلى الذى تحيط به جدران ثكنات العسكر والاصطبلات ، على حين تخلف الزمام دار · توقف بباب الحريم وأسدل الســـتار · وهتف قائد الطبلخاناه على باب الديوان الداخلى هتفة قصيرة غاضبة ، فانطلقت دقات الطبول الضخمة ، والكوسات المذهبة ، دقات متداركة لها دوى أجش غائر النبرة تتبعها صفقات نحاسية لها قرقعة متجاوبة الأصداء، تخبط القلب بالرهبة وتلقى بالاضطراب فى النبض والدم · واعتدل الأوشاقية والسواس الذين كانوا يغسلون الخيل ويربطون عتادها فى الساحة الداخلية ، وبجانبهم سطول الماء وفى أيديهم الليف وورق السدر والخطمى ، وقد بهتوا لمرأى سلطانهم المريض على كرسيه ، بملابس الحرب · وحمحمت الخيل ثم صهلت وهى تتنزى على قوائمها وقد هاجها دق الطبول وصفق النحاس ·

عندما دخل الموكب قاعة الديوان لم يكن بها الا المماليك فاجاتهم دقات الطبل يتحدثون ويلغطون ويتضاحكون ، ويركبون بعضهم بعضا بالعبث الذى يصل الى التماسك الخشن بالأيدى والجسوم ، واذا

انفتح الباب تفرقوا فلم يبق منهم أحد مع أحد كأنهم قد أخذوا بإثم واصطفوا على الفور الى جانبى القاعة ، على يمين السلطان ويساره فى نظام دقيق ، بقاماتهم الفارعة المشدودة ، وملابسهم الزاهية التى يغلب عليها الأصفر ، فتضفى على القاعة انعكاسا من الضوء بهيجا باهرا تنقطه وتؤكده الحمرة والزرقة فى البنود التى يتمنطقون بها على أوساطهم ، من غير سيوف ولا دروع ولا أسلحة ، والسواد فى أخفافهم يتناسق ويتجاوب على نحو غامض مع السواد الغالب فى عذبات شعرهم التى ترتخى من تحت قلنسواتهم ، والسواد المصفف فى لحاهم الصغيرة المشذبة ، وان كانت فى بعضهم شقرة أو صهبة . ومن ورائهم صف من العبيد السودان ٠

مرة أخرى ساد الصمت حول الملك الصالح نجم الدين أيوب ٠ ووقف الجميع كأن على رؤوسهم الطير ٠ كأن الصمت والسكوت خاصة يحملها معه أنى ذهب ، فتخفت كل جلبة ، وتستنيم كل نأمة حواليه ٠ مهابته تلقى الروع فى القلوب ، بل كأنها تلجىء الأشياء نفسها الى أن تعود الى صميم كيانها الجامد الأخرس ، فلا تعود تدل على شىء ولا تشير الى معنى ، كأنها تكتم وجودها وتنطوى على جمودها ، والألوان نفسها تفقد كل طلاوة وكل زينة ٠

اتجه العبيد السود بالكرسى المضلع الى التخت الرخامى المجزع المستند الى الحائط ، على هيئة منابر الجوامع ، ترقى اليه درجات سلم صغير دائرى مفروش بالبساط الأخضر ، سياجه من الخشب المشغول الدقيق ، والجدار خلفه مؤزر بالرخام أيضا ، وفوقه قبة من خشب الزان ، بها نقش مورق وقرانص مونقة النظام ٠ وتقدم غلام ففرش على التخت طراحة مغشاة بكسوة من الحرير الأسود لها شراريب بيضاء ، وأقام مسندا منجدا وثيرا له كسوة من نفس اللون والنسيج ٠

جلس السلطان فى مشقة ، على تخته · وهبت فى القاعة الفسيحة الصامتة المغلقة نفحات عبقة عن المباخر المعلقة فى أحمال حديدية رقيقة ، ورفت فى السكون نسمات هينة ظليلة بعد ضجة الفناء وحره ، وأشعة الشمس تنوس على الجدران الناعمة مع ظلال أوراق الشجر وأغصانه الأثيثة التى تهتز خلف القضبان الحديدية المشبكة الدقيقة الصنعة ، فى النوافذ الطويلة ·

أحنى السلطان رأسه ، وراحت شفتاه تتحركان بالفاتحة دون صوت · ثم أشار الى حاجبه الطواشى بدر الدين صواب على يساره، تحت التخت ، فمضى يسترق خطاه على البساط الأخضر الممتد فى وسط القاعة حتى الباب ، وأجال السلطان نظرة سريعة فى صفوف مماليكه الواقفين ، وارتفعت عيناه الى المباخر الموزعة على الجدران، كل مبخرة يليها قنديل ، وبطون القناديل المدورة ، بزجاجها الملون ، يترجرج فيها الزيت الأصفر الرائق وتطفو عليها الفتائل ، تومض عليها أشعة الشمس ، فكأنها تضوء بالنور من غير شعل ولا نار · ووقف أمامه حاجبه ومعه رقاع أصحاب الحاجات وقصص الظلامات والشكايات ·وبدر الدين يرفعها الى السلطان واحدة واحدة فينظر فيها بنفسه ، ويمعن الفكر أحيانا ، صامتا ، عابسا طيلة الوقت ، أو يعجل بختمها أحيانا ، ويوقع عليها بعلامة أيوب بن محمد بن أبى بكر بن أيوب » ، وينحى بعضها الى حين · ومضى الزمن كأنه لا يمضى ، وليس من حركة الا صعود أعمدة البخور الرقيق العبق ، حتى فرغ السلطان · ثم قال لحاجبه ، باقتضاب :

ـ أنفذ التوقيعات ، هذه لبهاء الدين ، والأخرى لمن كتبت عليها وعلمت · ثم أدخل الى من بالباب ·

فمضى بها بدر الدين الى الباب ، وهرع عبدان حبشيان فحلان الى الباب الثقيل ففتحاه على مصراعيه ، وأزاحا الستار · ودخل

الأمراء والكتاب والقضاة والفقهاء ، فى موكب حافل ، يخبون فى فرجياتهم وجببهم وعباءاتهم واسعة الأكمام ســـابغة على الأقدام من الصوف الأبيض المطلى ، وعمائمهم الرقيقة الكبار تهتز ذؤاباتها على الأكتاف · وأمراء الجند بقلانسهم الصفر وطراطيرهم الفرو الســمور ، وأقبيتهم الملونة الضــيقة الأكمام ومعاطفهم القطن أو الحرير ·

اتخذوا مجالسهم حسب مراتبهم ، أمام السلطان ، على حشيات مصفوفة فى درجتين متعاقبتين لكبار الشيوخ وأعيان الأمراء ، ثم على وسائد مفروشة على الأرض لسائر جلساء السلطان · حتى امتلأت القاعة على سعتها بهم ، ولا يسمع خلال ذلك الا التحيات الخفيضة يتجهون بها الى السلطان ، وصلصلة أسلحة الأمراء تأتى من وراء الباب ، يجمعها غلمان الأمير جاندار ، ويضــــعونها على دكتها فى القاعة الخارجية ، بحراسة أيدكين الصالحى على رأس عدة من المماليك الدارعين المسلحين · أما قادة حلقة السلطان الأربعة الذين يحفون بتخت الســـلطان فقد كانوا يحدون النظر الى الداخلين ، يسبقهم زين الدين أمير جاندار ، ويتفحصونهم بعيون ثقبة ·

وفجأة استقرت نظرة أوثقهم قلبا وأثبتهم بصرا ــ ركن الدين بيبرس البندقدارى ــ على رجل ضاو مشدود الجسم ، يلبس عباءة سوداء تنفتح عن جلباب ضيق أسود ، وعمامته سوداء أيضا ، دخل مع كاتب شاب من ديوان الانشاء يعرفه بيبرس فقد كتب له أحيانا ، واسمه محمد بن عثمان الحضرى · لملم الرجل الأسود عباءته وهو يطوف بعينيه فى القاعة ، ينكتها ببصره كأنه العقاب ، بنظرة سريعة لكنها لم تفلت شيئا ، ثم جلس فى آخر القاعة ، بجانب الباب ، فى هدوء واثق · أحس بيبرس ، بفطنة المجرب ، أن نفح المؤامرة والسر يشيع من هذا الرجل الغريب الذى لم يره قط فى المجلس قبل الآن · ولم يدع بيبرس عينيه الزرقاوين تتحولان عنه ·

سرى فى القاعة كلها روح من الخشية والروع والمباغتة ، اذ رأى الداخلون لأول مرة سلطانهم فى كامل عدته الحربية ، وبلغت المهابة من القلوب مبلغا عظيما ، وكان بيبرس ذاهل الانتباه عما يدور من حديث وان التقطت أذناه ســـؤال الســـلطان عن عدد الأغربة والحراقات والشوانى وسائر السفن الحربية التى ســـيرها النائب حسام الدين بن أبى على الهندبانى نائبه فى القاهرة ، ومواعيد اقلاعها الى دمياط ، وعن مقدار العسكر المخيم أمام دمياط ، وقوة حاميتها من العرب الكنانيين · أمراء الجند والموكولون بأمور العتاد يجيبون · والسلطان يستوثق من ســـير الأمور فى الثغر ، ويتحرى الدقائق والتفاصيل ، ويتقصى الأســـماء والمراتب والأعداد وأنواع المؤن والذخائر ·وهذا الغريب ذو الملابس السود يصغى الى ذلك كله ويجيد الاصغاء ·

هب فى نفس بيبرس حافز لم يملك له ردا · الأمر قطعا يقتضى المبادرة والحزم ، مع الحيلة وحسن المكيدة · هذا الغريب يدعو الى الريبة والتحوط · وهو يجلس بالقرب من الباب ، وما أيسر انفلاته هاربا لو أحس بادرة خطر · وقد يكون القبض عليه بعد ذلك غير ميسور فى خلال أروقة القصر وقاعاته · وبيبرس لن يسعه أن يبارح موضعه بجانب السلطان من غير أن يثير انتباه الغريب · لكن الأمر لن يستعصى عليه · فهو قد خبر المؤامرة ومارس فنونها ·

وهو دون ان يلتفت الى جنب ، يهمس بزميله الواقف الى يساره ، بالتركية ، وفى صوت يخافت به بمشقة ، فان صوته جهير ، ودون أن ترمز شفتاه بحرف ، هادىء القسمات ، وعينه اليســـرى المنقوطة بنقطة صـــغيرة بيضاء ، شـــاخصة بزرقتها الحديدية الى أمام :

ـ ياخشداش ، هل ترى الغريب ذا الملابس السوداء بجنب الباب ؟

وأحس زميله على الفور بجو المؤامرة ، ولم تطرف عيناه · فكم تقاسما المغامرات وخاضا معا غمار الدسائس والأخطار · وجاءه صوته دون حركة من الشفتين ولم يختلج له عضو :

ـ نعم ، ماله ؟

ـ لست أستريح اليه · كلم جارك · وابعث رسالة نبه بها الحاجب وصاحب الشحنكية ··

لكن التدبير أحبط فجأة على غير انتظار · ففى هذه اللحظة جاء صوت السلطان الأجش العميق ينادى :

ـ أقطاى ·· !

تقدم زميله على الفور ، ثابت القدم ، مشدود القامة ، وخطا خطوتين أمام تخت السلطان ·

ـ اسمع يا بنى ·

كان السلطان يتجه اليه ببصره · وعلى وجهه قطوبه المألوف الطيب ·

ـ أريدك أن تركب الآن الى دمياط · واطلب قلاوون ، فقد أرسلته منذ يومين يتقصى أمر العسكر ولم يعد حتى اللحظة برد · وعد معه أو عد وحدك على أسرع ما تستطيع · اسمعنى يا فارس الدين ، لا توفر فرسك · لا يمنعك شىء مهما بلغ · ليكن طعامك وشرابك على الطريق · أريدك قد عدت بأقصى سرعة الخيل · هيا الساعة الى جوادك ببركة الله ·

وساد الصمت اذ خرج أقطاى ، وسيفه يصلصل ويصـــطدم بمهمازه الفضى ، وهو يدور حول القاعة حتى لا يعطى ظهره للسلطان من المشى الضيق تحت المباخر والقناديل ، بجوار الحائط الناعم الصقيل ٠

وفى هذه اللحظة عينها اذ عاد السلطان يتجه بالحديث الى وزيره ، قام الرجل ذو العباءة السوداء ، قبل أن يصل اليه أقطاى ، ونهض فى غير تعجل ، وخرج من الباب ــ دون اذن ــ ودون أن يحس به أحد الا بيبرس البندقدارى ٠ ولكن بيبرس كان عسوفا عجولا ، ولم يملك نفسه ان أتى عملا قد يكلفه الكثير ، بل قد يطيح بعنقه على رغم قربه من قلب السلطان ٠ اذ بارح موضعه دون اذن ، ودار حول القاعة مسرعا الى الباب فى غير حيطة ٠

ولم يخطىء السلطان هذه الحركة من مملوكه ، ولا أخطأها الفارسان المسلحان الباقيان ، وحدج السلطان أيبك وسنقر بنظرة متسائلة وجيزة ، وعلى الفور تحركا ، وامتدت أيديهما الى سيفيهما ، تمسكان به مسكة حاسمة متأهبة ٠ وتقدما الى الأمام يحميات تخت السلطان بقامتيهما الجســـيمتين وتحرك العبيد الأربعة الى الأمام يحملون كرسى السلطان ٠

سرت فى المجلس من طرف الى طرف هزة وقشعريرة ، وتموجت الرؤوس فى لفتة متتابعة الحركة ، كأن ريحا باردة هبت على حقل من القمح فانثنت بالسنابل جميعا مرة واحدة ٠

وفى اللحظة عينها دوت الأبواق ودقت طبول السلطان دقاتها

الرتيبة العميقة التى ترج جدران القلب ، وما كاد صوت السلطان يسمع اذ يقول :

ـ السلام عليكم ·

وتأتيه همهمة الرد واحدة النغم كالهدير غائرة الصدى :

ـ والسلام عليكم يامولانا السلطان ورحمة الله وبركاته ·

وقد تقوض المجلس فجأة لم ينظر فيه أحد الى أحد · ولم ينبس بكلمة · وان كانوا جميعا قد أحسوا بأن ثمة برقا مهددا قد خطف، وخطرا ما قد ألم ثم عبر ، كطائر ضار وحشى أسف على الأرض لكنه لم ينقض وتوارى سريعا ·

الفصل الخامس

كانت الريح تصفر فى الليل على وجهه المشبوب بسخونة العدو الحثيث على صهوة جواده الأصيل ، والهواء البليل تحت نجوم السماء الفسيحة يطير بأذيال عباءته المفتوحة المربوطة على صـــدره بعلاقة حريرية مفتولة الخيوط ترتفع يده اليسرى بين الحين والحين فتسويها وتثبتها فى الابزيم الذهبى المثبت على صدر حلته الفلفلى الداكنة ، يومض ذهبه فى العتمة فيتجاوب له لمعان النقش الذهبى على غمد سيفه ، وبريق المهمازين اللذين ينخسان جنبى الجواد · والحقول القليلة المتناثرة بين الآكام المنخفضة ومساحات الأرض القراح الى يساره من وراء جسر النيل ، تتعاقب تحت براح السماء الحريرية الداكنة التى تسكب ضوء نجومها المزدحمة فى لألائها الدقيق الصغير المسنن الأطراف ، ومياه النيل تجرى الى يمينه فى رقرقتها الخصيبة المتموجة ، لا يسمع الا زفيف الريح ووقع سنابك جواده ، وترداد أنفاسه المبهورة المتتابعة تصعد من ملاءة الصدر الضخم العميق · ربت على العنق الأشهب الباذخ ربتة قوية وحانية ، حمحم لها الجواد ونشط قليلا ثم عاد الى سرعته المنتظمة الرتيبة ·

كان قد خرج من مجلس السلطان فور سماع أوامره ، وأعد « السباق » جواده الأثير اليه ، وأكل لقمة ، وملأ راويته بالماء ، وركب الى دمياط وفى تقديره أن يصل اليها قبل هبوط الليل • ولكن الظلام أدركه قبل أن يبلغها ، وان كانت الرحلة قد هانت الآن • برد أول الليل ورطوبة الهواء ، وتعاقب مستنقعات الحلفا الأثيثة التى تتكاثف على سطوح المياه الضحلة بين حقول الشـــعير والأذرة ، والملوحة الهينة الخفيفة التى ينشقها ملء صدره فتنعشه ، ذلك كله يبشره بقرب الوصول ، وهو يعرف هذه النقطة من الطريق ، وجواده الأصيل يهمج به ، لم تهمد له سرعة ووقع سنابكه يدق الأرض فى تصميم لا يهن ، وان كان اللعاب يتحلب من شدقيه فى خيوط كثيفة غزيرة بيضاء تسقط على تراب الطريق ، وأنفاسه تتابع فى بهر ، وقد نضح العرق على جنبيه ، وبدا لونهما الأشهب غامضا فى الليل الخافت كأن فيه قوة غريبة • لكنه لا يرحمه • وقد عبس أقطاى ، وانعقد حاجباه الكثيفان ، اذ مر بذهنه أنه فى الحق يقتل هذا الجواد القريب الى قلبه • وما يسعه الا أن يقتله ، اذا اقتضى الأمر ، فلن يحتمل الجواد هذه السرعة التى لا تتوانى طيلة هذه الساعات المتعاقبة ، دون هوادة ودون وقفة واحدة ، ولكنه قطعا ســـوف يصل به الى دمياط ، وبأسرع ما يمكن للخيل أن تصل • هذا لاشك فيه • وبعد ذلك ـ بعد ذلك يرحمه الله ويرحمنا •

كان أقطاى قد حاد الآن عن طريق النيل ، ودخل فى درب رملى يرتفع على حزن من الأرض بين المستنقات والبرية الشاسعة والغيطان القليلة الداكنة ، وأشجار السنط والصفصاف المتهدل اللدن الجدائل تميل على المياه والترع الضيقة ، وكانت هذه الطريق أقصر الى دمياط ، وأقوم ، وهو يعرفها بخبرته ، وان كانت أحف بالخطر وأضر بالأمان • ولكنه الآن لا يبالى الخطر والأمان ، وانما يعنيه أن يصل فى أوجز وقت • فلم تكن مهمة يسيرة تلك التى أناطها به السلطان ، ليس مجرد رسول ، بل هو قائد مئات وأمير طبلخاناه • وانما أراده

السلطان ، وفهم عن السلطان ارادته ، أن يتقصى حال المعســـكر المصرى ، ويلم بأطرافه ، ثم ينقل اليه صورة الأهبة فيه ، ومدى منعته وحصانته ، وما قد يكون فيه من نقص يحتاج الى سد الثغرة ورأب الصدع • وقد اختصه السلطان بهذه المهمة ، وكلمة السلطان قانون لا يرد ، يفرضه عليه ولاء عميق حتى ليصبح فطريا ممتزجا بجوهر نفسه ، وحب خالص لا يحتمل سؤالا ولا شبهة •

أبرأك الله يا مولاى وردك الى عافيتك • متى تعود فتقودنا الى الحرب ، والى الصيد ، والى لعب الكرة والصولجة ، فاننا وراءك نحس أنفسنا رجالا ملء قلوبنا الاقدام على المغامرة ، والهجوم على الحياة نفسها ، ننتهب منها متعة الخطر ونعب من خمرة المجازفة بالنفس والمقامرة بها ، دون أن يراودنا شك ولا تردد ، وراء جوادك ورايتك نحس أنفسنا على جيادنا ملوكا دانت لنا الأرض والسماء • كم اقتحمنا ساحات القتال معك ، وكم كانت متعتنا اذ ذاك متوهجة شرسة مطلقة ، بانتضاء السيف ، واعماله ، واندفاق صيحة القتل والقتال ملء الحنجرة ، وحث الخيل تندفع فى صفوف العدو لا يقف أمامها شىء ، كنا نحيا فى نشوة ثملة ساطعة ، والعالم كله حولنا متوقد بنور باهر لا مثيل له ، بضوء القتال ، ونسيان كل شىء فى بؤرة نار القتال •

معك قاتلنا التتر ، وجند أمراء العراق ، ومرتزقة أصـــحاب القلاع • ومعك قاسينا سنوات المنفى الطوال فى كيفا ، وانتظرناك حتى عدت من الأسر ، يامولاى ، من حبس صاحب سنجار ثم من أسر الـــكرك وما تراخى ولاؤنا لك لحظة ، ولا لمولاتنــا الســـلطانة ، خشـــداشتنا وزميلتنـــا ، جاريتك ومملوكتك معنا ، نحن مماليكك وخاصتك • كنا ومانزال وسوف نبقى أبدا درعك وسلاحك ، وما من تضحية تجل فى سبيلك ، أنفاسنا وحياتنا كلها ملكك وطوع اشارة من يدك •

هب أقطاى على سرجه فجأة ، وأنفاسه تتابع وتنهج ، وكادت تفلت من فمه صيحة ٠

يالله ، لقد نسى ٠٠ بيبرس ! ماذا قال له بيبرس عن ذلك الغريب ذى العباءة السوداء ؟ كان ذلك الرجل ، فى الحق ، يبدو خطرا يلوح عليه مظهر المؤامرة ٠ وهو قد غفل عنه تماما فى لهفته لطاعة أمر مولاه ٠

عندئذ التفت أقطاى خلفه ٠ وأخذت عينه عند حـــافة الأفق الغامضة على آخر الطريق ، ذلك الراكب الأسود الذى يبدو على البعد نقطة سوداء صغيرة ، لاتنى ترتفع وتنخفض ، يخفيها ارتفاع الطريق ثم يعلو بها ٠ هذا الراكب تبعه منذ خرج من أشموم طناح ٠ احتذى أثره على الطريق ، ثم جاء معه فى الدرب الرملى القفر الذى لا تطرقه الا قدم خبيرة جسور ٠ وقد تبينه أقطاى منذ أن ركب فى الضحى العالى ، ولم يلق اليه بالا فى أول الأمر ، لكنه أحسه وراءه بعد ذلك ، فى الظهيرة والعصر والعشى ، حتى جاءت العتمة ، على فرسه الأسود البهيم ، لا يتقدم ولا يتأخر ، تنفصل بينهما مسافة الفرق بينه وبين حافة الأفق ٠ ومازال يتبعه حتى الآن ٠ وقد اســـتشعر أقطاى غرابة الأمر لأول وهلة ، وأوجس منه قليلا ٠ ذلك الراكب يقتل فرسه عدوا هو أيضا ٠ لكن الخوف لم يطرق قلب أقطاى ، وهو وان كان لم يلبس زرديته الا أن معه سيفه وقوسه ، وتركاشه ملىء بالأنشاب ، حربته الى جانبه ودرقته معلقة بكتفه ٠ وما يهمه فارس ولا عشرة يقتفون أثره أو يثاقفونه السلاح اذا حزب الأمر ٠ ولا فسحة من الوقت لديه يعود فيستوضحه ويستوثق من أمره ، ولا أن يبطىء يتبين جليته ٠ودماء الكبر والتحدى والغضب اليسير تنبض فى مجاريها المألوفة ٠ لو أن له شأنا معه ، فليقبل ٠ وسوف يرى ٠ أثم صلة بين هذا الراكب وذلك الغريب الدخيل ذى العباءة السوداء ؟ وما الصلة ؟ ذلك أمر لا يعنيه التفكير فيه ٠ ليس له صبر على تحليل

الأمور ونخلها · والهواجس لا تشوب شجاعته الفطرية · مسائل النظر والتأمل والتقدير والتفسير يتركها لأولئك الكتاب من ديوان الانشاء ، والفقهاء ، والقضاة من أصحاب العمائم الكبار ، ذلك شأنهم وبه يتكسبون عيشهم وينالون ثواب آخرتهم · لكنه وأصحابه يكسبون دنياهم ودينهم بحد السيف وبراعة الفروسية ، وفى ذلك غنيتهم وكفايتهم ·

عاد أقطاى فاستقر على السرج ولصق به حتى كأنه قد قطعة واحدة من جواده ، لا يهتز عنه ولا يتزلزل · وطافت بركن فمه القاطع الحاد الشفتين طيف ابتسامة · بيبرس جدير بها ، وأكثر فهو أصدقهم جميعا حبا وفداء لمولاه · ولا ريب أنه نهض بأمر ذلك الغريب وأحسن الاحتيال له ، فما كان بيبرس ليدع شبهة خطر تحوم حول السلطان ، ولو دفع فى ذلك حياته · كان هو الوحيد الذى بقى ملازما مولاه فى أسر قلعة الكرك ، وشاركه شظف الحبس ، وان كانوا هم لم يغادروا المدينة مع ذلك ، بل بقوا قريبين فى متناول دعوة مولاهم · وبيبرس هو الذى لو أمره السلطان أن يرمى نفسه فى النار لفعل دون لحظة تردد ودون أن تلم بذهنه خطرة مراجعة · وهو الذى خنق بيديه أخا السلطان ــ الملك العادل ــ فى قلعة الجبل ، تلبية لأمر مولاه ، دون كلمة ودون تورع ·

وأحس الطريق تحت سنابك جواده ، رمليا طريا ، يزيد من مشقة العدو على الجواد ، ومستنقعات المياه ســـاكنة فسيحة على يساره ، كصفحات ممدودة من نحاس مطروق صقيل ، تشع فى أعماقها النجوم الدقيقة الحادة كأطراف سيوف مرهفة السنان · ثم ترتفع الأرض بعدها وتنبسط فى آكام عريضة من الرمل ، تتناثر على وجهها لفائف من الأعشاب الصحراوية الكثيفة · ولم يعد أقطاى يحس ساقيه لطول لصوقهما بالجواد ، والألم المكتوم المألوف ينبض عند مفصلى كتفيه ، من امساكه بالعنان اذ يحث الجواد ، الألم الذى

طالما أحسه عندما يركب المسافات الطوال · كم من طرق لا تنتهى قطعها وهذا الوجع الدفين يخدر كتفيه وترقوته · لكن نوم ليلة واحدة عميقا ملء العينين ، يبرئه من ذلك كله ، فاذا هو فى الصبح غض يفيض بالفتاء والاقبال على النهار ، ويتدفق فى أوصاله ماء الشباب الجديد · على أنه الليلة لن ينام ، سيعود بالرسالة ، مرة أخرى الى أشموم طناح ، ولعله فى عودته يقتل جوادا آخر لكنه سيفعلها ويعود ، وبعدئذ ينام ويشبع نوما وراحة ، ولعله يستيقظ قبل أن تحين صلاة الجمعة ، فيتوضأ ويصلى فى جامع السلطان ·

وبحاسة مدربة تسرى فى كيانه مسرى خفيا فطريا استشعر أقطاى والجواد يعلو به وينخفض فى ايقاعه المنتظم الرتيب ، أن فى الجو ثم شيئا غامضا يتهدده ، وتوتر جسمه على السرج كالسهم المشدود · أجال بصره يمسح المشهد كله بنظرة سريعة فاحصة ، الهلال الزاغب الصغير كاب أحمر اللون فى المشرق ، يتعلق بالسماء قريبا من الأرض ، من وراء الغيطان ، والنيل بعيد قد أصبح الآن على يمينه ، وأكمة عالية رملية على يساره تهتز من ورائها ظلال أشجار مبهمة مشحونة بالسر ، والطريق من أمام ووراء خال كشريط ضيق ملتو ، ومازالت النقطة السوداء الصغيرة عند حافة الأفق خلفه ، كأنها لطول ملازمته ، لا وجود لها ، أو مشهدا ثابتا من مشاهد الطريق ·

وخيل اليه ، فى توتر حواسه جميعا ، أنه يسمع من وراء وقع حوافر جواده على الطريق وقعا آخر متداركا مكتوما ، من رعيل خيل خفيفة سريعة تدق الأرض فى مكان ما · لم يكن فى العادة يركب وحده على الطريق ، ولو عرف أن الظلمة سوف تلحق به قبل أن يصل الى المدينة لاصطحب فارسا معه من امرته ، وقد تقدم اليه « **ايدمر** » فى الحق ليركب معه ، لكنه رده ، فى تعجله الخروج ، وأهمل **أيضا** أن يتكمى بزرديته · أحس فى ذلك من نفسه ، تعريضا بشجاعته ودلالة

على مخافة لم تساوره قط ، وآثر ان يركب خفيفا فى حر النهار ٠ وهو يعرف أن الطريق الى دمياط عامرة وسابلة ٠ ولكنها اليوم على غير المألوف خاوية موحشة ، وعلى الأخص هنا ، على تخوم أرض ثعلب وكنانة وعربانها ، وليس فيها كبير أمن ، حتى لفارس من فرسان السلطان ، مادام وحيدا ٠ خطأ صغير كهذا قد أودى بالكثيرين ولكن لا ندامة على ما فات ٠ وقد تيقن الخطر الآن ، اذا ارتفع وقع سنابك الخيل ٠ وبرزت من وراء الأكمة فجأة ، على بعد رمية السهم ، كوكبة من الخيل العربية الرقيقة تعدو نحوه فى اتجاه مستقيم فوق أكمة الرمال ٠ ومازال الطريق يمتد أمامه مسافة غير يسيرة ، تحت سفح هذه الأكمة ، فهو فى موقع لا يحسد عليه ، بل هو فى الحق تحت رحمة هؤلاء ، لو كانوا مغيرين فى نيتهم العدوان ٠

وهو يعرف ان هؤلاء العربان من مخيمات الصـــــحراء قوم لا يستهان بهم ، وان الاغارة والنهب من خصالهم قد دأبوا عليها حتى اقترنت باسمهم ، يرونها فضيلة وقوة بأس ٠

وجاشت بنفسه أمنية عابرة أن لعل هؤلاء مسالمون يركبون الى شأن من شؤونهم ، لكنه مع ذلك قد نشط ، وخلى عنه كل ما ركن اليه من رتابة الطريق ، وقد زايله كل تعب ، وسرت فى عضلاته المجدولة حمية جديدة ، ونخس الجواد بمهمازه نخسا عنيفا سريعا متلاحقا ، فهب « السباق » يبذل كل ما فى طاقته من جهد يشفى على النضوب ، ولكنه اذ يسمع صوت سيده يحثه ، جادا ملحا ، كأنه يحس أن مولاه الآن فى حاجة حقة اليه ٠ وأمتدت يد أقطاى ، بحركة خاطفة مدربة ، فاستلت مقبض سيفه وزحزحته قليلا فى غمده ، واطمأنت الى سهولة مزلق السيف وجريانه يسيرا مطواعا عند الحاجة ٠ ثم انتسف أقطاى قوسه ، بيده اليمنى من علاقتها بجانب السرج ، ووطد قدميه فى ركابه، وهب واقفا على سرجه عدة مرات ، وقفات سريعة متلاحقة أذهبت الخدر من أطرافه ومرنت ســـاقيه وطوعت وسط جسمه ، ذلك كله فى

لحظات قليلة ، فى غير تفكير ولا مشقة ، كأن جسمه عند حسه بالخطر، يدبر أمره من تلقاء نفسه ليواجه الامتحان · وما كادت تمر لحظة وجيزة حتى سمع صفيرا يئز خاطفا بجانب أذنه ولمحت عيناه سهما يسقط فى الرمل الى يمينه · لم يكن الموقف يحتمل توانيا ولا وهنا ، فقد تلاحقت السهام تشق الهواء من ورائه وأمامه ، وهى تصفر · كانت عينه الفاحصة قد لمحت خميلة من شـــجر السنط على آخر الطريق أمامه ، وكان خلاصه ــ ان خلص ــ منوطا بالوصول اليها قبل أن ينقض عليه فرسان الاعراب المغيرون · ولم يعد فى العالم الا دق السنابك وخبط قلبه يقرع الأرض وجدران العالم كله فى مجهول نهائى ·

ولكن عليه مع ذلك ان يعطل مهاجميه ، ما وسعه ذلك ، وهو يمرر ذراعه اليسرى بسرعة فى حلقة ترسه ومازال ممسكا بعنان الجواد يرخيه له على غاربه ، يحضه بصوت خفيض حار ، والسباق يعتصر آخر ما فى قوائمه من قوة وسرعة ، وآخر ما فى صدره من نفس · وقد ارتفق أقطاى درقته ، يحمى بها جانب صدره ورأسه ، وبحركة عنيفه ومفاجئة ، شد جواده ووجهه الى اليسار وأوقفه ، ويصهل الجواد وهو يشب على قائمتيه الخلفيتين ، وفى اللحظة نفسها كان القوس قد اشتد وترها ، والنشاب قد ارتكز على قاعدته ، وفوق ، وسدد الى أعلى ، ثم انطلق وله صفير حاد ثاقب ، وفى اللحظة التالية أبطأت ســـرعة الفرسان المغيرين ، وانفرط نظامهم ، والتفوا حول بعضهم بعضا وتحلقوا حول فارس فى مقدمتهم كان النشاب قد رشق فيه فجندله وقنطره على فرسه ·

كانت اللحظة اليسيرة التى بهت فيها المهاجمون ، وتباطأوا ، هى كل ما يريده أقطاى لينطلق مرة أخرى بأقصى ما يطيق جواده من سرعة ، نحو ستر الشجر المعتم · ذلك الشجر سوف يوفر له

قدرا من الحماية قد لا يكون كبيرا ، فمازال الموقف حرجا فى غاية الحروجة ، لكنه يهيىء له على الأقل أمثل موقع للقتال والتمكن ٠

لكن هذه اللحظة نفسها قد أتت له بمفاجأتين متعاقبتين ، فقد أخذت النقطة السوداء تتضح وتدنو وتكبر ، بسرعة تكاد تكون معجزة ٠ الجواد الأسود قد اختطف الطريق كأنه السهم المنطلق ، ووقع سنابكه يعلو ، ويتضخم ، كقدر مداهم ، ولمح أقطاى فى ضوء الهلال المنسكب المهتز ذلك الوجه الناحل الطويل المشدود الشاحب الذى رآه فى آخر مجلس السلطان ، فى عباءته السوداء ، هى هى ، والفارس الأسود قد أرخى العنان على عنق جواده البهيم ، وهب واقفا وثابتا فى ركابه ، وفى يده قوس كبيرة كأقواس القطانين ، وعندما التفت أقطاى خلفه فى لمحته السريعة رآه كبرج رقيق أو مئذنة ، راسخة ، وان كانت رفيعة ، متمكنا على جواده ، يعدو به لا يلوى ، حتى اذا أصبح على وجه الدقة فى متناول رمية القوس ، انطلق منه سهم يئز والجواد مازال يعدو ، فى سرعة تخف رويدا رويدا ، نحو المهاجمين ٠

كان الفارس قد هب لنجدته ، يهاجم الاعراب ٠

وتفرق الفرسان على الفور اثر النجدة غير المنتظرة ، وتناثرت بهم خيلهم على سطح الأكمة ، ووراءهم صفحة السماء التى أخذت تشحب وتضوء فى القمر ، وقد اتضح منذ الآن أن كفتهم لم تعد الراجحة ، اذ فقدوا ميزة المبادرة وقوة التجمع والاحتشاد ٠

على أن أقطاى ، فى اللمحة التى التفت فيها الى الوراء ، سمع صفيرا ثاقبا ، وأحس نارا تلذعه فى ذراعه اليسرى ، بضربة كاوية خاطفة ، وسمع صوت عباءته تنشق وثوبه يتمزق ، وشعر بخدر يسرى فى ذراعه فيثقلها ولمح سهما يمرق منحرفا الى الأمام ، مس

ذراعه وشق اللحم ثم سقط غير بعيد · كانت ضربة السهم قد أصابها الوهن لطول المرمى ، وحيدة اتجاهه ، فلم تنله الا بخدش لاسع . وانبجس الدم ثم راح يسيل ببطء ويتقاطر من داخل كمه الممزق ، سائلا يأتى من داخله وكأنه غريب عنه لا شأن له به ، لكنه سوف ينزف قوته وشيكا ويوهن من احتشاده ·

على أن الأمر لم يقف عند ذلك ، فعندما أوشك أقطاى أن يصل الى حمى الشجر ، بدا من وراء الأكمة فارسان يعدو بهما جواداهما، بحذاء الفارس الأسود من ناحية كثبان الرمال · وخفق قلبه وأفلتت دقة من دقات نبضه · فلو كان هذان من طائفة المغيرين لما استطاع منجده الغريب أن ينجو بنفسه · ولو أحدقا به أو هاجماه لوقع فى حصارهما من ناحية وتحت رحمة الاعراب من فوق الأكمة · ولكن جواده الأشهب كان قد وصل به فى تلك اللحظة الى الشجر · ووجد نفسه يثب من على سرجه بخفة لم يعرف من أين تأتت له ، وانطلق الجواد الأصيل وحده ، قليلا ، ثم دار وهو يتواثب ويتباطأ ، والرغوة الكثيفة تسقط على الأرض من خطمه ، ولحق به وراء الشجر وهو يحمحم ، ووقف ساكنا الى جواره ، ينهج ·

ركع أقطاى خلف ساق شجرة غليظة ، وعنان جواده فى متناول يده ، والقوس قد سددها ، مع النشاب ، وتركاشه عامر ، وهو يشهق طلبا للنفس لكن يده ثابتة راسخة على القوس ، وسيفه الآن قد أصبح له قيمة· الآن فى مكنته أن يقف على الأرض الثابتة ، فى مكنته أن يصد عددا مهما بلغ من المهاجمين · ونظرته الحديدة الثاقبة أخذت مشهدا غريبا · فقد انقض الفارسان البدويان وعباءتاهما البيضاوان تهب بهما الريح على فرسيهما ، وقد اقتربا من الفارس الأسود ، يصيحان فى الليل الساكن صيحات خشنة وعرة مالبث أن تبين أنها صيحات النجدة والتأييد والمظاهرة · وقد ارتقيا أكمة الرمل فاذا هما فى

منتصف سفحها العريض ، فى هجمة صادقة واضحة على الاعراب من بنى جلدتهما ٠

تنفس أقطاى نفسا عميقا من الراحة وخفة القلب، وسمع لأول مرة نقيق الضفادع يملأ الليل ، وقد أحس الآن أنه أمسى فى مأمن ونجوة من كل غارة ٠ وله من ثلاثة فرسان شجعان سند وظهير ٠ والحق انه عندما رفع رأسه رأى كوكبة المغيرين تتشتت وتنتثر ، تلوى أزمة خيلها وترجع على أعقابها ، وتنهزم منحـــــدرة الى ما وراء الأكمة ، وقد خلفت وراءها فارسها الذى سقط على جانب فرسه ، وتدلت ذراعاه تخبطان جنبى فرسه ، ورأسه متدهور على عنقه ، والفرس يجرى به فى حيرة مترددا ، دون قيادة ، يصهل فى خوف ، يلحق بالاعراب الناكصين ٠

الفصل السادس

وقف أقطاى ، رد قوسه الى علاقتها فى سرج الجواد ، رفع ذراعه وأمسك جرحه يكبسه بيده اليمنى فلوثتها الدماء ، وشد صدره فى قوة وارتياح ، وعلى شفتيه الدقيقتين الحادتين ابتسامة ثابتة كأنه نسيها هناك · نظر اليه الجواد نظرة ضارعة طيبة تكاد تخبو من فرط الارهاق ، ولكن مازالت فيها لمعة الحب والولاء الذى لا يعرفه الا الحيوان لصاحبه ، اذ يربت أقطاى عنقه ويقوده منحدرا به وهو يتلفت خلفه ، ومازالت يده على مقبض سيفه ، الى حافة ترعة من الماء العذب ، ويتركه ينهل جرعة صغيرة من الماء ثم يشده الى الخلف ، والجواد الأصيل الظمآن يصهل صهيلا خافتا كأنما يرجو أن يصيب المزيد من الماء يغرق به وقدة صدره ، لكنه يطيع سيده اذ يمنعه عنه ، فلو عب الجواد الآن لما استطاع ان يواصل رحلته · وغرف أقطاى من الماء بيده اليمنى وطسه على الجرح ، فلسعه الجرح من جديد ، ثم صعد الى الدرب الضيق ، والمياه الباردة تبلل كمه وملابسه وتقطر منها ، فى الضوء الخفيض ، ضاربة الى احمرار عكر خفيف بما امتزج بها من الدم ·

مفاجآت هذه الليلة لا تفرغ فيما يلوح . أنه يرى الفرسان الثلاثة الذين انشق عنهم الليل لنجدته ، يقفون معا على مبعدة ، لا يسمعهم ولا يكاد يتبين قسمات وجوههم تحت سماء الليل ، ونقيق الضفادع مستمر ملحاح لجوج فى السكون . ثم ينفصل الفارس الأسود وينفلت راجعا على الطريق ، على جواده الحالك السواد فى خبب رفيق . ويقبل الفارسان الاعرابيان صـــوب أقطاى ، والهواء ينفخ ثيابهما البيضاء من جديد . ركب أقطاى اليهما والتقى بهما فى منتصـــف الطريق ، ومازال على حذر ، ويده على مقبض سيفه ، حتى اذا التقت الخيل توقفت وهى تفحص الرمل بسنابكها فى احتكاك يثير سحابة منخفضة مغبرة تحتها ، وتدور الخيل حول بعضها البعض اذ تقف ، وهو يسمع أول الاعرابيين يلقى عليه بالتحية ، بصوت جسور خشن فيه لكنته الاعرابية الصحراوية :

ـ السلام عليكم يا أخى ورحمة الله وبركاته .

أحس أقطاى بالدم يثور فى شرايينه فجأة ، ويضرب فى جرحه بنبض قوى اذ ناداه هذا الاعرابى الجافى بنداء الأخوة ، وتألبت عليه عنجهية فرسان المماليك وكبرياؤهم ، وأوشك أن يرد البدوى ردا خشنا يرجعه الى مكانه منه ، كأنما نسى أنه مدين له بحياته أو يوشك أن يكون . لكنه تمالك نفسه مرة واحدة اذ تذكر دينه ، ورفت على وجهه الذى لوحته الشمس ابتسامة انفرجت لها لحيته السوداء الأنيقة المشذبة الحوافى ، وانبسط حاجباه الكثيفان المقترنان ، كان ضوءا مفاجئا أنهل على وجهه ، فاذا هو عذب دمث محبب الى القلب ، ورد على الاعرابى بصوته الهادىء المترفع ، وان كان فيه لطف المودة ، صوت الأمراء الذين عركتهم الحياة ، وألفوا العز والسيادة :

ـ والسلام عليكم يا اعرابى ورحمته .. ما اسمك يا اعرابى **ومن أنت ؟**

جاءه الرد ، فى غير تعجل :

ــ أما اسمى فأسامه بن مروان ــ من كنانة ٠

ــ أبناء نخوة أنتم من بنى كنانة ، أى نعم ٠ وأنت جدير بأن أذكرك فى مجلس مولانا السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ٠ لن ينساك السلطان يا اعرابى ، ولك منه المثوبة على نجدتك ٠

كانت الخيل تنطلق الآن خببا هينا فى طريقها الخالى المفتوح نحو الشمال ، تحاذى بعضها بعضا ، تكاد تسد الطريق ٠ والفرسان العربيان الدقيقان يبدوان خفيفين الى جوار الجواد الأشهب الفاره المكين الأضلاع ، وهما أخفض منه قليلا ٠ رفع أسامة وجهه الأسمر الذى تبدو عليه صفرة خفيفة ، وفى عينيه بريق متوقد جسور لا تشوبه أدنى شبهة من ذلة أو خشية ، بل كأن فيه سخرية هينة ، واستخفافا غير مهين ولكنه واضح ، كله ثقة وطيدة بالنفس ٠ التقت عيناه بعينى أقطاى ، فلم تطرفا ولم تنحرفا ، كأنهما ندان وصنوان ، وكأن شررا انبثق من لقاء نصلين ، وقال وفرسه يخب به رأسا برأس الى جوار أقطاى :

ــ أما السلطان فأبقاه الله وأعزه وأبرأه من كل علة ٠ وأما الثواب فهو من الله وحده ٠ ليس للنجدة من ثمن تقتضيه العرب يا أخى ٠٠ حسبى أن تذكر فى مجلس السلطان ما شهدت من نخوة كنانة وبنيها ٠

وكان قد ضغط على كلمة « أخى » كأنه بفطنته الصافية أحس ما يدور فى نفس الأمير الى جانبه ، ثم أضاف ، وألق الاستخفاف والاستفزاز الذى لا تجريح فيه يتوهج فى عينيه :

ــ ان كان لك مدخل الى مجلس السلطان ٠٠ !

فلم يملك أقطاى الا أن يضحك · وقد ملك عليه نفسه اعجابه بهذا الاعرابى الجسور ، واذا ضحكته ترتفع الى قهقهة ينفسح لها صدره بعد طول توتر وقبض ، كأنما كان بحاجة حقا الى انفساح فى صدره ، فواتاه الاعرابى بالفرصة السانحة يفرج بها ضيقة الخطر الذى انقشع بعد أن أحدق وألم ، وقال أقطاى ، بدماثة :

ــ أنا يا أخى فارس الدين أقطاى الصالحى · أمير مئين من أمراء فرسان السلطان · من خاصة حلقته · واحد أربعة يتقلدون السيف والقوس فى حضرته · وسيكون لك شأن فى غد يا أسامه بن مروان · فأنت حرى بأن تكون من أمراء كنانة · لن ينساك أخوك أقطاى الصالحى · ذلك عهد بيننا وميثاق ·

واهتز لمعان الاستخفاف والثقة فى عينى الاعرابى ، ولكنه عاد يتلألأ ، كأنه يعرف أن له شأنا وخطرا ، سواء قالها له فارس الدين أقطاى أم لم يقل · لكن كرما أصيلا فى معدنه احتجز ثقته بنفســـه واستخفافه بالعالم كله أن يحول الى وقاحة وتقحم ، ومضى الفارسان يخبان معا فى الطريق ، وقد تخلف وراءهما بقليل الاعرابى الثالث ، صامتا طيلة الوقت ·

قال أسامه ونبرة صوته على عهدها لم تتغير :

ــ لا تنس يا أخى ابن عمى جعفر بن بكر ·

فالتفت أقطاى اليه لفتة سريعة ، وصدر عن الاعرابى صوت متداغم من كلمات غامضة ، كأنه يزوم فى غضب ، على ان وجهه ينم عن اكبار وتوقير ومهابة ، لهذا الأمير من أمراء السلطان ·

وقد أخذت خيوط رفيعة من الفهم والود تمتد بين الفارسين : المملوك المتأمر الذى شرب لبان العروبة وتقاليدها حتى ســـرت فى

دمائه ، منذ استرقاقه فى طفولته ، حتى اعتاقه وارتقائه الى مرتبة الفروسية والامارة ، والعربى البدوى الذى لا يملك فى العالم الا فرسه وثوبه وسلاحه وصحراءه ، لكن روحه الأبية تملكه العالم كله · وقد اتصلت بينهما هذه الخيوط الرقيقة المتينة غير المرئية من المحبة والزمالة ، وأخذت يشتد وثاقها حول نفسيهما ، تبعد الفارس الثالث عنهما وتنفيه ، وكأن هذا الفعل من النجدة قد لفهما فى حبال معقودة لم يعد لأيهما فكاك منها ابدا ·

سأل أقطاى فجأة فى لهفة :

ـ ومن الفارس الثالث صاحب الجواد الأســـود ؟ أتعرفه يا أسامه ؟ أين ذهب ؟

ـ والله ما أدرى يافارس الدين · ألقى السلام ثم عاد أدراجه دون كلام · حتى لقد ظننته من رجالك يتبعك من بعيد ·

فتمتم أقطاى لنفسه :

ـ ذلك أغرب ما وقع لى ·

فقد حانت منه التفاتة فاذا بذلك الغريب يقتفى أثره عن بعد ، مازال · كأنما هو موكل اليه بحراسته فعلا ، أو تعقبه · وذلك يوغر الصدر ويغيظ ، فما بوسعه الآن أن يلتفت اليه ويفحص عن أمره ، عليه اللعنة · وان كان هو الآخر قد أســـهم فى نجدته · ماله هذا الغريب ؟ ما شأنه ؟ هو على سبيل اليقين ليس بعدو للســـلطان ولا بمخامر عليه ، والا ماهب للدفاع عنه فى اللحظة الدقيقة ، وقد كان يسعه أن يتركه لمصيره دون أن يتدخل ، وما كان مسئولا عنه ، ولا مطالبا بنجدته · ولكنه تقدم يظاهره ويحمى عنه · ذلك كله سر سوف يجلوه فيما بعد مهما كلفه من جهد وثمن ·

التفت أقطاى الى زميله على الطريق ، وسأله وكأنما ينحى عن نفسه وقرا يثقلها ويزيح عنها هما آخر :

ـ فهل تعرف من أولئك الذين هاجمونى على الطريق ؟

أجاب أسامه باقتضاب :

ـ من ثعلب ·

ـ ومن هم فى ثعلب ؟

ـ لو كنت أعرف أسماءهم ما أسميتهم لك يا فارس الدين ماذا تظننى ؟ ألسان سوء ونميمة ؟

ـ أى نعم · هذه خصلتكم ياعرب البادية · فأنتم جيران · وهم من ذوى قرابتكم يابنى كنانة ؟

ـ جيرة سوء ·أبعدهم الله وأخزاهم ·

ـ وبينكم ثأر وعداوة ؟ لذلك يا أسامه تصديت للهجوم عليهم ·

فنظر اليه أسامه ، وقد هب على سرجه قليلا كأنما يتأهب للوقوف فى الركاب ، وتوهجت فى الضوء القليل عيناه السوداوان ، بلمعة قاطعة صريحة :

ـ بل كنت حريا أن أشاركهم الغارة والغنيمة يا فارس الدين ، لو انك كنت فى عدد وعدة · أما وقد كنت وحدك على الطريق ، بازاء هذا النفر يحتشد عليك بالكثرة والمبادرة ، **فما كان يسعنى وابن عمى الا أن ننهض دونك ·**

فلم يتكلم أقطاى لحظة ، ثم قال :

ـ أظنهم كانوا وراء غنيمة حسبوها سهلة ·

فنظر اليه الاعرابى، فى ثيابه الخشنة الفقيرة ، وثبت بصره على طيلسانه الفاخر ذى الابزيم الذهبى ، وثيابه النفيسة وان كانت الآن ممزقة مبلولة والمروات الفضية التى يزدان بها سرج جواده ، **نظر اليه دون اهتمام وقال ، فى غير كبير مبالاة :**

ـ أنت تحمل على جوادك يا فارس الدين ما يغنيهم مدى العمر · ولكنك لست بالسهل مأخذه · وان كنت وحيدا ·

فضحك أقطاى مرة أخرى ضحكته الرحيبة ، تذكر فارسهم المقنطر على سرجه وقد سقطت الى الرمل جحفته الجلدية ·

ثم انحنى على عنق جواده ، يحثه بهمسة ملحة ، اذ تراءت له على البعد مآذن دمياط ، وقبابها ، تطعن سماء الليل فى ثبات ، طعنة قائمة لاتكاد تهتز ، كأنها من المحبة والنشوة والاستغراق · **ثم سأل :**

ـ والى أين طريقك يا أسامة ؟

ـ لن أتركك حتى أسلمك العمار والأمن · فمازالت أمامك شقة وأنت جريح ·

ـ ليس هذا بشىء ·

وانحنى على عنق جواده مرة أخرى ، فليس من عادته أن يقول عبارات الشكر ، والمروءة على أى حال واجب وفريضة ، ولكن أسامه بفطرته السليمة أحس ما يدور فى خلد صاحبه وطاب له أنه لم يتكلم وقدره لذلك حق قدره ·

عندئذ أحس أقطاى بدمائه تنبض فى أوصاله بالتعب ، وكتفاه توجعانه وذراعه ثقيلة على العنان ، وقد جف الدم على جرحه ، وبرد جسمه على أثر بخر الماء على صدره ، وان كان فى نفسه تشوق

ولهفة لقرب الوصول · وأدار رأسه الى الخلف بحركة أصبحت الآن تلقائية تأتيه طواعية من طول ما ألفها ، ولكنه بهت ، مرة أخرى ، حتى كاد حصانه المجهد المنهوك أن يتعثر به ، فعينه لم تقع للفارس الأسود الغريب على أثر ، وقد كانت تنتظر رؤيته على سبيل التأكيد · ابتلعته حافة الأفق وتلاشى · ولو لم يكن أسامه الى جانبه شاهدا حيا على ما حدث ، لظن ذلك كله وهما محضا مما يتأتى أحيانا للمسافرين وحدهم على الطريق · ولولا مسكة من عقل ، لتوهمه جنا ممن تتواتر الحكايات بأنهم يصاحبون الناس فى الطرق الموحشة ويقتفون أثرهم ·

انحرف الفرسان الثلاثة عن الدرب الضيق ، وخرجوا الى طريق النيل · وأخذت تتخايل على البعد أشباح المعسكر العربى ، على جيزة دمياط الغربية ، معتمة متراكبة مبهمة · وقامت أمامهم فى حافة الأفق أسوار المدينة الشاهقة متينة قاتمة فى الظلمة · يومض نور القمر على أجحارها العلوية العريقة ، تنتقل فوقها أشباح العسكر الصغيرة فى البعد ، ويتنادون بصيحات مفاجئة خشنة تضيع فى الليل ويرتفع بعدها نباح الكلاب له أصداء · ومن وراء الأسواء تعلو قباب الجامع الكبير ومئذنته ، فى كبريائها ، كأنها مناجاة دائمة سامقة رفيعة ، صادرة من قلب المدينة الى السماء · ملوحة الهواء أصبحت لاذعة حلوة يتفتح لها الصدر · وقد تناهت الى الفرسان أصـــوات العسكر اليقظة ، فى جلبة ، ونيران المواقد تبدو صغيرة متناثرة بين الخيام وعلى الساحات ، والسفن تبدو فى النيل على يسارهم ، اذ يقتربون من مجراه ، تتكاتف وتتكاثر وتتزاحم فى المياه ، يترقرق بينها ضوء القمر وانعكاس الصوارى العارية النحيلة الطويلة ، كأنها قلاع نائمة فى النيل ، عليها نيران صغيرة متوقدة تدفىء النوتية ، متوهجة الجذوات بين المياه ، توحى بحس غامض من الأمن والترحيب كأنها نيران الأهل والجيران يعود اليها المسافر بعد غيبة طويلة ·

وأقبل على القادمين أربعةمن فرســـان الطلائع ، من حرس المعسكر ، يقطعون عليهم الطريق ، قبل أن يبلغوا القنطرة الممدودة على النيل الى المعسكر ، وقد شرعوا رماحهم الطوال أمامهم ، يهتفون بهم فى الليل ، بصوت رائع :

ــ من هناك ؟

فصاح بهم أقطاى :

ــ فارس الدين أقطاى الصالحى · قائد مئين · مملوك السلطان أعزه الله ، ورسوله ·

فالتف بهم فرســـان الطلائع الأربعة ، وعندما اقترب الجمع الصغير من الفرسان من الأسوار الضخمة هبت عليهم روائح أكوام عالية ملقاة تحتها فى الأرض الفضاء ، زهمة منتنة تضيق بها الأنفاس. ولاحت لهم فى الضوء الفضى الشاحب ركام القمامة وعظام الجيف والبقايا ، واندفع الفرسان الى القنطرة العريضة المتخذة من مراكب فى النيل مشدودة بعضها الى البعض والأخشاب تقرقع وتتأرجح تحت سنابك الخيل ، ثم مضوا يشقون الطريق الى قلب المعسكر ·

وخرج بعض العسكر الساقة من خيامهم يستطلعون ، عيونهم ثقيلة من النعاس ، وتقلب أصحاب المتاجر والباعة فى نومهم القلق على بضائعهم وقد تكدست وتكومت فى جوالقات وأعدال مربوطة ، بجانب جمالهم المنيخة ، وبغالهم وحميرهم ، وصهلت خيل المؤخرة فى حظائرها المسقوفة بالخيش ، والدخان يصـــعد من عنابر المطابخ والأفران ، والطباخون يبيعون للجند المتحلقة حولهم أطعمة ساخنة يفوح بخارها وعبقها ، من طسوت كبيرة على الأرض ، والعسكر يأكلون ويتزاحمون ويضحكون · كان المعسكر كله يموج فى أول الليل بحياة محتشـــدة تنبىء بالترقب والتأهب ، والحدادون فى ميادعهم

الجلدية تنفرج عن أذرع مفتولة العضل ، وأكتاف غليظة وثيقة ، قائمون منحنون على سنادينهم وكيرانهم ، يرفعون مطارقهم الضخمة ويهوون بها على السيوف المحماة الحمراء يثقفون شـــفارها على الحديد الأسود المتين ، وللدق وقع مكتوم الرنين ، ويشدون حدوات الخيل وبغالها بالمســامير الدقيقة بينما صبيانهم ينفخون النيران ويذكون لهبها ، وقرب الهواء تفح وتشهق على اللهب ، ويمسكون أعنة الخيل وقوائمها بينما تطرق نعالها وتدق · والسروجيون أمام خيالهم فى ضوء المشاعل يصلحون من سروج الخيل ويوثقون خيوطها وجلدها ·

وبين ضجيج الدق ولغط الحديث والضـــحك ورغاء الهجن والجمال وصهيل الخيل كانت تصــــل اليهم هممهمات البحر وهديره البعيد ، تحجبه خيام المعسكر وأثقاله ، لكنها لا تحتجز ريحه الطيب الملح الدافىء يهب كأنفاس عملاق نائم الآن ، وان كان ينفح الخطر والتهديد الكامن ·

ثم دارت كوكبة الفرسان حول خيام أهل امراء المعسكر وقد قعد على أبوابها من عليهم نوبة الليل من الخصيان والعبدان السود ونام أمامها بعضهم متلففين بالشـــيلان والألفعة الثقيلة يدرأون عن أنفسهم هواء الليل والسهر ·

ثم لاحت راية الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ترفرف عالية على خيمة القلب من معسكر دمياط ·

الفصل السابع

عندما بلغ أقطاى خيمة أمير المعسكر كان التعب قد نال منه ، وكان جرحه قد ترب وتصلب واشتد الجلد حواليه ، وذراعه قد ثقلت وأصبحت عصية على الحركة ، وهو يحس ســـخونة خفيفة تجعـل الأشياء حوله مضطربة متسايلة الحدود والمعالم كأنها فى حلم مائى حار • وأبلغه رئيس نوبة الحرس ان الأمير قد دخل الى حريمه ، ولعله أوى الى فراشه ، وأنه قد طاف بالمعسكر طول النهار ، حتى قبيل وصوله بقليل ، بل شق المعسكر كله ، وعبر القنطرة الى أسوار دمياط ولقى شيخ الكنانية وتفقد معه التحصينات وسد الثغور وألم بالزرد خاناه والمخازن جميعا ، ولم يترك صغيرة أو كبيرة الا عنى بالفحص عنها والتدقيق فيها • كان أقطاى يسمع الى رئيس النوبة وهو مرهق مجهود ، على جواده اللاغب المنهوك ، والصوت يصل اليه مرتفعا تارة قريبا ثم يبعد ويخفت ويتضاءل ، وضجيج الدق وجلبة المعسكر تقرع أذنيه ثم تعود لها أصداء مكتومة تصل اليه من قرار جب سحيق • وطاف به بعد ذلك حلم مهتز الجرانب ، فكأنه بنفسه يترنح على سرجه ويتهاوى ، لولا أن يثب أسامه خفيفا على قدميه ، فيسنده ويلحقه بشربة ماء ، جرعها ظامئا محرورا محموما ،

وكأنه بجواده يساق الى السكك الحديد التى تقف اليها خيل الأمير وكأنه بنفسه يوصيهم بالسباق الأشهب وهو يتدفق بالحب والاعزاز لجواده الأثير ·

وتضعضعت حوله جدران حلمه المهتز ، ولم يعد يحس الا بالألم المروع يضرب فى ذراعه كلها بسهام نافذة تكاد تصـــميه وتذهله ، ونبضات السخونة فى مجرى دمائه ، وهو على فرش وثير فى خيمة بها قنديل هادىء الضوء ، ينحنى عليه بدوى هضيم الوجه سمح المحيا خفيف اللحية ويســـقيه دواء كثيفا طيب المذاق ، وتستريح أعضاؤه المهدودة اذ يسرى فيها الدواء بنفحة انتعاش تبرد حره وتنيم الألم المحرق فى ذراعه ، وهو يسقط فى بحر معتم رفيق يتلقاه فى طيات مائه الناعم الوثير ، وجلبة المعسكر بعيدة تتجاوب نغماتها فى موسيقى شـــجية وتبتعد عند رويدا · وفى حلمه تكرر ظهور الوجه البدوى الأسمر ينحنى عليه فى حدب ، يسقيه الدواء اللزج كلما لجت به السخونة ونفض الحمى ، ووجوه أخرى كثيرة تدنو منه وتغرب ، وتكررت أصوات الدق تعلو ثم تموت · والألم يخزه فى ذراعه ثم يطيبه له الغسل والمرهم والضماد ، وخيل اليه أنه يســـمع هديرا لا ينتهى من وقع سنابك الخيل فى موجات متعاقبة لا تنحسر ، وجاءته من بعيد ، فى نومه ، دقات طبول المعركة وقرع النقاقير والصناجات ، ونفخ الأبواق والمزامير ، واللغط حوله فى مد وجزر ، يختلط بدمائه التى تفور ثم تهمد وتسلمه الى هذا الفراش الباذخ من أمواج بحره الطيب الكثيف الحشايا يتمدد فيه بطول أعضائه المضناة ويستسلم لأحضانه الوثيرة ·

عندما فتح أقطاى عينيه وأحس جسمه سالما من غيلة الحمى التى انتابته ونفضته وقوضته ثم تولت عنه وخلته آمنا مرتاحا ، تمطى ومد ذراعيه وشد ساقيه ، وأحس وخزا خفيفا فى ذراعه كأنما فوجىء به بعد أن نساه فندت عنه صرخة خفيضة ، وهجمت عليه الذكرى ،

وقد صحا ذهنه وراقت مياهه ، فهب من جلسته مفزعا يحس الوقت قد فات ، وأنه قد خذل مولاه ونكل عن عهده ولم يف بمهمته ·

هرول اليه أسامه وقد وقف من تحت سريره حيث كان راقدا على سجاد تحت قدميه ، وأسرع اليه ملهوفا يظنه مازال فى بحران الحمى ، لكنه عندما طالعته العينان اليقظتان الملتمعتان بذكاء الصحو والعقل ، تنهد وأدرك ان غاشية الحمى قد أقلعت عن الأمير الفارس الذى آخاه وأحبه ·

ورأى أقطاى فى صحوته ذلك الوجه الأسمر الطيب الذى طالما تراءى له فى حلمه ، مبتسما الآن فى لحيته الخفيفة ، وقد تغضنت جلدته على العظام الرقيقة ، وأشرقت بنور الابتسامة · وعرف منه ان الحمى قد ألزمته الفراش أكثر من أربع وعشرين ساعة ، وأن الأحداث الجسام التى طال انتظارها وترقبها قد وقعت ، لسوء بخته ، فى اثناء غيبته عن العالم فى طوايا حلمه الخاص المحموم ·

عرف اقطاى ان مراكب الفرنجة قد وصلت فى صباح الخميس تغطى ساحة البحر الفسيحة وانها أرست أمام معسكر المسلمين بمرماتها الثقيلة الحفيلة ، ومسطحاتها ومراكبها المتباينة الأصناف والاشكال . ووفد منها فارس يحمل رسالة ذهب بها سيف الدين قلاوون الى أشموم طناح ، وقد سبقته اليها البطائق فى سيقان الحمام الزاجل بالأنباء ، وأن ستة آلاف فارس قد وقفوا بالأمس فى صفوف متراصة تحمى الشاطىء من المغيرين ، وفهم سر الضجيج والموسيقى ودقات الطبول وصــــفير المزامير · ولكنه عرف ان المغيرين لزموا مراسيهم فى البحر ولم ينزلوا منها طيلة نهار الأمس ·

وقد تلقى الانباء الخطيرة كلها ومازال فى نفسه هم مساور بأنه خذل مولاه ونكث بعهده ، وكان ذهنه غائب ، فلم تستثر الأخبار فيه

الا اهتماما قليلا . كسهم نافذ مفاجيء وصل الى الاحشاء بسرعة خاطفة واندفن عميقا فيها ، فلم يهب الالم من ضربته بعد ، وانما سرى فيها نوع من الشلل والخمود ·

كانت الأخبار تعمـــل عملها فى داخله ، وهو عنها غافل ، اذ يتناول افطارا أتى به اليه خادم الأمير فخر الدين ، يلتهمه فى شهوة عارمة كأنه لن يشبع قط ·

وعندئذ فقط أحس نفسه يتململ ، ودماؤه الجديدة التى برئت مما أوغل عليها تعود الى ضرباتها القديمة ، فهو يتلهف الى الخروج والركوب فى عتمة الفجر الأولى ، وقد آبت اليه كل ســـيطرته على جسمه وحواسه جميعا · وشعر بالقوة الجديدة تتدفق فى أوصاله كالماء الخصب ، يغمر ارضا أحرقها الجفاف ·

وهو يخرج من الخيمة فى شفق الفجر ، وقد زر عليه درعا من الزرد المتداخل الحلقات ، طيعة وان كان يزمها محبوكة على صدره قليلا ، أتاه بها رئيس النوبة من زردخانته ، وتقلد آلة الحرب كلها ، ولبس خوذة فضية مكفتة بالذهب من خوذات الأمير ، والمعســـكر هادىء هدوءا قلقا ، يسرى فيه برد نسمات الصبح الأولى ، والخيام مطلولة بالندى ، والخيل نائمة فى وقفتها بمرابطها ، وجذوات النار قد خبت وعلتها طبقة من الرماد الأبيض ·

أسرع اليه سائس يتعثر ثقيل الخطى من النوم ، مازالت فى نظرته وخامة ، يعرك عينه ويهرول ياتيه بجواده « السباق » الأشهب وحمحم الجواد فى فرح وترحيب بلقيا سيده ، وقد ردت الراحة اليه أيضا كل قوته ومضائه · وربت أقطاى عنق جواده وطوح بنفسه فى خفة فاذا هو مستقر على السرج متمكن من الركاب ، وعليه عباءة جديدة من لبس الأمير فخر الدين نفسه ، لم يلق فخر الدين حتى

الآن ، وان كان قد قضى فى المعسكر ليلتين ويوما بطوله ، شد ما هى عجيبة تصاريف القدر · وقد سبقته الأحداث فلم تعد لرسالته الآن قيمة والعدو رابض امام الثغر ، لا تحول بينهما الا مسـيرة قصيرة ولا يبقى دون الاصطدام الا بضع ساعات او اقل ·

خرج اقطاى من قلب المعسكر . الى جوارد أسامه يلوح فى ضوء الفجر مشدود الوجه ، مكدودا من السهر والتعب ، وان كان يبدو كأنما قد من صخر لا ينال منه شىء ، فهو خفيف على سرجه ، ناحل ، لكنه ثابت ركين ، كعمود منحوت من الصوان · وفى غبش النور الرمادى اذ كانا متجهين الى مقدمة المعسـكر ، لمح أقطاى على البعد جوادا أسود يقف على وتد أمام خيمة صغيرة · لكنه لم يلق اليه بالا ، ونفض عن نفسه فكرة ألمت به فرآها سخيفة ليسـت بشىء ، فكم فى المعسكر من جياد سود · أكل جواد بهيم يكون لصاحب العباءة السوداء ؟ ومضى فى طريقه الى المقدمة بين المجانيق العالية المتشابكة الحبال ، متهللا متشوقا ينزو به جواده ·

سأل اقطاى فجأة كأنما تذكر شيئا :

ــ أين ابن عمك يا أسامه ؟

فأجابه زميله باقتضاب · ر؟ عقد حاجبيه :

ــ عاد الى مضارب القبيلة منذ أن ظهرت مراكب العدو ·

ودار الفارسان حول خيام أهل المقدمة ، واخترقوا مخيمها وقد لاح خاويا على عروشه فى الضوء الذزر ، تتناثر بين أوتاده وأرجائه مخلفات الصحوة الباكرة والرحيل المبادر · وانفسحت البرية أمامهما فجأة ، وقد نشطت دماؤهما وتتابعت أنفاسهما من متعة الركوب ، وترامت أبصارهما على الصفوف المحتشـدة المتحركة من الخيل والفرسان ، والجياد تدور دورات قصيرة مزدحمة متناكبة متلاحقة ·

وهى تصهل ويصدر عنها نجب مختلط من فحص الأرض بالسنابك وصيحات الفرسان وقرقعة الدروع وارتطام السلاح وجنوب الخيل ٠ وعلى الأطراف كوكبات من الفرسان تغدو وتجىء مســــرعة ، تلك والخيل تهملج بها حول الجسم المحتشــــد الكثيف الممتد فى حلقات ضخمة تخف هنا وهناك وتبدو بينها فجوات يتنقل بينها الفرسان فرادى أو مثنى ، من منطقة مكتظة مزدحمة بالخيل الى منطقة أخرى وهتافات الأمر والاســـتجابة ونداءات الوقوف والحركة تتجاوب وتترامى ٠ وبين الحين والحين تنطلق دقة عميقة من طبل كأنما خبطت عفوا ، ترتج لها الاحشاء مع ذلك ويتزلزل القلب ٠

بدت صفحة البحر وراء ذلك كله ، ترف عليها سحابات متحركة تعلو وتنخفض من الطيور البحرية البيضاء ، تسف على الماء وتنهض بين السفن الشاهقة البنيان المتزاحمة ، راسية يطفو بها الموج ويهتز ، وأشرعتها تحجب صفحة السماء التى تستضىء رويدا ، والصوارى لامعة فى شـــحوب الفجر ، عارية ومرفوعة ترفرف فوقها الرايات الضخمة الصــــفيقة وبين جدران المراكب الهائلة الكثيرة قوارب وزوارق خفيفة مسطحة تتحرك منذ بكرة الصبح هذه ، تروح وتجىء بمجاذيفها العديدة النشطة ، تأخذ ناسا ويرتفع منها ناس على سلالم من حبال الى المراكب الضخام ، وتضرب بمجاذيفها كأنها أشياء هشة رقيقة ، وهدير الموج يرتمى من وراء الضجة البعيدة ، على رمل الشاطىء كأنه النذير ٠

ضخت الدماء الى قلبه تملؤه وتنحسر عنه فى دقات متعاقبة من الغضب الحار ، وفى جســـمه الذى عاد اليه الفتاء والعنفوان تتدفق حميا التحدى والكبر والتشوف الى النزال والقتال وصـــد الغارات ٠

كان جسمه قد أصبح ، فيما يخيل اليه ، سورا مكينا عريضا ،

قائم الأركان على المناكب ، سوف تتكسر على أحجاره العريضة كل النصال · وامتدت يده الى سيفه وأحس السيف كأنه محشود بقوة كامنة كعصف الاعصار وغمرته موجة الحنق والغضب ، حتى بلغت عينيه فلم يعد يرى الا دوائر حمراء داكنة تتسع وتتراوح ، ثم تذهب وتجيء من جديد ·

جاء الأوغاد · ولكن العسكر المصرية سوف تحصدهم حصدا وتجندلهم على الساحة · هذه الموجة الغادرة سوف تنحسر عن البر الأمين ·

وكأن جذوة دفينة فى قلبه تنبعث بنار تثب وتسرى وتسطع فى كل ارجاء نفسه وجسمه ، تشعله بغضب لا يخمد له أوار ·

حث أقطاى جواده الأشهب وأحس الجواد بلهفة سيده وحميته فأنطلق يعدو فى هملجة سريعة متقاربة الخطى · يدور حول حشود الفرسان فى اتجاه اليسار على الأرض الرملية ويثير عفرة خفيفة تحت سنابكه ، وعلى يمينه أسامه على فرسه العربية الخفيفة الصهباء ، يطير هواء الصبح الندى بعباءته البيضاء التى تتناقض فى نغم غامض من اللون ، مع الطيلسان الارجوانى الجديد الذى يتشح به أقطاى · والسماء تشحب وترق وتصفو ، وهما منطلقان فى عدوهما الجاد الحثيث وقد أسقطا سرعتهما الى مدى الخبب الهين حرصا على الخيل وابقاء على عزيمتها ، ولذعة برد الصباح تطير اذ تشق الشمس صفحة الأفق فتبدو حشود الفرسان تقطع قرصها الكبير الأحمر فى ظلال سوداء دقيقة على خط متعرج متكسر الحوافى وربوات الأرض ترتفع قليلا بالفارسين وتنخفض ، يخطف بهما بين الحين والحين جواد يعدو يحمل رسولا أو كوكبة شاردة من الفرسان تلتمس موقعها ·

النيل من بعيد يفصل بينهما وبين أسوار دمياط التى تبدو على اليمين عريضة مهيبة فى بناياتها وعماراتها مواضع قديمة سوداء وان كانت تلوح عليها الوثاقة والمتانة ، وبينها أحجار جديدة خشنة لم يثقفها مرور الحقب · والحافة العليا للأسوار تبدو من بعيد تموج بما عليها من جند الحراسة من عرب الكنانية ، والصباح الباكر يتجاوب بالأصوات البعيدة التى يطامن منها انفســـــاح المسافات · المراكب قد نشرت أشرعتها فى النيل ، صغيرة وكبيرة وحبالها تشتد وتتوتر وبكراتها تدور ، وعلى صواريها أشباح رجال صغيرة نشطة حية ، أبواب الأسوار الغليظة المطلة على النيل موصدة بجرمها الشاهق ، ثمة سلال متينة وسلالم طويلة تتدلى من السور وترتفع فى بطء بالغ من البعد ، عليها رجال تبدو كاللعب الرقيقة الأطراف ، وفى السلال عتاد يبدو كأنه حقاق صغيرة مما يلعب به الأولاد وان كانت توحى بالرزانة والثقل ·

البرجان الوطيدان على باب بوغاز دمياط من ناحية البحر ، تظهر بينهما السلسلة الحديدية الغليظة ، غرق نصفها الأوسط الهابط فى الماء يلمع جانباها المرتفعان على البعد بصقال مائى حديدى منذر يلهم بالقوة والصلابة التى لا تلين ·

قال أقطاى لزميله وهما يدوران حول حشود الفرسان المتزاحمة :

ـ ماذا ترى يا أسامه فى نظام هذه الفرسان ؟

كانت عينه الخبيرة المدربة قد لحظت أشياء لم يرتح لها قلبه ، فى دورانه بساحة القتال المرتقب ·· فلم يلق أسامه بنظرة الى الجموع الكثيفة ، ولمعت عيناه بلمعتهما المألوفة المستخفة ، كأنه يعرف كل شىء من قديم ، ثم قال :

ـ هذه حشود من خيرة عساكر العرب ، وما أخالك تسألنى عن هذا فأنت به خبير · ماذا يهمك ويشغل بالك يا فارس الدين ؟

فانطلقت من أقطاى ضحكة صغيرة مهمومة ، تشى مع ذلك باعجابه المطرد بزميله هذا الثاقب النظر :

ـ لأنت أحق بأن تكنى صـــقر الدين يا أسامه · « طوغان » بلساننا التركى · عينك لا تفلت شيئا · ولك المكر الحسن الذى لا تفوته بادرة الا ترى فى نظام الفرسان شيئا ؟

ـ ذلك رأى يراه أمير المعسكر أيده الله · ما أنا الا فارس من أعراب كنانة ليس لى الا جحفتى وقوسى وسيف قديم موروث · ولم أرث من أجدادى تدبير خطط المعسكرات ولا النظر فى نظامها ·

فلم يملك أقطاى الا أن يهتف به ، كأنما فاض به الكيل :

ـ الا ترى هذا الاحتشاد والتزاحم عن يمين ، وهذه الفجوات والثغرات فى القلب ، والحركة الدائبة من جانب الى جانب · كأنهم لا يطمئنون الى موقع ولا يسلسون القيادة لأمير · هذا الأســـطول أمامك ، كم تقدر ما فيه من الفرسان ؟ لتنزلن منه الآن جموع مايعرف عددها الا الله ·· أترى فى صفوفنا غنية وكفاية لدرئها وصدها ؟

وأكمل فى مرارة وغيظ :

ـ وفى هذا الاضطراب فى صفوفنا نلقاها به · ما أحوجنا اليوم الى عون الله ·· !

فلمعت ابتسامة البدوى من وراء لحيته وشعر شاربه الخفيف واتقدت عينه فى جسارة من يقول ، دون حاجة الى بيان ، انه ـ هو ـ لا يعنيه فى شىء نظام حشد الصفوف وتعبئة الجند ، وانما اعتماده على قلبه الجرىء وذراعه التى لا تخطىء الهدف ، وان متعته ـ هو ـ واحتشاده ، انما للمغامرة وخوض غمرات من القتال وحده · لا يعتمد على صف ولا يتكل على مظاهرة عسكر كثيف ·

كانا قد قضيا فى هذه الدورة ساعة طويلة من زمان ، وقد متع النهار واضحى وأخذت شـــمس الصباح تحمى فى هذا الوقت من أول الصيف · ووصـــلا الآن الى أكمة مرتفعة من الأرض تغطيها أعشاب الصـــحراء الكثيفة ، فهما يسودان من على ساحة القتال كلها عن يسار ، بما يموج فيها من حركة صفوف الفرسان الملونة بالأصفر والأبيض ، وتبدو عبر النيل أسوار دمياط عن يمين ، وأمامهما على مسيرة نصف ساعة أو نحوها بالخيل يمتد البحر الأزرق الذى يتقلقل بحمله المزدحم من مئات ومئات الســـفن ، تبدو من بعيد ملونة وزاهية بعضها ثقيل جسيم وبعضها خفيف مسطح يتماوج به البحر وتنقض عليه أسراب الطيور الزاعقة ·

شد أقطاى من عنان جواده ووقف عليه يظلل عينيه بيده ويحد النظر الى هذه الحركة المضطربة على المياه · وأنفاسه مبهورة قليلا من أثر الركوب الجاد نحو ساعة من زمان ، وفى قلبه رغبة واحدة خالصة لا تشوبها عكارة من رغبات أخر، ان ينزل الى مقدمة الميدان، أن يسهم فى صد المغيرين · لكن فى هذه النفس الجسور رواسب من الحيرة ومخافة العاقبة ، لا على نفسه فذلك أبعد شىء عنه ، وانما كان اشتراكه فى معارك لا حصر لها قد ربى فيه بصيرة كامنة وفطنة · وهو يحس فى القرار من نفسه أن ثم شيئا لا يستقيم ، أن روحا من التردد والشك وانفلات القياد تسرى بين هذه الصفوف المتراصة من الفرسان · ولكن ذلك لا يعنى شيئا · فقد تكون الهجمة الصادقة من فارس واحد بمثابة المهماز ينخس جسم هذا الحشد كله فينطلق الى أمام لا يلوى على شىء ، ويوقع الكسرة بصفوف المهاجمين · وصيحة خوف واحدة قد تلقفهـا القلوب جميعـــا مرة لا ثانى لها ، فتنثنى الحشود الغفيرة عن وجهتها أمام فئة قليلة من المهاجمين · ذلك ما علمته الحروب · لا شـــىء قط يمكن النظر فيه والتنبوء بنبأه قبل التحام الصفوف · والعدة والعدد لا يهمان فى كثير · انما المعول

على ما قد تأتى به الساعة الحاسمة من أحداث صغار تتجسم وتتضخم فتصبح كالثغرة ينثال منها طوفان ، أو على العكس ، كالحجرة الصغيرة توقف انهيار بناء عظيم وتسنده ، أو تقوضه وتتخلخل به ٠

واذ هو واقف بجواده هناك ، غارق فى تدبر الأمر ، أخذت عينه حركة لا يخفى مغزاها ٠ فقد انتظمت المراكب الصغيرة المسطحة من أسطول الفرنسيين ، وقد احتشدت على سطوحها الخيل والرجال ، وأخذت تتقدم صفا بعد صف الى الشاطىء والسفن الثقال بأبراجها وأعلامها قد أخذت تنزل حمولتها من الجنود والفرسان الى هذه المراكب المسطحة ٠ والأعلام تنكس فى نزولها ثم ترتفع ترفرف ٠٠ والخيل تضطرب على أخشاب السفن وهى تنزل من أماكنها وتخطو الى سطح المراكب الصغيرة الخفيفة فتتقلقل تحتها وتهتز ٠

وسرت فى حشود الفرسان المصرية موجة واحدة تثنت بالصفوف ثم استقامت بها ، والتأمت خطوط الفرسان وصلب عودها واشتدت وأتخذت أخيرا هذا النظام الوثيق الذى كان يتعين لها أن تتخذه منذ الفجر ، ويعدو أمامها أمراء الفرسان يصيحون ويهتفون هتافات تصل صغيرة نحيلة الى الأكمة التى يقف عليها الفارسان ، مع الهواء الرخى ٠

انحنى أقطاى على جواده وهم بالنزول عدوا الى حيث يدفعه لهفه للقتال ، فى أول الصفوف ٠ وألقى نظرة أخيرة على هذا الموج المضطرب بالناس والخيل والمراكب يفور به البحر ويمور ٠ واذا بمركب مسطح يهتز بعنف ويتأرجح على الماء والخيل تتدافع عليه فتكتسح أمامها الرجال والحبال وتندفع نحو الحوافى المنخفضة فتنكسر وينقلب المركب وتثور موجة مزبدة وتغوص الخيل ثم تطفو ويحملها التيار وتنفرج أمامها المراكب الصغيرة خوفا من الاصطدام

ثم تتقارب والرجال فى الموج تلوح بأذرعها ويغمرها الزبد المرتطم ، والأيدى تشور على المراكب والناس تنحنى وتستقيم · وتصعد من البحر همهمة مختلطة بهدير الأمواج واصطفاق الأخشاب وصـــهيل الخيل وصيحات الرجال ·

وانحدر الجواد ينتسف الأرض انتســـافا من على الأكمة ، ووراءه الفرس العربية الصهباء غير متخلفة ، لم تعد فى أذنيهما الا دقات السنابك على الرمل الصلب ، تهبط ثم تستقيم ، وتدخل فجأة أمام الصفوف فى الساحة التى تفصل البحر عن الفرسان المصرية ·

ارتفعت الأصـــوات مرة واحدة وهما يدخلان حومة المعركة المنتظرة والمراكب المسطحة قد اقتربت من الشـــاطىء جدا ووقفت تتأرجح على الموج الضحل لحظة قصيرة · واذا بهتاف آمر يرتفع فجأة · واذا بالطبول النحاسية تنطلق منها أصوات قعقعتها المدوية المنتظمة يتبعها درداب الطبول الخشبية الضخام تنزل العصى على جلدها المشدود فيرتج الهواء المتوتر بنغم أجش عميق ، تصـــاحبه الأبواق ولها نداء مروع فسيح الجنبات · والمزامير تنفث عويلا تجيش له الدماء ، والصناجات تخبط فى اصطفاق نحاسى مصلصل يروع الحواس ·

أخذ المغيرون بهذه الأنغام التى تتقلب لها الاحشـــاء بلهفات غامضة للقتل والقتال · وساد على الســـاحة كلها صمت مفاجىء لا تملؤه الا دقات العسكر المصرية بما تحمل من نذير ينخس القلوب وحض لا يرد على المناجزة والنزال · ثم دوت من الغزاة صيحات

وحشية وهم يقذفون بأنفسهم فى المياه الضحلة وينزلون خيلهم تخوض الموج القليل العمق ، حتى ارتفعت من ذلك رغوة مزبدة راحت تمتد على طول الساحل كله ، تطس الماء بين الاقدام والجسوم وجنوب الخيل · والرايا تالملونة الضخمة المشـــقوقة الأطراف تنخفض فى النزول ثم ترتفع ، وعليها علامات الصليب الكبيرة وأزهار الزنبق وشارات النبلاء ·

والجند الدارعون برماحهم المشرعة ، وخناجرهم على جنوبهم وخوذاتهم الحديدية قد بدت رؤوسهم وأكتافهم فوق المياه بين أمواج الزبد على طول الساحل ، كأنها حقل متموج من ثمار البحر الغريبة يهتز به الماء ويلقيه على الشاطىء كما تلقى النفايات ·

الفصل الثامن

كان أقطاى قد بلغ منتصف الساحة عندما رأى على الساحل ، من بعيد نفرا من المهاجمين تبدو عليهم أمارات القيادة ورفعة الشأن ، يتقدمهم شيخ أشيب يحمل صليبا ضخما ويرفعه أمامه وهو يخوض الماء · ووراءه رجل فارع القامة نحيل يلوح وجهه الأبيض من بعيد ، وجدائل شعره القصيرة تحت خوذته الذهبية اللامعة فى الشمس ، قد غمرته المياه حتى كتفيه ، ترفرف فوقه راية حريرية ضخمة هائلة عليها شعارهم من أزهار الزنبق ، يحملها جندى ويسنده آخر ، وتحيط به ثلة من الفرسان فى دروعهم الثقيلة · ووراءهم هذا الموج المزبد من الرجال والخيل يرمى بنفسه على الشاطىء ويسبقهم نفر من الحرس مشرعين رماحهم ·

وقف أقطاى فى مكانه ، ودار به جواده دورات قليلة يتدارك بها وقفته بعد سرعة العدو ، ورفع رأسه وهو يصهل · وامتدت يده الى قوسه وسدد فيها سهما وقاس المسافة بينه وبين البحر بنظرة خبيرة عارفة ·

كانت رمية السـهم أقصر من أن تنال من المهاجمين شيئا ٠ ومازالت أمامهم شقة حتى يقعوا فى حوزتها ٠ والمهاجمون يعرفون ذلك ، فهم يتقدمون فى ثقة ، ولكن أقطاى مع ذلك لم يملك نفسه الا ان يشد وتر القوس بعنف ويفوق السهم ويطلقه ، فاذا هو يئز ويندفع يشق الهواء ٠ وفى اللحظة نفسها ، وكأنما حفز المدافعين جميعا حافز واحد ، انهمر سيل من السهام كستار رقيق فوق الرؤوس له صفير ثاقب يمزق الأسماع ، وارتفع فى دفقات متعاقبة ، ثم سقطت السهام وانغرست فى الرمال بعيدا عن أقدام المهاجمين ٠ وفى اللحظة التى انطلقت فيها خطفة السهام ارتفعت من الصف العربى صيحة واحدة ينخلع لها القلب ، **لها هدير متلاحق الموج :**

الله اكبر ٠٠ ! الله اكبر ٠٠ ! الله اكبر ٠٠ !

دار أقطاى بجواده والى جانبه أسامه الكنانى ٠ وقد سرت فى الصف موجة نهائية من الاستعداد والتوثب بالخيل وحركة الأقواس ترتفع وتثبت بها السهام والدروع تتقلقل ٠ ولكن الهجمة لم تندفع الى امام ٠ وظلت الصفوف فى مكانها تهتز وتتموج كأنها حوض هائل من المياه تحبسه سدود قوية ويصطفق داخل جدرانه ٠ وعصف بذهن أقطاى ان هذه هى اللحظة الوحيدة الملائمة لشن حملة صادقة ٠٠ ومهما كان عدد المهاجمين فمازالوا يتعثرون فى أولى خطواتهم على الشاطىء وانقضاض الخيالة عليهم وهم فى هذه الحال لابد مؤث اثرا كعصف الريح بنباتات طفيلية مازالت هشة لا قوة فى سيقانها ٠ والتفت أقطاى الى الخلف ووراءه صفوف الفرسان على الوجوه جميعا تعبير واحد مشدود متوتر ٠ خوذاتهم تلمع ودروعهم تومض وشفاههم مطبقة خلف اللحى والرايات تخفق على سـواريها بين الفرسان ٠ والستور المنسدلة على جنوب الخيل تهتز ٠ لو أن أمرا صدر الآن، الآن، بالهجوم لما وقفت أمامهم قوة المغيرين ٠ أين أمير

المعسكر ؟ أين فخر الدين ؟ هذه لحظتك يابن شيخ الشيوخ • الآن • واللحظة تنقضى وتمر سريعة لا تتمهل ولا تعوض •

لكن أقطاى لم يلمح الا الطواشية والقراغلامية يعدون بالخيل بين الصفوف وأمامها لكنهم لا ينقلون فمما يدو رسالة ولا ينظمون أمرا • والتعبئة مازالت مهتزة مضـــطربة • وأمراء المئات كأنهم مشغولون عن أمرهم بشىء ما لا يهتفون بنداء ولا يطلقون صيحة الحملة • وقد أخذت ترتفع من حشود الفرسان همهمة غضب وتردد وهدير متقلب مكتوم •

اللحظات تمر سراعا والساحل كله يتغطى بحشود جديدة ملونة مدرعة من الغزاة ترتفع عليها الأعلام وتقوم وسطها الرماح ، والقسس أمامهم يصلون ويترنمون وسط الضجيج • وصفوفهم — هم — تنتظم وتستقيم وتتكاثف ويشتد عودها • وثم سهام تنطلق الآن منهم فرادى أولا ثم فى هبات سريعة متكاثفة كرذاذ مطر يشتد ثم يهون ويتقاطر فى تهافت •

وقد بدا الآن واضحا للعيان ان حشود المهاجمين أكثر أضعافا مضاعفة من صفوف المدافعين ، وذلك يعمل عمله المخرب فى نفوسهم • ونفح رياح التردد والشك يكاد يحسه أقطاى احساسا ، يهب فى وسط فرسان فخر الدين ، بازاء الجموع الغفيرة المتزاحمة النازلة على الساحل كأنها لن تفرغ أبدا • يتقدمها الفرسان ، وقد ركبوا ، تلمع ثيابهم ودروعهم من البلل ويسقط الماء من جنوب خيلهم وشـــعر نواصيها • ثم تتوزع الصفوف عن يمين وعن يسار تحكمها ارادة جماعية متسقة صارمة على نقيض تخاذل العزم ووهن حباله فى صفوف المدافعين •

والوقت يمر ولا جديد الا اطراد نظام معسكر المهاجمين وتفتت

كل ما بقى من تماسك فى جموع المدافعين · وأقطاى يطلق السهام من قوسه فى حركة من يريد أن يفعل شيئا ، أى شىء ، فانه الوحيد حقا فى وسط هذه الحشود ، قواته بعيدة عنه فى اشموم طناح ، ولا امرة له ولا كلمة هنا حيث تشتد الحاجة الى الكلمة المسموعة والامرة النافذة ·

وثارت فى نفسه نزعة حارقة أن يفعل شيئا يخفف به هذا الضنك الذى يأخذ بخناقه · فاذا به دون أن يدرك تماما عاقبة ما يفعل ودون أن يهتم لو أنه أدرك ينخس جواده الأشهب بالمهماز فى عنف حتى يكاد يغوص به فى جنب الجواد وتنطلق منه بملء حنجرته صيحة عارمة ·· ها ·· والجواد تحته يعلو ثم ينقض الى الامام · وقد سل أقطاى سيفه ورفعه فى هجمة لا تلوى على شىء ، يسقط على الغزاة · ودون أن يشعر وجد أقطاى نفسه بعد لحظة واحدة على رأس كوكبة محتشـــدة من فرسـان العرب حفزتهم صيحته المفاجئة فانطلقوا وراءه دون أمر من قادتهم وقد ثارت دماؤهم لرعشة التحدى والاقدام التى ارتج لها صوت الفارس · وارتفع من صف الغزاة أمامهم ريح من السهام تصـفر ، لكنه لم يحســـها · واذا هو مع الفرسان العرب يدخلون الصف الأول من الغزاه · واذا ســـــيفه يصطدم بالدروع ويرتد عنها فى براعة المقاتل المحنك · وقد بعدت به هجمة جواده عن ذلك الأمير ـ أو لعله الملك بنفسه الذى كان يتقدم فى الماء خلف الصليب وترفرف فوقه الراية الهائلة · واحس أقطاى بأسامه البدوى الى جانبه يثاقف السلاح جماعة من الحرس المدججين الدارعين ·وهو غير متكم بزرد ودرع لا تقيه الا جحفته الجلدية الصفيقة المتينة وسيفه المسلول وخفة ركوبته ·

لم ير أقطاى أمامه الا وجه هذا الأمير الفرنجى الملثم خلف

قناع من الحديد لا تضىء فيه الا عينان ضيقتان قاسيتان ودرعه المتصلبة الجامدة تدور بجسمه حديدية قائمة الزوايا والاركان ٠

قلعة متحركة ضخمة على جواده المدرع بالجلد الثخين ٠ ولكن أقطاى له زرديته المطواعة المرنة وقد أغمد سيفه بسرعة وشرع رمحه الطويل الثاقب وراح الآن يداور خصمه ، والجواد الفرنسى الضخم زلق مبلول ثقيل الخطو يرزح تحت راكبه وتؤوده حرارة الظهر التى لم يألفها ٠ أما السباق الأشهب فانه يعرف ما هو بسبيله ٠ فهو يدور حول هذه القلعة الضـــخمة الراكبة دورانا خفيفا ريض الحركة ٠ والفارس الفرنسى قد شهر حربته الثقيلة يذود بها نفســـه ٠ لكنه لا يملك ســـرعة المناورة التى يمتاز بها أقطاى ٠ ثنى أقطاى عنان جواده وانطلق يعدو الى الوراء ثم التفت فجأة فى خطفة برق واستدار وهو ينخس جواده ويصرخ ملء حنجرته صرخة لم يدر كيف انطلقت منه وقد تيقن النصر من الآن ، جواده ينقض ويده تمسك بالرمح المسدد فى قوة راسخة لايزلزلها شىء والرمح يرتطم بالفارس المدرع ارتطاما مروعا والفارس يطير من على سرجه وقد انتسفت قدماه من ركابه انتسافا ، وتمزق الجلد الذى يربطه به ووقع على الأرض ودروعه تصطفق بعضها بالبعض ٠ وقد انحســـرت ستارة الخوذة الحديدية عن عنقه وانقلب الفارس الفرنسى الساقط على جنبه ورفس برجله كأنه حشرة ضخمة محرجة ثقيلة الحركة ٠ ولكن أقطاى كان قد كر راجعا وقد سدد رمحه الى أسفل ، وفى تلك اللمحة الدقيقة من الثانية التى ينبغى له ان يضرب فيها بالضبط ، غرز رمحه فى العنق المكشوف بضربة واحدة نفذت الى الأرض وتخلت قبضته على الفور ، عن الرمح ، فى ذات اللحظة التى انغرز فيها ، ودار بجواده مرة أخرى دورة قصيرة حادة وعاد ينتزع الرمح بقوة ، يستله من غمده فى اللحم والعظم ورمل الأرض ، انبجست نافورة صغيرة من الدم حتى طست سرجه وعباءته ، وانحرف أقطاى يدور بجواده بعيدا

عن رهط من الحرس اتجه اليه تتبعه من قريب ثلة قليلة من فرسان المسلمين ·

كان أقطاى منتشيا بخمرة مجنونة معربدة فى دمائه ، لكنها لم تحل دونه وتقدير الخطر الذى يلم به · فالفرسان الفرنسية تقصده ، وقد تباطأت سرعة النفر القليل من الفرسان المسلمين الذين يتعقبونهم وليس بجواره الآن أحد · وأسامه مشغول بمنازلة فارس فرنجى بعيدا عنه · وأصبح الأمر الآن معقودا بسرعة « السباق » ، وخفة قوائمه · وهو ينخسه فى جنبه ويحثه صائحا به « هيه ·· هيه ·· سباق » وقد دار فى اتجاه الشقة الخالية التى تفصـــل المعسكرين تسقط فيها السهام · وعليه الآن أن يتحامى أيضا عن سهام زملائه ولكن ما من محيد عن المغامرة · فان الفرنسيين لن يجرأوا على متابعته الى صفوف عسكره لو انه استطاع ان يدركها ·

والأرض ترتفع تحت قوائم جواده وهو يعدو ، وقد روع أقطاى اذ وجد فرسان فخر الدين تفر على أعقابها ، وتتباعد عنه فى جموع مختلطة المعالم مشعثة النظام ، وقد تفرقت فلولا وأشتاتا متزاحمة كل منها تبغى النجاة · والأرض تميد تحت سنابك جواده ، وقلبه يغور الى عمق عميق ·

شدد من عزمه أنه شاهد فرسانا ينفصـــلون عن الجموع المنهزمة دون قتال ولانزال ، ويخرجون الى أسامه ينقضون على المهاجمين فرادى أو مثنى والسهام تعتورهم من كل جانب وتنوشهم · ورأى فارسا منهم يقطع على الطريق ويهجم على متعقبيه فى بسالة · ولكن السباق كان قد انطلق به وراء فرسان فخر الدين ولم يجد فى يده من القوة ما يثنى به عنان جواده ، وعندما ابتعد جدا عن مرمى سهام الفرنسيين وأحس نفسه قد خلص حقا من مطارديه التفت فرأى الفارس المجهول الشجاع قد سقط من على فرسه وأحدقت به

شرذمة الفرسان الفرنج ، وهو على الأرض ـ لك الله أيها الفارس الشهيد ، ما من أحد يملك الآن لك شيئا ٠

أحس فارس الدين أقطاى بتعب مفـــاجىء فادح يحط على كتفيه ، وضرب جرحه الذى كان قد رم وصلح ، فى أعلى ذراعه ، فأحس له وخزا كطعن السنان ٠ وأمامه قوات فخر الدين ، لا شك الآن ، تتقهقر منهزمة فى غير انتظام من غير أن تشتبك فى قتال حق وقد تخلت عن الميدان لكن الفرنسيين لم يتعقبوها ، بل وقفوا صفوفا طويلة حاشدة منتظمة فى عسكرهم الجرار ينتظرون ، فلعلهم ـ أسفا ـ يتوهمون فى الأمر خدعة ومكيدة ٠

لم يعد أمامه الا ان يعود ادراجه الى اشموم طناح يلحق بامرته وبمولاه ٠ وفى فمه طعم التراب ومرارة الهزيمة ٠ ويعود فيستجمع قواه مع المعسكر المصرى الكبير ، حول السلطان ٠ ويتأهب من جديد للقتال ، فالحرب سجال ولها دورات ٠

تنكب أقطاى طريق الجموع الناكصة المتراكبة ودار وقد أصبح التل الى يمينه ، ووراءه ان رأى حافة السور العريضة وقد أقفرت من الحرس ٠ والباب الضخم الذى يقابله من الضفة الأخرى مفتوحا على مصراعيه تتدفق منه أخلاط من الجند والناس والدواب تبدو على البعد ضئيلة لكنها محتشدة فى سيل بطىء كثيف يطفح من الباب وينسرب على الطريق ٠

واذا بعمود رقيق من الدخان يصعد وراء الأسوار من قلب المدينة ، ويتكاثف الدخان سريعا ويعلو فى أعمدة غليظة القوام سوداء ٠ رائحة الحريق تصل اليه ٠ وجواده يخب به فى البرية على البر الشرقى من النيل ويعود به الى الأكمة التى شهد منها ساحة المعركة فى الساعات الأولى من الصباح وعينه تأخذ المشاهد التى

توجع القلب · وقد رآها من قبل فى الماضى ، عند حلول الهزيمة بالمعسكرات · هذه خيام المؤخرة تتقوض وتنهار والجمال الهجن تقوم وتخب بأحمالها وأثقالها يتبعها أهل الساقة من حرفيين وباعة وتجار وهوادج الحريم تتبختر بها النوق ، مهطعة تتمايل عن يمين ويسار والأمتعة ملقاة مهملة فى الساحات وقد نشبت النار بأكوام البضائع المنسية وخيام السلاح والمؤونة مفتوحة مشقوقة الجنبات مرخية الاطناب يقتحمها فرسان الأعراب النهابة · وقوافل طويلة مضطربة الحبال من الدواب ، والرجالة ، قد تناثرت على صفحة البرية وبين الغيطان تطلب الأمان والنأى عن الميدان ·

وقد خلت البرية الواسعة الآن من صفوف فرسان فخر الدين وعسكره والسفن قد أقلعت كلها من أمام دمياط وبسطت أشرعتها تطلب النجاة وانطلقت وراء بعضها البعض تحاذى فلول الناكصين على الطريق ·

وعلى الربوة العالية هبت على وجهه ريح العصر ، واهنة تحمل ملوحة البحر ومرارة الاندحار ، وتنقل اليه هديرا خـــافتا بعيدا من صفوف المغيرين وقد نصبت فيها الخيام وارتفعت الرايات تخفق وبينها خيمة حمراء كبيرة يتحلق حولها حشد كبير من امراء الفرسان · فلا شك أنها خيمة ملكهم وكبيرهم · كان قلبه منعقدا كالبؤرة الصلبة الحجرية وحلقه جافا ولا شهوة له لطعام ولا لشراب كأن مجرد الطعام الآن خيانة ، عبء فى أى حال على صدره لا يطاق التفكير فيه · ودار ببصره محبط العزم مثقل الروح وفجأة هب فى ركابه واقفا ·· وقد تخلف قلبه عن احدى دقاته من الروع ، ووقف كل شـــىء فى كابوس ســـاطع ثابت لا يغمره الا نور الجنون · القنطرة ·· ! الجسر الذى يصل بين ضفتى النيل · ويفتح الطريق أمام الغزاه الى دمياط ·· !

نسى الهاربون أن يدمروه أو يحـــرقوه · وأغفلوا أن يفكوا رباطه ويقطعوا الطريق · وها هى ذى القنطرة تلوح من ورائه على البعد ، آمنة خالية ليس عليها انسان · وتقف لمة من الفرنسيين أمامها كأنهم يزنون احتمالات العبور ويتخوفون المفاجأة ، وأمواج النيل تتقلب تحتها بهدوء ــ ويترقرق عليها ضوء الأصيل ·

الآن تمت الكارثة فصولا · وأمر من ذلك كله أنه لا يملك أن يفعل شيئا · فهو متخلف وحده ومكشوف على الأكمة عرضة فى أية لحظة للمطاردة والتعقب من فرسان الفرنج · والله يدرى أين ذهب أسامه وكيف دارت به صروف المعركة · وقد ابتعدت قوافل الناكصين المتفرقة حتى مدى البصر الى الجنوب ·

ربت أقطاى عنق جواده · وانحدر يســير خببا فى طريق الرجوع ·

مضت الليلة بطولها وأبواب دمياط مفتوحة تتدفق منها البقية الباقية من الســكان والعسكر · وقد هجرتها حاميتها من جنود الكنانية وتركوا ذخائرها المكدسة وسلاحها وعتادها الكثير · وكانت الحرائق قد اشتعلت فى البلد ورائحة الدخان والنار والخشب المحترق تملأ الجو ، وألسنة اللهب تنعكس على صــفحة السماء بحمرة داكنة ، وصرخات النساء والاطفال تتجاوب مع صيحات الجند فى المدينة الخاوية ، وأصوات التدمير وتخريب البيبان وكسر الشبابيك والطيقان وقرقعة الخشب فى النار ·

وانطلقت فى شوارع البلد وحواريها جماعات صغيرة من الجند المتخلفين والعامة والزناطرة والعياق تنهب وترمى الأمتعة فى الطريق، تجرى وراء رجل ناحل قائم العود يلبس عباءة سوداء قد تربت برماد الحرائق وتحيفت النار أطرافها وتمزقت من المسامير وشظايا الخشب الحاد ، وهو يوجههم الى مواطن الحريق ومخازن الأعلاف

والسلاح والنفوط ويركض تارة على جواده الاسحم البهيم وتارة راجلا يجرى ويشور بيديه ويصيح بالنداءات وكأنه شيطان مريد لا ينهد منه حيل ولا ينال منه وهن ٠

وقبل فجر السبت كان ثم هدوء موحش غريب يسود المدينة المقفرة لا ترتفع فيه الا صيحات وهتافات متقطعة وفحيح النار وهى تئز والجدران تنقض والخشب يقرقع ثم يتهاوى فى هدير مكتوم ٠ وأقبل الفارس الأسود على حصانه وراء جماعة من العامة عليهم أثواب خلقة فوقها طيالس وعباءات فاخرة منهوبة يجرون الى الباب الكبير حاملين خليطا من المسروقات واذ مر الفارس بالجامع الكبير تحركت شفتاه ولمعت فى عينيه نظرة مرارة وعزم حديد ، وحفزه حافز غامض ، فترجل ودخل الجامع الشاهق الفسيح ، وقد انحرفت أبسطته الثمينة عن مواقعها وتعرى بلاطه وانطفأت قناديله ، وبدا موحشا صامتا مهيبا لا تبلغه أصوات النار والتهدم وصيحات العامة الا من بعيد ٠ ووقف الرجل خاشعا يتلو الفاتحة فى صمت ، ويقطع على نفسه ميثاقا ، اذ تناهى الى سمعه صوت حار متهجد ، يتلو أدعية وأورادا واستغاثات غير مستبينة ، فيها كل الضراعة وكل الايمان ٠ شد الفارس الأسود قامته ومضى يتجه الى مصـــدر الصوت فى خطى ثابتة مصممة حتى وقعت عينه فى العتمة على شبح قد التصق بمنبر الجامع ، يحتضنه بذراعيه وحده فى السكون المهيب الفسيح ، تصعد من قلبه موجات حارة من الدعاء كأنما تتفطر عن أعمق أعماق روحه ٠

لبث الغريب قائم العمود منكس الرأس وصبر فترة من الزمن٠ ولكن الشيخ ذا الجبة الغبراء والعمامة الدخانية المتربة لم يحس له وجودا ولم يلتفت اليه أدنى التفات ٠ استغرقه الدعاء والاستغاثة ولم يعد فى عالمه الا نداء قلبه المعذب يتصاعد الى الله فى شكاة ممزقة من حشاه ، حتى جاءه صوت فيه استعلاء وتوقير فى الوقت نفسه ،

ينتزعه من استغراقه ويرده الى الأرض فيعود يحس المنبر بين ذراعيه وكان قد ذهل عنه ولم يعد يشعر به ، ويحس المسجد المعتم بهدوئه الرائع حواليه ٠

ــ السلام عليكم ياشيخ ورحمة الله ٠

ــ وعليكم السلام يابنى ورحمته وبركاته ٠

ــ ياشيخ ليس فى الوقت الآن فسحة للكلام ٠ فان كنت قد فرغت فتعال معى نخرج عن البلد فور ما نستطيع ٠ ألا تدرى ماحدث ياشيخ ؟ لماذا تتلبث ولم يعد فى البلد كلها أحد ؟

ــ انما الأمر بيد الله ٠ قضيت حياتى جميعا انتظر هذا اليوم وأرقب مجيئه ٠ واذ اتيح لى ان أفى بالنذر فهل أنكث به وأعود أدراجى وأفارق الجامع « الفتح » المبارك ؟ انى باق فى رحابه حتى يقضى الله أمره فينا ٠

حدق فيه الغريب وأمعن اليه النظر ٠ هذا الشـــيخ الطيب الضاوى الجسم سوف يقضى على نفسه وهو فيما يلوح للعيان قد عقد نيته على الشهادة فى سبيل ما يراه حقه والوفاء بنذره ٠ لكن هذه النية اذا صحت على الشهادة فانما ميدانها شىء آخر غير اللصـــوق بمنبر الجامع حتى يدركه الغزاة الآثمون فيقتلوه وقد يمثلون به شر مثلة ٠ **وخطف برق فى عينى الرجل الأسود واقترب برفق من الشيخ ومد اليه يده ويقول ليسايره ويغريه :**

ــ أمر الله حق ياشيخنا ٠ هو فوق كل أمير ٠ لكن جهادك فى سبيل الله ان شئت الجهاد مع قوات السلطان وعسكر المسلمين ٠ وما بيدك ان تفعل شيئا بازاء الحشود الغفيرة من الغزاة المعتدين ، وأنت وحدك صفر اليدين من السلاح ٠ تعال معى نتدبر أمرنا وأمر

الله ، خارج أسوار هذا البلد الشهيد · لم يعد أمامنا وقت كثير · وما بقاؤك هنا على أى حال ؟ الا تعرف أن هذا الجامع سوف يحوله الغزاة الآثمون الى كنيسة يزعمون فيها التقرب الى الله ، كما فعلوا من قبل ؟

ــ لن أبرح الجامع الفتح ما بقى فى نفســـى يتردد أو أموت دونه شهيدا · قالها الشيخ بصوت مرتعش ومتهدج بنار النزعة المحرقة للاستشهاد ·

عقد الغريب ارادته وقر قراره · فقد أدرك أنه مهما بذل من جهد فى الاقناع والاغراء بالعقل والحجة ، فلن يسعه أن يحول عزم هذا الرجل عما اختطه لنفسه · والأمر الآن بيده · هذه خامة نفيسة من خامات النفوس لن يدعها تفلت من قبضته · وقبضته هذه سوف تحسم الأمر · فالفجر يوشك أن يطلع والمدينة الخالية ترقد كالضحية فى انتظار الجلاد · لم يعد ثم فسحة للكلام بل للعمل ، العمل السريع الحازم · وتجمع الرجل الأسود بينما دار الشيخ مرة أخرى فألصق وجهه بالمنبر يهمهم بدعائه الحار الجياش ينشق عنه صدره والغريب تشتد قبضتاه المتلاحمتان أحداهما على الأخرى حتى تتكون منهما عقدة وثيقة متينة راســـخة ويرفع قبضـــتيه المتماسكتين معا ويهوى بهما فى ضربة مدربة حاذقة على أسفل عنق الشيخ من جنب فيترنح جسم الشيخ وينهد ويتهاوى ·

وقبل أن يســـقط يحمله الغريب فى رفعة واحدة على عاتقه ويخرج به ثابت الخطو هادىء الجأش ويطوح بالجسم المتخاذل على

سرج فرسه الأسود ويثب فاذا هو قد أمتطى صهوته وأمامه الشيخ متطوحا على السرج وجهه الى عنق الفرس وأنفاسه تتردد غليظة فى صدره · وانطلق الفارس الأسود يخب بفرسه فى الشوارع المقفرة تجرى فيها القطط والـــكلاب تعوى فى ذعر ، وتتناثر فيها الحطام وركام المتاع المنهوب وتنسكب عليها نجوم الفجر بضوئها الشاحب والنار تتراقص وراءه وتلعق أطراف الســـماء بألسنتها الحادة . حتى أدرك الباب وخرج من السور يغذ السير ليلحق بالمركب المحتشد الكثيف على الطريق الى الجنوب ·

لم يكن الشيخ عبد الله بن خلف الدمياطى قد قضى فى دمياط الحبيبة اليه ، وفى رحاب جامعها الفتح الذى طال تشـــوقه اليه الا سحابة يوم · ولكنه لم يبارحها الا غائبا عن وعيه ، قسرا ، على صهوة جواد أسود غريب ·

الفصل التاسع

ـ أرتجى عفوك واستميحك معذرة يا شـــيخنا ·· ما كان يسعنى أن أتركك نهبا للغزاة · وقد قسرتنى على ما أكره ، ولكن ما حيلتى يا مولانا ؟

وابتسم الغريب للشيخ عبد الله ، وهو على الأرض ، يسنده فينزله من على الحصان ، ويضع يديه تحت أبطيه حتى لا يتعثر ، والشيخ يئن اذ ينهض برأسه ويديره ببطء وحذر كأنه يتلمس سلامة موقعه على كتفيه ، ويرفع ذراعه فى جهد وألم يتحسس موضـــع الضربة القاصمة التى دوخته ، والغريب ينظر اليه فى رفق ويمسكه فى هوادة :

ـ لا عليك ياشيخنا · كلها حصة من زمان ويزول عنك هذا الألم باذن الله · أكنت ترضى بأن أخليك فريسة لبرابرة الفرنج ؟ والله لئن رضيت ذلك لنفسك ما كنت لأرضاه لنفسى ولا أغفره لها أبدا · خذ تناول جرعة من هذا ، يريحك ويذهب عنك العناء ·

ومد يده الى خريطته بجانب السرج ، فأخرج منها قارورة صغيرة من زجاج داكن فى قربة جلدية تحميها ، ووضع عنق القارورة فى فم الشيخ وأمالها قليلا فانسربت منها قطرات ثخينة من سائل كثيف القوام حلو الطعم له نكهة نافذة · وكان للسائل أثر السحر فى الألم الذى أوشك أن يوقف عنق الشيخ ، وسرى فيه مسرى المخدر اللطيف ، وعلى الفور خفت آلامه وهانت ، وأحس فى ذهنه صفاء مشرقا وفى أوصاله مرونة · وسأل الشيخ بصوت أجش من أثر الضربة :

ـ ما هذا الذى جرعتنيه أيها الغريب ؟ ومن أنت ؟ ما اسمك ومن أنت ؟

ـ هذا منقوع موصوف لكل الآلام ، فى الجسم والعقل معا يا شيخنا ·

ـ وما ذاك ؟

فقال الغريب ، كأنه يعتذر مما ألحقه بالشيخ من ضر ، فهو ملزم بالرد ، لكنه يجيب بغموض وايجاز :

ـ عقار مجرب موصوف ·

وارتسم على وجه الشيخ تعبير عن التأمل والفهم الذى يشيع ببطء فى ذهنه المستضىء وسأل :

ـ ومن أنت يا غريب ؟ عليك هذا الدين لى على الأقل ، أن تتسمى وتعرفنى قومك وبلدك ·

فتجاهل الغريب الشق الأول من السؤال وقال باقتضاب :

ـ غريب عن البلاد ولكنى من أهلها · كل بلاد العرب لى

وطن ٠ تعال معى الآن نصلح من أمرك ٠ ٠ياشيخى ٠٠ أما غفر لى قلبك بعد ، وصفت نفسك ؟

ـ صنع الله لك يا بنى ٠٠ ما تســـع نفسى أن تحمل كدرا لمخلوق من مخلوقات الله ، بله لاسمى مخلوقاته وأقربها اليه وأحملها لامانته٠ ٠ غفر الله لنا ولك جميعا ٠

وتحامل الشيخ على زميله ، على الطريق الخاوية فى الفجر ، وسرت فى جسمه رعشة لحظها الغريب فخلع عباءته الســـوداء ، والقاها على كتفيه فأدفأته وأحيت فيه مواتا ٠ ثم نزل به الغريب على ضفة النيل فأجلسه تحت الجسر العالى ، فى حمى من هواء الفجر البارد ، وراء قرص ضخم جانح من بقايا ساقية خشبية قديمة متآكلة ، ملقاة على الشط ، وجلس الشيخ القرفصاء مستندا الى حافة القرص العريضة التى أبلاها القدم ، والتف بالعباءة ، بينما ذهب الغريب الى الشط فغمس خرقة بالماء البارد وعصرها ، ثم عاد فمسح بها على رأس الشيخ ودعك عنقه من الخلف بزيت صبه من قارورة أخرى فى خريطته ، دعكا هينا رقيقا ، بأصابع مرنة عارفة ٠ وأحس الشيخ راحة ممتعة تورق وتزدهر فى جســـمه ٠ واستند الغريب الى القرص الخشبى الضخم ، وبسط جسمه اليه وتنهد ٠ ورفع بصره الى الطريق ، ومر بهما فارس ينهب الأرض تطير حواليه عباءته البيضاء على فرسه الصهباء ، وألقى اليهما الفارس الأسمر بنظرة سريعة ثم انطلق لا يلوى على شىء ٠ وتابعه الغريب بنظرة كأن فيها كل أثقال العالم ، تنوء تحت حس بأنه مسئول عن الناس جميعا ، نظرة فيها جد ، ومحبة ، وفيها تقدير لأشياء لها خطر ووزن ، لا يراها أحد بعد ٠ وما كادا يستريحان هنيهة وجيزة حتى مرت بهما جماعة من العامة يجرون جريا منقطع الخطى مبهور الأنفاس ، هو مجرد هرولة وان كانوا يظنون أنفســـهم يقطعون المسافات جريا ، وتعالت منهم صيحات مبتورة خشنة ، واتجهوا

فى نشاط متزايد الى منحدر الطريق يقصدونها ، وشىء ما فى مظهرهم ينطق بالقصد الشرير · وتجمع الشيخ قليلا فى جلسته وان لم ينهض ولم يبال · ولكن الغريب كان قد هب واقفا ويده على كعب سيفه المقوس الغريب المظهر ، ويده الأخرى قد أمتدت تحت منطقته تتلمس هناك شيئا مخبوءا · اما جماعة العامة فوقفوا مبهوتين ، وسقطت صيحاتهم الى همسات سريعة يتبادلونها · فهذا الغريب هو الذى قادهم طيلة الليل فى دمياط يحضهم على الحريق والنهب وتكسير البيبان والبيوت وتدمير ما يسعهم أن يدمروا قبل وصول العدو حتى لا يجد الفرنج كل شىء فى المدينة صفوا عفوا ، بل يحرموا على الأقل من بعض السلاح والعتاد · ولكن هذا الغريب لم يأخذ لنفسه شيئا قط · وحدجهم الغريب ، وهو مازال واقفا تحت ، فى الشقة الضـــيقة جنب المياه ، بنظرة صارمة جادة ، نظرة القائد الذى لا يخشى شـــيئا ، ولم ينبس بكلمة · حتى التوت الجماعة على بعضها البعض وتبددت ، وعادت تهرول كأنها تفر ، فى طريقها الى الجنوب ·

ـ هيا ياشيخنا ·· ما عاد أمامنا وقت · فلم نبعد بعد عن أسوار دمياط · وما عندى شك فى أن طلائع الفرنج قادمون على هذا الطريق بعد قليل · أسوار دمياط ·· أنظر ، مازالت قائمة ركينة لم تثلم ، لكنها مهيضة الجناح · أبوابها الحصينة الجليلة ، مفتوحة بغير حارس ولا سلاح ·· هيا ياشيخ ·· هيا الى الطريق ·

فنهض الشيخ يتحامل على نفسه :

ـ لست أدرى عنك شيئا يا بنى ، لكنى أطمئن اليك وأرتاح · وأعرف أن لك قلبا ناصحا ونية صحيحة · أنت الغريب تتفجع على بلدنا الشهيد أحر من تفجعنا نحن ابناء البلد ·

ـ لست غريبا يا أبت ، قلت لك لست بالغريب ·

ثم تنبه الغريب الى حرارة رده وجموح عاطفته به ، فابتسم وقال :

ـ أنتم ابناء البلد تقولون ما غريب الا الشيطان ·· ! هذه دیاری وهؤلاء أهلى ياشيخ ·· بلاد الله كلها وطنى ·· انما عدوى هو البغى والطغيان والتجبر ·· اســـمعنى يا شيخ ·· أتدرى لم أخرجتك قسرا من جدران جامعك وأسوار بلدك ؟

وهو ينهض ويثب على الســـرج بحركة الفارس الطيعة التى مرنتها الممارسة الطويلة ، ويترك الركاب خاليا فيضع فيه الشيخ رجله ، ويجذبه اليه الغريب · ويلفه بذراعه فاذا هما مستويان على الجواد · وأجاب الشيخ وهو ينهج قليلا من اضطراب قلبه وقلة اعتياده ركوب الخيل ، وينظر الى كتف الفارس فى ثوبه الضـــيق الأسود الذى يشى بأصله الغريب ، ممشوقا نحيلا لكن فيه وثاقة كامنة :

ـ انما يخيل الى يا بنى أنى أرى خبيئة قصدك · لكنى لست حريا بان أقول ، حتى استوثق ·

ـ فاستوثق اذا من أمر واحد يا شيخ ·· لئن خرجت اليوم من دمياط فالى عودة · ولئن رأيت التقـــرب الى الله بالتهجـــد والاستغاثة فأنت من أهل الله ولك فى ذلك حق الله · لكن التقرب الى الله انما يجزى اليوم على سنن أخرى أيضا · وانما أضعف الايمان ـ على قوته ـ ايمان يستكين فى الصدور لا يخرج عنها الا بالدعاء والصلاة ·· فتأمل · علينا الآن أن نشق الطريق ، وسوف نغذ السير فلن تتاح لنا فسحة للكلام ·· وانما تتاح لك أنت يا شيخ فسحة النظر والتفكير ·· ولنا عودة ··

وهو ينخس جـــواده فيهب الجـــواد ، ويعلو وينخفض ، والأشجار تطير الى جانبيه ، وعجاج التراب يثور تحت سنابكه ، وفى السماء سحاب طائش أبيض يتشتت أمام الشمس البازغة ٠ والجواد ينقض على جماعات قليلة من المتخلفين على الطـــريق فيسرع الناس يتنحون عن الطريق ، يرفعون اليهما نظرات ضارعة مقرورة من البرد ، مفزوعة من أهوال الليل ٠

واذ يقطع الجواد الطريق مرحلة بعد مرحلة ، تتكاثف جماعات المهاجرين ويضيق الطريق ، وتتباطأ سرعة الجواد بالرغم منه ، اذ يلتقط طريقه التقاطا بين جماعات مشعثة من الناس نالت منها رحلة الليل الطويل ، شيوخا ، ونساء يحملن أطفالا ، وعجائز يجرون صبية صغارا ٠٠ ومعهم بين الحين والحين جندى يعرج يلتف رأسه وعنقه بشال نسائى ، لاشك انه انتزعه من امرأة لا نصير لها حاجتها الى الدفء أشد من حاجته ٠٠ الحمد لله ان الدنيا صيف ٠ والفارس الغريب يصيح بجماعات المهاجرين ان يفسحوا السبيل ويخلص من شرذمة منهم فينطلق الجواد حينا ثم يبطىء أمام حشد كثيف يسد الطريق بل ينحدر على جانبيه ٠ والطريق فجأة فى صحوة الصبح الأولى يفيض بالحركة والناس والهمهمة والأصوات ٠٠ شـــيوخ أجلاء بلحاهم ووجوههم الرصـــينة المنكوبة ، يبدو عليهم انهم من مساتير الناس ، يمشون كالجوارى والخدم على التراب حافين من غير نعال ولا دواب ولا بغال ، وعليهم القليل من ثياب ٠٠ خفيفة يطير بها الهواء ويضمون أذرعهم على صدورهم التماسا للدفء ، بحركة عفوية ، ويتعلق بهم أطفال صغار يتعثرون من جهد المسير ، وقد كســـا التراب وجوههم ، يفركون أعينهم المثقلة بالنوم المفتقد المسلوب ٠ ودارت عينا الفارس فى وسط الجمع وهو بينهم الفارس الوحيد ، على طول المسافة ٠ وقد جرى أقربهم اليه هاربين فزعا منه ، والنساء تصرخ وتعول . محلولات الشعر مهتوكات الملابس

حاســـــرات انحدرت الأنقبة عن وجههن المروعة الذاهلة وتعلقت برؤوسهن مهدلة ، ممزقة ، والبنات يسرن مترنحات وسط الرجال قد لففن أرجلهن بخرق من القماش الترب ملوثة بالطين والدماء على وجوههن نظرة البؤس الجامدة النهائية ، كأنهن على حافة عالم البشر ، تنبىء بأنهن قد عانين المحنة التى لا يعرفها الا البنات ·· والرجال العزل من كل سلاح ، يحملون بقايا فرش ومواعين خسيسة وفى هذا الموكب الفاجع المهتز المترنح نهنهة بكاء النساء المتعب الذى لعله طال الليل كله ، والأنين الخافت ، وهتافات الرجال الخفيضة والتراب يثور تحت الأقدام ويعلو فى سحابة كثيفة ·

ووجوه النساء اذ يدخل بينها الفارس الغريب وزميله الشيخ ترتفع اليه مفزعة ، ممتقعة ، متورمة من اللطم والبكاء · وصرخات يائسة تخرج عن صـــدور مقروحة مشـــروخة · والزحام يتموج ويضطرب حول الفرس الأسود · ليس فى هذا الجمع رجل يحمل سلاحا أو بقى له ثوب أو متاع نفيس · ·هذه هى الانقاض التى خلفها طوفان الهجرة · وأجهزت عليها غارات الليل الجائحة من العربان · وعندما رفع الفارس رأسه ، بجهد ، عن هذه الجموع كأنه مشدود اليها بالفاجعة ، لاحت له كوكبات من فرسان هؤلاء الاعراب تحجل بهم خيلهم ، عائدين بما غنموا · والى الامام فى آخر الطريق شقة واســعة خالية تبدو من ورائها الجمـــال وهى تعلو وتنخفض محملة بأثقال المعسكر المنهزم ، وحولها البغال والفرسان ومن ورائها الرجالة المدججين بالســلاح قد فروا بأنفســـهم ، فى الامام · .

وعندما انجلت غاشية الروع الأولى عن جماعات المهاجرين ، ورأوا من الفارس الغريب سكون الريح وأمن المظهر ، اندفعت اليه امرأة مفجوعة انسدل شعرها الطويل على ظهر تمزعت عنه الثياب ، حافية متورمة العينين وقد انهمر صـــدرها الرخى الوافر المعفر

بالتراب من مزقة طويلة فى فتحة ثوبها ، وليس مع الرجال ما تغطى به عريها ، أو أنهم لا يهتمون · **وانكفأت المرأة على جنب الفرس الأسود ترفع الى راكبه عينين ذاهلتين من الحمى والضياع وتسند رأسها الى قدمه تقبلها وتبكى بصوت متهدم :**

ـ أيهـا الأمير ·· أيهـا الأمير ·· ابنى ·· ألم تر ابنى ؟ صبى أسود الشعر · ·مليح ·· كان قد حفظ القرآن ياسيدى الأمير ·· كان أكبر من سنه عقلا · وأبوه أيضا ·· أين أبوه ؟ الأبن وأبوه فى يوم واحد ·· يوم أسود ·· ابنى ·· كان بيدى فى الليل ·· ضاع منى عندما هجم الاعراب ··

والمرأة فى هذائها تنكفىء فتقبل قدمه الموضـــوعة فى الركاب وتقبل ســـاقيه والدموع قد انهلت فجأة غزيرة يتفطر عنها قلبها المصدوع الذى لم تجف بعد مياه الفجيعة الحارة عنه :

ـ أنت رأيته ياســـيدى ·· هو معك ·· حفظك الله وخلاك لأولادك ·· سوف تأتينى به ؟ آه ·· ابنى ·· آه ·· آه ·· ياحسن ·· حسن ·· ألا تسمع ياولد ؟ حسن ·· حسن ·· !

والفارس ينظر الى أمام ، على جواده الذى وقف ، لا يملك أن يتحرك وفى عينيه نظرة ثابتة الى بعيد ، كأن الدموع التى يترقرق بها قلبه قد جمدت لامعة صـــلبة ، فى مآقيه ، تؤذى وتوجع لكنها لا تنهمر · وهو لا ينظر الى المرأة العارية الظهر التى انزلقت من على جنب فرســـه ، فى فجيعة اليقين بالضياع ، فى انهيار اليأس الأخير ·

خلع الشيخ عنه العباءة السوداء التى كان الغريب قد خلعها عليه ، ثم رماها على كتف المرأة التى سقطت على الأرض ، وحدها ،

لا رجل من أهلها بجوارها ، فأنهضتها امرأة عجوز تنحنى عليهـا وتنادى :

ـ يا اخواتى ٠٠ عدمت المروءة من الناس ؟ ســـــاعدينى يا أختى نرفعها على رجليها ٠

والشيخ قد أشاح النظر عنها ، لكنه لا يرى حواليه الا هذا الحطام المنكسر من الناس ، يغص به الطريق حتى آخره ٠٠ وثم جماعات قد تكومت على ضفة النيل ، تحت الطريق ، الاطفال قد ناموا من التعب على حجور أمهاتهم والآباء يتحاملون على أنفسهم فيأتون اليهم بالماء من النيل ، فى أيديهم العارية أو فى أوعية صغيرة ، وقد هدتهم مشقة السير ، وما عاد يهمهم فى شىء أن يتخلفوا عن موكب المهاجرين ، فما عاد لديهم ما ينتهب ولا ما ينتهك بعد ٠٠ وكأنما ينحطون فى راحة اليأس الذى تضيع فيه كل قيمة ، ويتمددون على التراب ، وجوههم الى أذرعهم يخفونها عن ضوء السماء ٠

وكأن الغضب الذى جاش به قلب الغريب ، الغضب المدمر الذى يشتهى ان يحطم به أولئك الاعداء القادمين من بعيد ، فهم بأيديهم هم الذين ارتكبوا هذه الجريمة الضخمة ملء السماء والأرض أولئك البرابرة الذين أنزلوا بهؤلاء الناس الطيبين كلهم نكبة زلزلت حياتهم وقوضت أركان قلوبهم فلن تعود أبدا الى سلامتها ـ كأن هذا الغضب حفزه فصاح بجواده صيحة وحشية وصرخ بالناس الذين يجررون أقدامهم فى تخاذل وضاق صـــدره بصيحات البكاء والدعاء من الناس ، فهتف بهم يفسحون له الطريق ٠ وذعر الناس وهرولوا يتنكبون مواطىء سنابك الجواد ، وانفرجت الطريق قليلا ، أمام الجواد الوحيد وسط هذه الموجة البشرية كأنه خشبة تتمايل على سطحها ، ثم انطبق الناس عليه من جديد ، يزحمونه كأنهم يحملونه على أكتافهم ٠

والجواد يتقدم ببطء فى هذا الغمـــار من الفجيعة والأحزان وتلدد الحيرة وبقايا الكارثة ، تجرفها قوة غالبة الى مصير مجهول· وقد أصبح موقفه حرجا مخوف العاقبة · فان همهمات من الغضب يسمعها ترتفع اليه من النساء والرجال حول سيقان جواده ، كأنهم ينقمون عليه ، والوجوه ترمقه بنظرات تحد ، والقبضات الواهية تتجمع فى لغط مكتوم ، وثم هدير خفى يسرى تحت الأرض فى باطن هذه النفوس التى اتصلت وتواحدت وجمعت بينها النكبة ، كالهدير المدمدم الذى يسبق زلزالا · والفارس يعرف ان صيحة غاضـــبة واحدة كفيلة بأن تحول هؤلاء الناس الطيبين الى وحش واحد كاسر ينتقم منه ــ هو ــ لأنه يركب جوادا ، وتبدو عليه السلامة من الكارثة، ويثأرون منه لما لا قوا من أهوال · ولن يجديه سيفه ولا خنجره أمام مئات الأيادى المتهددة المنقضة عليه ، لو انها ارتفعت مرة واحدة فحسب ·

وقد أحدق به فعلا ، فلا مخلص له ، الا ان ينحرف فيخرج الى الغيطان عن يساره ، ولن يأمن انتقاض الفلاحين أو الاعراب عليه ، ولن يسعه ان يظل يلف ويدور وسط الدروب الضيقة بين الغيطان ، ولا أن يتخلف فيتعرض للوقوع بين أيدى طلائع الفرنج · الموقف جد حقا لا يحتمل التوانى ·

كيف لم يقدر لنفســـه تلك الاحتمالات قبل أن يندب فى هذه الغمرة ؟

الفصل العاشر

ـ عبد الله ٠٠ يا شيخ عبد الله ٠٠ هنا الى يمينك ٠٠

التفت الفارس الأسود ، والتفت الشيخ الى مصدر النداء ، فاذا بجماعة من الجماعات الجالسة على ضفة المياه ، وقد وقف بينها شيخ أسمر مدور الوجه كث اللحية يلوح له ويشور وينادى من تحت :

ـ يا عبد الله يابن خلف ٠٠

وحدق اليه الشيخ لحظة ، لا يعرفه ، لكن الفارس وجد فى هذا النداء طريق النجاة من المأزق ٠ وفى لمح البصر وثب نازلا من على فرسه ، وأنزل الشيخ معه وقاد حصانه الى منحدر الجسر ، واخترق به جماعة مهدودة من الرجال تتمتم بلهجة ساخطة غير واضحة ٠ وهبط الى حيث يقف الكهل الأسود اللحية مع شاب نحيل أســـمر يضع على رأسه قلنسوة سوداء مدورة ظهرت من تحتها جدائل من مقدم رأسه غير مجزوزة ، والى جوارهما تقبع امرأتان متلفعتان بأحرمة سوداء تبص منها عيون لامعه ٠ كان الشيخ السمين والشاب

كلاهما يشدان على وسطيهما زنارين من الكتان الأبيض المجدول ٠ والرجل اذ يشور فى حماسته للنداء ينحسر عن ذراعه كم قبائه الأسود ، وتلوح على معصمه بوضوح علامة وشم الصليب الكبيرة الخضراء وكتابة بالقبطية ٠

دمدم رجل ضخم على الطريق :

ـ أقباط وأفاقون وشـــيخ مخرف مأفون ٠٠ يجمع المتعوس على خايب الرجا ٠٠ قالها كأنما يزيح عن نفسه علة أخرى من ضيقه وضنك حاله ، دون سوء نية ، ومضى فى طريقه ساقط الأكتاف، لا يلتفت ٠

واذ هبط الجواد الأسود ، واقترب الشيخ من هذه الجماعة من الاقباط ، مهاجرين وسط أهل بلدهم ، دنا منه الكهل المدور المنبعج البطن ووجهه يلمع بالطيبة والبشر ، وابتسامة ساذجة تندى شفتيه ، وهو يهتف بانفعال :

ـ الا تعرفنى يا عبد الله ؟ جبره ، جبره بن توفيلس الصباغ الصباغين ٠٠ !

وسطع وجه الشيخ عبد الله فجأة ، بالتعرف ، والفرح للقيا ذكرى من طفولته الغابرة ، فى بلده القديم ، القاها اليه الطوفان ٠ فلم يملك الا ان يندفع الى الشيخ القبطى فيتعانقان ويتحاضنان وقد اغرورقت العيون بسرور اللقاء والمعرفة ٠ **والكهل يندفع كأنه لن يقفه شىء قط :**

ـ الخالق الناطق ابوك عمى خلف ، رحمه الله ٠ أفضل وأكرم الجيران تذكر يا عبد الله ؟ كنا أولادا فى العاشرة ، هه ، عندما خرجتم من دمياط الى الاسكندرية ٠٠ هيه ٠٠ أيام ٠٠ أيام لن تعود ٠٠ ألا تذكر ؟ عرفتك أنا من وجهك وقامتك ٠٠ الخالق الناطق

عمى خلف قدس الله روحه ·· كان فى مثل سنك الآن يا عبد الله عندما خرجتم ·· يا ·· أيام ·· من كم سنة ؟ ثلاثين أو أكثر ·· ما أسرع ما تمر وتفوت ··

وقد افترق الرجلان ، ومازالا يشدان على يدى أحدهما الآخر بتلك الحركة التى يمتاز بها المصريون ابناء البلد ويتعانقان فجأة من جديد كأنهما يعتصران آخر قطرات من متعة اللقاء ثم يفترقان وهما باسمان تتآلف أعينهما ·

ـ نعم نعم يا جبره ·· كم مرت الأيام ·· سراعا ·· أنت أيضا تشبه جدك رحمه الله ·· عمى جرجس الصباغ ·

ـ تعيش أنت ··

ـ وأبوك عمى توفيلس ؟

ـ تعيش ·· ما تجوز عليهم جميعا الا الرحمة ·· لم يبق الا أنا ·· وحسن الختام ·· هذا ولدى اسحاق ·· تعال يا اسحاق ·· اسحاق ·· قرب بس يد عمك عبد الله ··

والشاب الأسمر الصامت ينحنى على يد الشيخ فيقبلها قبل أن يسحبها الشيخ بسرعة ، وهو يربت كتف الشاب بيده اليسرى ، **وجبره مازال يهضب بالحديث :**

ـ أرأيت يا عبد الله ؟ هانحن مهاجرون أيضا م نوجه الغزاة · كما فعلتم أنتم منذ ثلاثين سنة ·· ما كان لنا عيش فى البلد بعد أن خرج أهلها جميعا · أننسى نحن ما لقينا منهم المرة الفائتة ؟ كسرهم الله بحق الصليب ·

ولكنه قال العبارة الأخيرة بصوت خفيض ، وهو يرمق الفارس الغريب بنظرة سريعة ··

فقال الغريب بلهجة رقيقة ليس فيها اتهام :

ـ ولكنهم أتون الى بلدك يا عم باسم هذا الصليب ·

واندفع جبره يرد فى حمية :

ـ ياسيدى الصليب منهم براء · قل جاءوا كالمرة الماضية للنهب والسلب ، وهتك الأعراض ، ما شأنهم والصليب أخزاهم الله ·· ولكن اجلسوا ، تفضلوا كلوا معنا لقمة على ما قسم ·· تفضلوا أجلسوا ·· لا تؤاخذونا ··

فذهب الفارس يربط عنان جواده بحجر كبير على الشط ·· وهش على جماعة من الكلاب تحوم حول الجماعة وتهبط من الطريق، فى فرح وهيجان لا يعنيها شيء وانما يثيرها كل هؤلاء الناس على الطريق ، ثم عاد فانضم الى الجماعة ، وقد بسطت أمامهم خرقة نظيفة عليها بقية من سمك مقلى وفسيخ وجرجير وبقية فطيرة وملح وخبز قديد ·· ذلك كل ما وسع المهاجرين أن يحملوا زادا للطريق ·

وكان الغريب فى ثوبه الضيق الأسود اذ يجلس ، ثابت النظرة كمن يعمل الفكر سريعا فى مشكلة تعترضه ويوشك ان يقع لها على حل · ولكنه كان جوعانا أيضا ولا زاد معه ، وهم يشاركون الكهل القبطى وولده طعامهما ويتركان منه بقية للمرأتين الصــــامتتين المكنفتين فى السواد تتهامسان · والكهل يمد ذراعه للطعام ، باسم الله ، فتبدو حتى المرفق صفراء من أثر الكركم والزعفران · وتحت أظافر أصابعه الغليظة سواد من أثر العفص والزاج الذى لا يزول · والرجلان يتذاكران طفولتهما البعيدة ، عندما كانوا جيرانا فى حارة الصباغين ، وينزلق بهما الحديث ، فلا معدى عن ذلك ، الى هذا الغزو الغادر من جانب الصليبيين للمرة الثانية فى خلال عمرهما · **وانتبه الفارس فاذا بالشيخ عبد الله يقول وقد اعتدل ، بعد أن وضع كوزا شرب منه ، وتكرع ، وحمد الله :**

ـ الدين لله يا جبره ، وهو العليم الحكيم ·· أما كان يسعه لو أراد أن يخلقنا جميعا سواء ؟ انما أنتم ونحن ابناء بلد واحدة ، وتربطنا الذمة والعهد وحسن الجوار ·· وأنتم ظللتم دائما مناوئين لهؤلاء الفرنج ·· ·وقاسيتم منهم مثلما قاسينا ، وأحيانا أكثر ، امتهنوا قسيسيكم وبطاركتكم وكنائسكم · أذكر كنيستكم الصــغيرة القديمة فى حارة الصيارفة · وقد سمعت أبى رحمة الله عليه يحكى لنا كيف دخلوها فى اثناء القداس ، وجروا القســـيس على وجهه وأخذوه فلم يرجع · وكيف كنتم تهربون منهم · وسمعت منه أن أقدامكم لم تطأ الجامع عندما حولوه ـ أخزاهم الله ـ الى كنيسة باسم مريم رضى الله عنها ، ومريم منهم براء ·· نحن يا جبره لا ننسى لكم هذا الصنيع ·

كان اسحاق واقفا خلف أبيه ، لم يجلس ولم يتناول طعاما توقيرا لأبيه ، وهو شارد النظرة فى وجهه تصميم · وعندئذ قال فجأة ، بصوت ند عنه مرتفعا حادا كأنه لا يملكه ، كأنه بقية صراع طويل محتدم مكتوم :

ـ وماذا نصنع نحن الآن يا أبى ؟ نهاجر ونترك لهم البلد · أليس أمامنا ما نفعل الا الفرار ؟

فارتد اليه أبوه فى عنف ، ولكنه عنف تخالطه الرحمة والفهم :

ـ اخرس يا ولد ·· ماذا تقول ؟ ماذا نفعل ؟ اذا كانت العسكر والحامية قد تركت البلد ، ماذا نستطيع أن نفعل نحن الذين لم نحمل سلاحا ولا نفهم حرفة الحرب ؟

لكن الولد لم يخرس ، وغمغم بصوت خفيض لكنه ملح عنيد :

ـ نفعل الكثير ··· !

وكأنها كانت تلك هى اللحظة التى ينتظرها الفارس الغريب . والحل للمشكلة التى عرضت له ٠٠

وهو يتأمل الشاب بنظرة فاحصة جادة فيها شىء من اعجاب وشىء من تسلية ٠ ثم ناداه اليه ٠ وانتحى به جانبا ، ووضع ذراعه على كتفه ٠ وأتت الأم الجالسة الى جانب بحركة طفيفة كأنها تهم بأن تنهض لتلحق بولدها ٠ وقد أحست ببصيرة الأم أن ثم شيئا خطيرا يدبر ٠ والولد يصغى برأس منكس متقد العينين الى حديث الفارس الأسود ٠

ثم عادا ، وانحنى الفارس فقطع لقمة خبز غمسـها بالملح وقسمها قسمين وأكل هو والشاب فى رصانة وصمت ، كأنهما يؤديان طقوسا لها وقع فى النفس جليل ٠

عندما عادا كانت قافلة المهاجرين على الطـريق قد أخذت تخف صفوفها من جديد ، لم تبق منها الا جماعات متناثرة تتقدم متعثرة ، على سيقان مهدودة لا يدفعها الا التصميم ، ولم تعد فيها عافية ، كأن الأرجل تنزل وترتفع بحركة خاصة لا يحكمها الجسم بل تحفزها ارادة خفية عميقة لها قانونها الخاص الذى لا يرد ٠٠ وأخذت جماعات من على الشط تنهض وتلملم نفسـها لتستأنف السـير ٠

وقال الفارس وهو يحتبى فى جلسته ، متأملا رصين اللهجة :

ـ أتذكر المسألة التى عرضتها عليك يا شيخنا قبل أن نركب ؟ ودعوتى للنظر فيها ؟ هل رأيت فيها رأيا ؟ وهذا الفتى هنا وجد لها الجواب ٠ ليس المعول على الدول والسلاح بل على النية الصادقة والعزم الصحيح ٠

المعول على درع الايمان تدرأ القلب مهما كانت الملة والعقيدة، مادام الايمان مبرأ عن فساد الطوية يعتنق الخير ويعرف حق الأصل والوطن ، أنت ياشيخنا أحرى منى بالوعظ فلست بواعظ أنا ولا داعية ٠٠ وعندما عاهدتك على أن أعود الى دمياط ، ثم أعيدك اليه باذن الله ، لم أكن هازلا ٠ وما كنت لأحنث بعهدى ٠

والشيخ ترتفع فى صدره دفقة الفهم فيدفأ لها وينتعش ، وطريق الجهاد والقربى الى الله ينفتح أمامه فجأة ٠ وعم جبره الصباغ يقترب من الفهم أيضا ، وقلبه يخفق من الحب لولده والزهو به والاشفاق عليه معا ، ومن ارادة تتولد فى نفسه التى كربتها الهموم وتشعبها القلق ٠ واذ اشرق الفهم على الجماعة لم تعد ثم عقبة تستعصى على التذليل ٠ وقد انعقد الاتفاق فى هذه الجماعة الصغيرة ٠٠ وبدأت المقاومة ٠٠ وأكلوا الخبز والملح معا توثيقا للعهد ٠٠ والفارس الغريب ، دأبه دائما ، واسع الباع فى الحيلة والمكيدة ، وهو يأخذ زنار جبره فيلفه على وسطه :

ـ ما بك حاجة الى الزنار يا عم جبره ٠ فعلامة الصليب والوشم القبطى على ذراعك فيها الكفاية ٠٠ فاذا دخلنا دمياط منذ اليوم فأنا ابن خالك بطرس بن حنا العسال ٠٠ سمعتنى يا اسحاق يابن الخال : بطرس بن حنا العسال ٠٠ وبلدى « البرمون » وأنا بياع جبن وزبد وعسل ٠ ولى فى البرمون نحالة وتجارة ٠ هذا الشيخ عبد الله سوف يرسل الينا برسله ، باذن الله ، وندبر أمرنا ٠ لن نترك خبيئة فى معسكر الغزاة الا عرفها المعسكر المصرى ٠ ولن ندع للغزاة راحة ولا أمنا ٠ وانى لواثق من حيلة الشيخ واحكام تدبيره ٠ هيا بنا ، على خيرة الله ٠

وقد عرف الشيخ عبد الله دوره فى الجماعة الصغيرة ٠ فسوف يعبىء لها الرجال ، ويبعث بهم الى عقر حصن الاعداء بالسلاح والعتاد ٠

وصعدوا الى الطريق · وقد انعقد الاتفاق على أن تعود الأسرة ومعها الغريب ، ماشين · وعهد الى الشيخ بالحصان يركبه فى طريق جانبى ، وهو أعرف بالطرق والمسالك ، الى أشموم طناح ، حيث يتصل بمعسكر السلطان ، ويجند جماعة من المتطوعين ، ولعله أن يصبح حلقة الوصل بين حلقة الجهاد فى دمياط وبين المعسكر المصرى فى مقر السلطان · والأمر بعد ذلك كله موكول الى الملابسات وفى هذه الآونة المضطربة التى تموج بها البلاد بأصحاب النجدة لن يعدم الشيخ وسيلة الى غرضه ، بل سيكون عليه فى الغالب الأرجح ان يتحرى الدقة فى اختيار رجاله من بين الكثيرين ·

ربت الغريب عنق جواده الذى صهل كأنه يحس أنهما على وشك افتراق ، ثم دفع الى الشيخ كيسا تصلصل فيه النقود ، وهما يتبادلان النظر دون كلام · وركب الشيخ مطيته فى جهد بعد أن سلم على صديق طفولته وقد التقيا وافترقا فى ساعة واحدة ، كأن على الشيخ قدرا مفروضا يقضى عليه بالافتراق عمن يحب وما يحب · فراق عن دمياط فى الصبا ، عن الاسكندرية فى الرجولة ، عن تلك المرأة التى راعته وتركت فى نفسه شيئا ، عن خلانه وأصدقائه ، وعن أخيه ، عن جامع دمياط بعد طول حنين ، فراق مترادف الضربات · انما الوصل اليك يا كريم يا حبيب المفترقين والمغتربين ·· وأنت قوام رحيم ·

ومضى به الجواد وفى نفسه ثقل ، لكن فيها تشوفا وعزما · وعادت الجماعة الصغيرة تحث الخطى تتبعها المرأتان الى أسوار دمياط ·

وعندما اقتربوا من السور كان الظهر قد أوشك أن يعلو ، وطالعتهم أعمدة الدخان الكثيف من وراء الأسوار · وتطوف بذهن الغريب أمنية غامضة الحدود ، فات أوانها على أى حال ·· لو كان

بوسعى أن أشـــعل البلد كلها نارا ، لما وجد المغيرون فيها زادا ولا مأوى · لا بأس ، الخيرة فيما اختار الله · ولنا معهم شأن لم تبدأ أولى بوادره بعد · ليست حلبة القتال فى طول البلاد وعرضها ، داخل الأسوار وخارجها فحسب ، بل هى أيضا فى ارجاء النفس ، ساحات الارادة والاقدام والحيلة والجهاد ، ارجاء ليست فيها أسوار تؤخذ وذخائر تسلب ، فأسوارها دائما منيعة لا يضع عليها أجنبى يده ، وذخائرها لن تنفذ ، ولا يأتيها عدو الا من داخلها ومن جنودها وذلك تصده حصانة الايمان والعزم الصحيح ·

وعندما قاربوا الباب انقضــــت عليهم كوكبة من فرســـان الصليبيين شارعى الرماح ، لكن جبره واسحاق ومعهما الغريب ، وقفوا ثابتى الاقدام وفى غير تعجل ولا رجاء حسروا عن أذرعهم وكشفوا عن علامات الصليب ، ونظر قائد الفرسان الى الغريب نظرة شك قصير ، ولكنه اطمأن الى زناره المعقود ، وهى العلامة الدالة على ملته ، ومضى الفرسان عنهم ·

ودخلوا المدينة وشوارعها يتناثر فيها الحطام والانقاض ، ثم مرت بهم شراذم من فرسان الفرنسيين بين الحين والحين ، مسرعين، حتى اذا نفذوا من حارة البزازين الى قرب السوق فى طريقهم الى البيت اعترضهم سور من الفرسان الدارعين شـــاكى الســلاح ، متلاحمى الصفوف ، تحت راياتهم وأعلامهم ، يلمع الحديد عليهم لمعة شريرة · ووقفت الجماعة الصغيرة وفيها المرأتان ، خلف هذا الحاجز من الفرسان ، وقد أمتدت ساحة السوق أمامهم ، يرونها بين سيقان الخيل وجنوبها ·

دوت الطبول ونفخت الأبواق ، وســـرت موجة اهتزاز بين الفرسان · كانت فى قلوبهم غصة وفى أفواههم مرارة ، اذ رأوا ملك

الفرنسيين أشقر الشعر قصير الجدائل رقيق القامة ، طوالا ، حاسر الرأس فى مقدمة شعره صلع خفيف ، وعليه عباءة الحجاج الصوفية، وعلى عاتقه عروة طويلة تتدلى منها مخلاة ، وعلامة الصليب على صدره ٠ وحوله الحرس الراجلون يحملون الهراوات الغليظة ٠٠ والجنود يمشون بجوادى الملك والملكة ممسكين بالعنان ٠ والفرسان تومض دروعهم وتروسهم الملونة ، وتخفق فوقهم الاعلام ، وامام الملك يسير الأسقف الأشيب يحمل صليبا ضخما ، والراية الهائلة ترفرف وتصطفق فوق رؤوسهم ٠

والملك والملكة وحدهما وسط الموكب حاسرى الرأس حافيين يمشيان على تراب السوق ٠

كأنهما يفيان بنذر أو يمتازان عن سائر الحملة بهذا المظهر من مظاهر الخشوع والاتضاع ٠

ثم ترنيم موقع النغمات بلغة غريبة يتصاعد من صف الرهبان والقسس الذى يسير خلف الملك والملكة ويشـــترك فيه الفرســـان والجنود والملك وزوجته والموكب يموج بالترانيم وثيـــاب الكهنـة البيضاء الموشاة بالدانتلا وثياب الجنود الملونة ولمعان الحديد فى الدروع ، وفى وجوه الفرسان على جيادهم خشونة وقسوة جافية غليظة ٠

وفى الجماعة الصغيرة الواقفة خلف الفرسان فكرة تؤلف بين القلوب على اختلاف العقيدة وتباين الأصول وتغاير طبائع النفوس ٠ وفيها حرارة نكبة واحدة ومرارة غصة واحدة ٠

الفصل الحادى عشر

كان الشيخ عبد الله على جواده الذى يخطر بقوائمه الرشيقة السوداء على مهل ، فى الطريق أمام البيوت الطينية المنخفضة المكسورة الجناح على بحر اشموم ، ودكاكين الحدادين والنحاسين بمواقدها وتنانيرها ماتزال متقدة فى أول الليل .

وجماعات الفلاحين على أطراف البلد ، يجلسون على مصاطبهم المكشوفة أمام الدور ، تدور عليهم أقداح الشاى الصغيرة وهم يتحدثون فى جد واستغراق . وبعض النساء أيضا جالسات على أعتاب البيوت وراء البيبان وأطفالهن بين أيديهن يحبون ويدرجون على التراب ، أو يعكفون على لعب عالمهم الطفلى الخاص ، وسرب من الأوز يعود ملهوفا متأخرا من الغيطان ، يدف بأجنحته البيضاء ويزعق ويتنادى بالصياح كأنه لا يرى طريقه ، وبجوار المصاطب تقف الحمير العفر محنية رؤوسها الضخمة على العلف تجتر فى دعة . كل شىء هنا يوحى بالسلام والأمان . أى فرق بين هؤلاء الناس ، على مسيرة يوم واحد من الكارثة ، وبين المصائر الممزقة

التى جرفها أمامه طوفان الغزو الغاشم · هؤلاء الناس الطيبون وهذه الدواب والحيوانات الطيبة تعود الى دفء البيوت وكنها ، وتنال متعتها اليسيرة فى الشاى والعلف ، والأولاد تحبو على التراب وتلعب · وهناك سيول الآلاف المذعورة الهاربة التى عريت من كل دفء وأمن على الطريق المكشوف تحت سماء الليل التى تحمل اليهم أخطار ليلة أخرى ، وأهوال غارات العربان الذين لا يدينون الا بشريعة النهب والسلب يرونه حقا لهم مباحا كلما اضطرب حبل الأمور . الآلاف المؤلفة تنحدر فى أفق مائج مضــــطرب من الفزع والفجيعة ·

والشيخ يبحث بعينين عن خان يبيت فيه ليلته ويتدبر أمره · واذ رأى خيلا وبغالا مربوطة الى سككها الحديدية أمام باب مقوس كبير ، وجمالا منيخة قد أنزلت عنها أحمالها ، وقدورا ضــــخمة سوداء أمام الباب ، تغلى ولها نشيش يتصاعد منها ريح لحمة الرأس والاكارع ، والناس والخـــدم والعبيد الســــود يدخلون ويخرجون ، وجوار منقبات يهرولن بجنب الجدار ، تنهد فى راحة وتشوق للنوم كأن جوارحه كلها تصر وتئن طلبا للهجوع والنعاس والتمدد فى الفرش ، وقد أدرك نفسه يهوم ويخطفه النوم غرارا على سرجه فى الطريق حتى كاد يسقط ويتطرح من عليه لولا أن يقف به الجواد الأصيل فجأة كأنه ينبهه ، ولولا أن يدرك نفسه فى اللحظة الأخيرة قبل أن يقع ·

وخرجت من منعطف الطريق من وسط البلد كوكبة من الفرسان تتبع أميرا تبدو عليه المهابة ، عليه طيلســـــان باذخ يتموج حريره ويلمع فى وهج المشاعل التى يحملها عالية أمامه خدم سود يجرون حواليه ، ومعهم مقارع يفسحون له الطريق ، والوز يطير من تحت ســــيقان الخيل متناثرا يزعق فى فزع محتميا بالجدران وداخلا فى سيقان الحمير ووسط الجمال · وتنحى الشيخ بجواده ، فى صعوبة

الى جنب ، ووقف ، ونزل مســـرعا من على جواده حتى يعبر به موكب هذا الأمير ولكن الفارس ألقى اليه نظرة حادة فاحصة من تحت حاجبيه الكثيفين ، والتفت وراءه وشد عنان فرسه · وتبطىء الخيل وراءه وحواليه ، ويعود اليه الفارس ، يقصده · والى جواره فارس بدوى عليه عباءة بيضـــاء يحدجه بنظرة لامعة مستهترة وليس الفارس البدوى غريبا على الشيخ ، **فقد رآه فى مكان ما ، لكنه لا يحسن أن يتذكره الآن فى** روع المباغتة اذ أقبلت عليه هذه الكوكبة الحافلة من الفرسان والخدم ·

وصاح به الأمير من على جواده :

ـ أنت ياشيخ ·· تعال ·· أقبل ·· من أنت ؟ من أين تأتى ؟

فأجابه عبد الله وصوته خفيض بالرغم منه ، به حشـــرجة وغصة :

ـ من دمياط ياسيدى الأمير ·

وتبادل الأمير والفارس الاعرابى نظرة سريعة وسأله :

ـ أهذا هو الرجل ؟ والجواد ؟ يا أسامه ؟

فأجاب الفارس الاعرابى :

ـ ما فى ذلك شك · ألم تكن ياشيخ على طريق دمياط صباح اليوم ؟ ·

قال عبد الله فى شىء من كبرياء فطرية ، رغم المأزق الذى يحسه يضيق حوله :

ـ ذلك ما قلت الآن ·

وأشرقت فى ذهنه صورة فارس مر بهم فى الصباح · ألقى اليهم نظرة سريعة من فوق الطريق ، عندما كان يستريح بجانب الساقية القديمة · هو ذلك الفارس بعباءته البيضاء ·

وبدهة الأمير بسؤال مفاجىء حاسمٍ :

ــ وجوادك هذا الذى تمسكه ؟

وتردد الشيخ لحظة ثم قطع أمره فأجاب :

ــ نعم ·

وما كاد يلفظها حتى أشار الأمير بيده اشارة موجزة واذا بأحد جنده الراجلين يشد الشيخ بعنف ويسحبه وآخر ينتزع منه عنان الجواد ، ويعود الموكب دون أن يمضى الى غايته ، والشيخ يتعثر بين أيدى حرسه عبر الطرقات والشوارع المزدحمة فى أول الليل بالناس المسرعين الى بيوتهم ، وأبواب الحارات يقفلها العبيد وعلى رؤوسهم يقف العرفاء من داخل الأبواب · حتى وصلوا الى ساحة القصر الكبيرة التى تموج بالخيل تصـــهل وتقف وتدور ، والجمال قائمة وجاثمة فى مباركها ، والجنود والفرسان والناس تذهب وتجىء ، والمشاعل تتراقص فيها ألســـنة اللهب ، وتدخل الساحة بغال فارهة عليها شـــيوخ أجلاء وأعيان فى ملابس فخمة وعمائم كبيرة أمامهم الخدم والعبيد · والقصر يقظ بحياة ناشطة غريبة ·

ومر فارس طويل أسمر سقط عليه وهج المشاعل فأضاء وجهه ولمعت عينه التى تبدو فيها نقطة بيضاء ، لكنها تبرق بنظرة متأججة منبعثة من نار داخلية أخرى لاتنى جذوتها ملتهبة أبدا لا تهمد · وهتف به الأمير :

– ماذا جرى يا بيبرس ؟ ما الخبر ؟

فصاح به الفارس الأسمر :

– وصل قلاوون الآن ومعه رســــالة ملك الفرنج · ودعا السلطان الى عقد المجلس فى التو والساعة ، فاعجل سوف ينزل بعد لحظة ·

وعندما أوشك بيبرس أن ينطلق ، هتف به الأمير :

– ولك عندى خبر يهمك ياخشداش

فاستدار بيبرس بجواده قليلا ، وقد أخذ لما تحمل لهجة زميله من جد وخطر :

– وما ذاك ؟

– تذكر الرجل الأسود الذى خرجت تتعقبه فلم تعثر له على أثر ؟ كانت لى معه حكاية وخبر يطول · هذا جواده الأسود الذى تراه · امسكنا به مع هذا الدرويش ذى الجوخة الزرقاء ولا شك عندى أنه سيأتينا بالخبر اليقين ·

فتفحص بيبرس الشيخ بنظرة متأملة نافذة :

– نعم ·· نعم يا أقطاى ·· هذا خبر لهخطره ·· ننظر فيه معا بعد المجلس ·· بعد المجلس ·· فأنا الآن على عجل ·

ونخس جواده فانطلق من الساحة يعدو ·

وذهب بالشيخ الى جناح على يسار الساحة وادخل حجرة طويلة ضيقة حارة مزدحمة بالجند الواقفين والجالسين والمتمددين على دكك مرصـــوصة تحت الجدران تفوح منهم رائحة نفاذة من العرق · وعلى الحيطان مسارج من الزيت مدخنة ، والجند يضجون

بالكلام التركى والكردى والعربى معا ويشربون نبيذا خشنا أحمر فى أقداح من الفخار ، وقد تحلق بعضهم على الأرض يلعبون النرد وتمدد بعضهم على الدكك بنعالهم تفوح منها رائحة الروث والطين ، والسيوف تصلصل وترتطم . وهناك على الباب أكوام من الدروع تقرقع وترن اذ يصطدم بها أحد الداخلين فيلقى عليها درعه . وجنبها أكوام أخرى من الجعاب تملؤها النشاب والسهام المريشة ، وتبدو رؤوسها شائكة متشابكة حادة السنان توحى بطعنة الفزع . ودفع بالشـــيخ الى جنب الجدار فى الحجرة الغائمة بدخان المســـارج المتجاوبة بالصيحات واللغط والهتاف وشـــخير النائمين . وجلس الشيخ القرفصاء على بساط خشن من الصوف على الأرض ، وقد تمالك جأشه بعد روعة القبض عليه ، وأخرج مســـبحته ،وقد ثقل رأسه وتفترت أوصاله ، وراح يساقط حباتها بين يديه ، يتلو أدعيته واستغاثاته ، ساكن القلب ، مسلما أمره جميعا لله .

عندما دخل أقطاى الى قاعة المجلس كانت القناديل كلهـــا مشتعلة والأنوار تغمر الأبســـطة والجدران بضوئها الثابت المتقد الاصفرار ، ولم يكن الاستادار قد أذن فى الدخول الى القاعة بعد ، ولا السلطان قد وصل . ولكنه قد رأى مماليك حلقة السلطان تقف فى حلقات محتشدة تتحدث بصوت جاد خفيض مشـــحون بالترقب والانفعال الحبيس . ودخل بيبرس من باب القاعة الخلفى يمد خطاه حثيثا ، متقلدا درعه وسلاحه ، وعلى وجهه الأسمر توتر ، واتجه مباشرة الى أقطاى وأمسك بذراعه وانتحى به جانبا وهو يمضى معه الى أيبك ، وسنقر ، ويبحث بعينيه عن قلاوون ولا يجده فى القاعة .

كان قلاوون قد وصل منذ قليل برسالة ملك الفرنسيين ، ومنذ الظهر كان الأمير فخر الدين ومعه قادة معســـكر دمياط وأمراء الكنانية قد أخذوا يفدون الى أشموم طناح ، وســـبقتهم البطائق

يحملها الحمام بأخبار الهزيمة ، والقصر كله يموج ويهدر بالنبأ المروع . والطواشى جمال الدين محسن يدخل على السلطان ويخرج صامتا ، متجهما بوجهه السمين ، يمسح عرقه بمنديله الحريرى الكبير ولا يفتح فمه الطرى الا بأوامر قاطعة موجزة ، بصـــوته الرفيع . وعندما تكامل وصول الامراء قرابة العصر صدرت أوامر السلطان بعقد المجلس عقب صلاة العشاء . وكان ذلك وحده ينبىء بجلال الأمر وروعته ، فما كان مجلس السلطان ينعقد قط فى المساء . وكأن الملك الصالح قد أعجلته الملمة حتى ما عاد يصبر لها حتى النهار . وقادة المماليك الأربعة يحملون فى نفوسهم هذا الجو الملبد الكثيف بالغيم ، ولكن بيبرس اذ دعاهم وانتحى بهم جانبا انما يلوح عليه أنه يعرف أكثر من ذلك كله . وهو يدير بصره فى زملائه ، ومجرد اختياره لهم وحدهم ، أمر ناطق بالدلالة . فهم الأربعـــة الموكول اليهم أن يذودوا عن شخص مولاهم وأستاذهم ، وهم وحدهم الذين يحملون السلاح فى محضره ، ويدخلون به اليه ولو كان عند حريمه . وضع السلطان فيهم ثقته الكاملة ، وعهد اليهم بحياطة شخصه والكلاءة عنه .

قال بيبرس هامسا ، جادا ، يغرس نظره فى عيونهم الواحد بعد الآخر ، بعينين كالسيوف :

ــ ياخشداشية . سوف تضرب طبول السلطان بعد لحظة ويؤذن بالدخول عليه . وعساكم عرفتم كيف غضـــب السلطان واحداتم سورته . وعساكم تبينتم حال الأمراء وما تجيش به الصدور . **ليس لى عندكم الا مسألة واحدة :** هل تقف قواتكم على أهبة ؟

وتردد قادة حرس السلطان لحظة ، وقد سطع فى أذهانهم خطر الموقف وترددت العبارات الســـريعة ، وأحسوا نفوسهم جميعا تهتز وتمور كما لو كانوا فى فجر معركة . ولكن الأيدى ثابتة والكلمات حاسمة .

وتفرق الأمراء الأربعة ، لم تدق طبولهم ولا رفعت أعلامهم عندما تجمع فرسانهم فى عتمة حوش القصـــر الداخلى ، دارعين شاكى السلاح على خيلهم ، اتخذوا مواقعهم أمام الباب الخلفى · لم يستغرق ذلك الا لحظة يسيرة واذا هم جميعا على أهبة اقتحام القاعة دفاعا عن السلطان لو لاحت بادرة خطر من أمراء المعسكر المنهزم ·

اما الســـاحة الخارجية فقد امتلأت بجنود دمياط وأمرائهم وعرب كنانة · أجهدتهم مسيرة الليل والنهار بطولهما ، متفرقين يلغطون . وقد ثارت نفوسهم لما سمعوا من غضبة السلطان عليهم . وثارت أيضا لما يحسونه من مرارة الاندحار وغيظ الكسرة ، وسرت فيهم مع ذلك أمواج متعاقبة من خوف سطوة السلطان ، والأمل فى عفوه ، والاجســـام مهدودة لكنها مشـدودة بالقلق كأنها جميعا صهريج من النفط السائل المهتز الدفقات ، قد يشتعل كله فجأة من شرارة واحدة ، أو ينسرب على الأرض من غير أذى ، كيفما اقتضت الحال ·

وقد وصل القضاة والفقهاء والكتاب يســـلكون طريقهم بين الجند المضـــطرب الصـــفوف ، بعمائمهم البيض الرقيقة الكبار ، وشيلانهم وطيالسهم وفرجياتهم الملسة الناعمة ، ووقفت ركائبهم أمام الأحواض ونزلوا يدخلون القصر ويتجمعون واقفين بالقاعة الخارجية الفسيحة ، حيث كان فخر الدين ومعه عدة من أمراء دمياط وشيوخ الكنانية لم يتخلوا بعد عن سلاحهم ·

واصطف دون الباب صفان من مماليك حلقة الســلطان ممن ينتمون الى امرة قادة حرسه الأربعة معا ، وعليهم زين الدين أمير جاندار ، وقد لبس زرديته وخوذته وأمسك برمحه ، ووقف دون

الباب جهم الوجه لا ينطق بكلمة وان كان ساكن الروع متملكا زمام نفسه ٠

وفجأة دوت دقات طبل السلطان ونفخت أبواقه ، وخفت هدير الحديث وموجه الى همهمة خفيضة وظهر صوت احتكاك النعال بالأرض وصلصلة السلاح بين الحين والحين ٠ وفى حركة عسكرية بارعة سريعة منتظمة وجد المنتظرون بالباب أنفسهم محاطين ، فى غير ضجة ولا تقحم ، بصفين من الجنود المسلحين الصامتين ، وقفوا بعيدا عنهم بحذاء الجدران ٠ فليس فى حركتهم أدنى استفزاز ولا تهجم ، ولكن فيها نذيرا خفيا ودلالة على الأهبة الكاملة ٠

وخرج استادار السلطان ووراءه خادمه الحبشى المتين البنيان ، لا تغطى صدره الوثيق الضخم الا دراعة قصيرة ، ففتح مصراعى الباب الكبير وأزاح بيده شقى الستارة ، وبدت القاعة الفسيحة متقدة بأنوار القناديل عبقة بالمباخر ، هادئة مهيبة ٠ ومماليك السلطان من غير سلاح يقفون عن يمين وعن يسار ٠ والسلطان قد استراح على ايوانه ، نصف مضجع على مرفقه الأيسر ،وعيناه العابستان منذرتان ، لكنهما تنمان عن ضبط للنفس وتحكم فى هواها ، وتحت الايوان وقف خاصة مماليكه ، الأربعة المشهورون ، أيديهم على قبضات سيوفهم ، وعيونهم ثابتة كأنهم لا يرون شيئا ، وانما عيونهم فى واقع الأمر لا يفلت منها شىء اذ يدخل الأمراء أولا ثم القضاة والفقهاء والكتاب ، وقد خلعوا النعال، وتسرى فى القاعة همهمة السلام والانحناء وحفيف الثياب ، وتأتى من وراء الباب صلصلة السلاح يتركه أمراء الجند قبل الدخول ٠

واستقر جلساء السلطان وفيهم الشيخ نجم الدين البادرائى رسول الخليفة المستعصم ، والقاضى بدر الدين السنجارى ، والصاحب فخر الدين ابراهيم بن لقمان ، والقاضى جمال الدين

يحيى ، والصحاب جمال الدين بن مطروح ، ومنهم أيضا الشيخ عز الدين بن عبد السلام والشيخ تاج الدين بن بنت الأعز ومعهم الطبيب أبو حليقة والطبيب أحمد بن أبى صبيعة ، وعدد من الكتاب والشيوخ بعضهم قدم من القاهرة ، بدعوة من السلطان ، وعلى رأسهم الصاحب بهاء الدين زهير ٠

وتقدم قلاوون برسالة فسلمها مختومة الى الصاحب بهاء الدين زهير الذى كان يجلس الى يمين السلطان ، وعليه عمامة شرب رقيقة سحابية اللون عالية مركومة وبردة بيضاء برسوم موشاة ، فوقها طيلسان حريرى شفاف ينسدل حواليه كماء الذهب ٠

وسادت المجلس رهبة الصمت والترقب ٠ وحبست الأنفاس . وسمعت لفض ختم الرسالة فرقعة ، ولأوراقها خشخشة واضحة فى السكون المطبق ٠ ووجد البهاء زهير الرسالة مكتوبة بالنصين الفرنسى والعربى ، وأخذ يقرأ بصوته الموسيقى ، وفيه غنة خفيفة ، قراءة شاعر فقيه بلغته :

« باسم الآب والأبن والروح القدس ، أقانيم ثلاثة من جوهر واحد ، وباسم اللاهوت الحال فى الناسوت ، وباسم الانجيل والصليب المقدس ، والسيدة مريم العذراء أم النور »

واستدرك البهاء بصوت جلى :

– استغفر الله العظيم

وارتفعت همهمة الاستغفار والاستنكار

فبادره السلطان بصوت آمر :

– أكمل يا بهاء الدين

فقال البهاء يقرأ فى السكوت الذى عاد يخيم على القاعة الفسيحة الممتلئة بأكابر الدولة :

« أما بعد ، فانه لم يخف عليك أننى أمين الأمة العيسوية ، كما أنى أقول انك أمين الأمة المحمدية · وأنه غير خاف عنك أن أهل جزائر الاندلس يحملون الينا الأموال والهدايا ، ونحن نسوقهم سوق البقر ، ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء ، ونستأسر البنات والصبيان ، ونخلى منهم الديار ·· »

واهتز صوت البهاء وهو يقرأ ، ومثلت فى المجلس كله صورة النكبة التى يزهى بها لويس فى كتابه · الديار الموحشة والبنات والصبيان ترسف فى أصفادها ، وتساق سوق الانعام ، والقتلى والثكالى وخراب الديار · وقد اختلط المشهد الفاجع الفسيح بروعته ، وأنقاض البيوت ، ومواكب المهاجرين ، وغيامة الذلة والكارثة ، حتى لم يعد أحد يتبين أهو فى الاندلس أم فى دلتا مصر أو سهول الشام ، وما عاد أحد يتبين هل الثكالى والأسيرات فيهن أمه وأهله أو نساء من أهله أيضا أم هن فى ديار المغرب البعيدة ··

وأخذ المشهد على السلطان قلبه ، وهو يسمع كلمات متهددة تتردد فيها أصداء الكبر والصلف ، حتى انتهى البهاء الى قوله :

ـ « وحذرتك من عساكر قد حضرت فى طاعتى ، تملأ السهل والجبل ، وعددهم كعدد الحصى ، وهم مرسلون اليك بأسياف القضا » ·

وطوى البهاء الرسالة ، ومدها الى الطواشى جمال الدين محسن الواقف بجانبه فأخذها فى صمت ·

كان السلطان يسمع الرسالة ونفسه تفيض بالمرارة لهزيمة جنده بالأمس ، وتدفقها على البلاد منهزمة ، وسقوط حصن دمياط الجليل ، وهجرة أهلها التعساء ، وما لاقوه من عنت وأهوال ٠

لم يألف أن يسمع أخبار الهزيمة وهو قاعد ٠ ولولا انخذال قوته وانفضاض منته ما كان يسمع الآن أنباء الشؤم وهو مضطجع على سريره ، بل على صهوة جواده ، على رأس الجمع الغفير من جنده ٠ لكم تمنى على الله أن يموت فى ساحة القتال اذا حم الأجل ، أن يكون قبره بطون الضوارى والسباع ، فى سبيل الجهاد وها هو ذا مهدوم مفتت القوى ٠ جسمه قد خانه وجنده قد خذله ، ولعل المنية توافيه هنا على فراشه والأمر لله من قبل ومن بعد ٠

وفى الصمت الرازح لا يقطعه الا صوت اتقاد الزيت فى القناديل واحتراق البخور فى المجامر ، والعيون كلها معلقة بالسلطان ، وهذه الصـــدور الكثيرة تجيش بالهيبة والقلق والخوف والطمع والحب والولاء وطلب الأمن والسلامة وخشية المصير ، أخذت العيون بلمعان الدموع تغرورق بها عينا السلطان ولا تنحدر ، وســـمعوه يقول بصوت خفيض ولكنه غير مكسور :

ـ انا لله وانا اليه راجعون ٠

وتقلب فى القاعة هدير من الاســـترجاع يتكســـر عند قدمى السلطان :

ـ ولا حول ولا قوة الا بالله ٠

ولكن السلطان يرفع يده باشارة واهنة وحاسمة معا ، فتخشع

الأبصار ، ويعود الهدير الى سكون . والصوت الخفيض يعلو الايوان ، وتمتلىء جنباته :

ـ أكتب لهم يا بهاء الدين . أجب على كلمات كفرهم بكلمات الايمان . ولا يرعك تهديدهم فانه لا يروعنا والله . ذكرهم بما فتحنا فيهم بالحق وأذقناهم من حربنا ونكالنا ، وما ضربناه من ديارهم وحصونهم دفعا لبغيهم وعدوانهم . واذكر من الآى الكريم : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله . والله مع الصابرين » .

وقد جفت عن قلبه الدموع . وخلفت فيه وقدة الحنق والغضب وكبرياء التحدى .

الفصل الثانى عشر

التفت السلطان أهون التفاته الى استداره ، وقال بلهجة مكبوحة من الغضب المكتوم فى قلبه :

ـ يا جمال الدين · أدع الى فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ·

واذ مثل أمامه الشيخ فخر الدين الايوبى ، قائم العود ، غير منكس الرأس ، نظر اليه السلطان فى قطوب · هذا عمه بالرضاع · وموضع ثقته · هو أيضا نكل عن الوفاء بالعهد وانهزم · **ولم يجب السلطان على سلام الأمير ، بل بادره بصوت متألم فجأة ، وقد هزه سعال جاف متقطع :**

ـ يا يوسف ·· أما قدرتم تقفون ساعة بين يدى الفرنج ؟ هذا ولم ينشب بينكم قتال ، وما قتل منكم الا هذا الضيف الشيخ نجم الدين ؟ وما كانت تعوزكم العدة والعديد من الرجال ، والجليل من آلة الحرب والحصن المكين ؟ لا ·· لا يافخر الدين ·· لسنا بموضع الحساب ولا الاعتذار ولولا ان لك عندى حرمة ··

ولم يكمل السلطان ، واستغرقه السعال الجاف ، وقال :

ـ لك الأذن بالانصراف ٠

فاتجه الأمير فخر الدين الى الباب ، ومازال رافع الرأس وخرج وقد تزايل حسه بكل شىء ، وفى غور خفى من نفسه روع ومباغتة ، وذهنه غير صاف ، وكأنه لا يصدق بالنجاة ٠ لكن بيبرس لم يغفل عن نظرة خاطفة ألقاها الى امراء عسكره ٠ وقد تحفز الأمراء فى جلستهم ٠ ولم يتحرك مماليك السلطان فى وقفتهم حواليه، وظلوا ثابتين ساكنين ، ولكنهم مرة واحدة شدوا من قاماتهم فقط ٠ لم يفعلوا أكثر من أن تصلبت أعواد أجسامهم المفتولة ، فى مواقعها لم يختلج فيها عضو ، لكن صفهم بدا كأنه سور منيع قام فجأة ، وجدار حصين لا يرد كل غائلة فحسب ، بل تستكن خلفه نذر مخوفة ٠

أحس السلطان بنفحة التمرد التى ما كادت تهب فى المجلس حتى انطفأت ، كلفحة هواء بارد صدتها عنه جدران حرسه ٠ منذ أن اصابه المرض كانت بصيرته قد رقت وصفت ، حتى لتهتز أوتار نفسه لأهون ريح يهب عليه من الخارج أو من داخلها ٠ وهو الآن لم يعد يشعر بألم من جراحه ، ولا بالورم بين ساقيه ، بل سخونة العزم على الانتقام لما نال كبرياءه ، وكبرياء البلد ، من جراح ٠ وقال بصوت جلى هادىء حصين :

ـ الى بالفقهاء ٠

فمثل بين يديه القضاة والفقهاء من جلسائه ٠

ورد عليهم السلطان السلام ثم سألهم :

ـ ما رأيكم يا أشياخنا فيمن ينخذل عن ملاقاة العدو اذ يطرق الديار ؟ ويهرب بنفسه ويخلى الثغور للغزاة وفيها الحصون والعدد

الكثيرة ؟ هذا ولم يكن يعدم السلاح ولا الأجناد ؟ فتواكم يا أسيادنا مطلوبة الآن ٠

كان السـؤال صـريحا لا يحتمل اختلاف الفتوى ٠ ولاح السلطان العابس ، خافض الرأس ، على عرشه ، كأنه ينطق بصوت القضاء منذ الآن ، ولا يسأل ، وكأنه لم يعد رجلا مريضا مسلولا ، بل برجا سامقا لا ينال منه شىء ٠

وقد تقبضت قلوب أمراء المعسـكر المندحر جميعا ، وأحدق بهم ٠ وأحسوا ساعتهم قد دنت ٠

واتفقت كلمة الفقهاء ٠ وأشار السـلطان بيده ٠ ولم يكمل اشارته حتى كان الباب الخلفى ينفتح عن صف طويل من الحرس المسـلحين المدرعين ، أحاطوا بالقاعة كلها فى نظـام كامل ، وجد صامت ، كأنهم لا يعنيهم شىء ، ووقفوا دون الباب ٠ كان لأخفافهم وقع رتيب ٠ والعيون معلقة بهم ٠ والأوصال جميعا قد تجمدت ٠ **وفى القاعة التى جمدت وتحجرت اشرأبت الأنفاس المحبوسة وارتفع صوت السلطان يقطع آخر أوتار الأمل الواهى :**

ـ فليشنق خمسون أميرا من امراء الكنانية من حامية دمياط ويعلقوا على المشانق بين القاهرة وبلبيس ٠ يا جمال الدين الى بالاسماء والختم ٠ فلن انهض من هذا المجلس حتى يخرج التوقيع بالأسماء ٠

كان الرعب سـحابة سوداء حطت على القاعة ، والأنوار الصفراء المتقدة تسقط على وجوه غاضت منها الدماء ، والحرس شاكى السلاح محدقين ، كالحلقة الصلبة ، قد انطبقت ليس فيها ثغرة ٠

وقرأ جمال الدين الاسماء بصوت رتيب ملول دسم النبرات ٠ واذ فرغ من القراءة كان الجميع قد هبوا وقوفا ، ودبت فى القاعة حركة مضطربة فزعة ٠ وتقدم قادة المماليك خلف صاحب ديوان الجيش ، وانفرق الجمع قسمين ٠ وأحاط الجند بأحد الفريقين الى يسار القاعة ٠

وتقدم أمير من الاعراب تعلو قامته الرجال ٠ وصاح فى وسط الضجيج :

ــ أعز الله مولانا السلطان ٠ ما ذنبنا نحن اذا كانت عساكر السلطان جميعهم وامراؤه قد هربوا ، وأحرقوا الزردخاناه ، فأى شىء نعمل نحن ؟

قال السلطان بصوت متعب فجأة ، كأنما يثقله القضاء الذى أصدره :

ــ لكونكم قد خرجتم من المدينة بغير اذن ٠ وتخليتم عنها ٠ وليس عندى بعد هذا كلام ٠٠

واندفع شيخ جليل من أمراء العرب ، حتى اصطدم بظهور الجنود ورفع يديه وهو يهتف بصوت شيخ ناضج عرك الحياة ، ليس فيه رعشة ، بل يعلو راسخا وطيدا ، فتخفت الأصوات وهو يقول :

ــ مولاى السلطان ٠٠ أبقاك الله ٠٠ !

وفى يده فتى وسيم طوال ، كأنه صـــورة منه غضــة ريانة بالشباب ، عليه ثياب بيضاء نفيسة ، متوتر الشفتين ، لم يكد يطر شـــاربه وتبزغ له لحية ، وتحت عقاله ندى من العــرق يلمع ٠ **وارتفع صوت الشيخ فى السكون المفاجىء :**

ـ مولاى السلطان · لست أطمع فى عفو ولا أتقدم باعتذار · ليس عندى الا رجاء من يلقى ربه منذ الغد ويلقى جزاءه ، ان خيرا وان شرا · بالله اشنقونى قبل ابنى ·

نظر اليه الملك الصالح من فوق رؤوس الحرس ، ولم يفكر ، بل خرجت الكلمات من غور الغضب والتعب ، هوة سحيقة يصدر عنها صوتها الخاص :

ـ بل اشنقوه قبل أبيه ·

وأشار · فنفخت الأبواق ودقت الطبول · وانفتح الباب بين صفين من الجنود · وخرج القضاة والفقهاء والكتاب ، وأمراء العسكر الذين نجوا من المحنة · وضاقت حلقة الحرس حول المحكوم عليهم ·

وأحاط قادة الحرس الأربعة بالسلطان عندما خرج على كرسيه الوثير الناعم المساند ·

كانت الحجرة الطويلة الضيقة التى غام جوها بدخان المسارج ورائحة الزيت الخسيس المتقد ، ورائحة الدفر من ثياب الجنود وعرقهم ونعالهم ، قد خلت فجأة من الجنود الذين أقبل اليهم أحد القراغلامية فدعاهم للخروج الى الساحة الداخلية · وهب النائمون يتمطون ويشدون أذرعهم وينفخون صدورهم وينفخون أيضا من الضجر والعودة للخدمة فى الليل · لكنهم بعد لحظة يسيرة كانوا قد أتخذوا أهبتهم ، ولمعوا نعالهم ، وتقلدوا سيوفهم ، وأحكموا ثيابهم · وهب الفرسان منهم الى الخيل وتدفق الرجالة صفوفا وراءهم ، ولم يبق فى الحجرة الا ذلك النفر من حرس فارس الدين أقطاى الموكل بالشيخ ، راحوا يلعبون النرد على دكة قريبا من الشيخ ، لا يكادون ينظرون اليه ، من غير اهتمام بأمره · دخل

أحدهم من الخارج وفك عروة قبائه ، وخلع طاقيته الصـــفراء من رأسه فانسدل شعره الأسود على صفحتى وجهه وانحط الرجل على البساط الخشن أمام الشيخ وهو يتمشى بأصابعه فى لحيته الكثة · ويزيح عن صدره أنة راحة عميقة ، ويتمتم كأنه يخاطب الشيخ ، أو يخاطب سقف الحجرة الذى تمتد اليه من الجدار خيوط سوداء مضطربة من هباب المسارج ، قائلا بصوت غليظ :

ـ أف ·· الدنيا حر ·

فتفوح من فمه رائحة الثوم ، وهو يمد جسمه على البساط ويضع رأسه على ذراعه ، ويغمض عينيه فيروح فى النوم ، ويعلو عنه على الفور غطيط يصفر ويتحشرج · ويصمت ثم يعود فى وقع رتيب للصفير والحشرجة والشهيق ·

كان الشيخ فى مأزق بلا شك · وقد التقط من حديث الفارسين فى الشارع ، وفى الساحة ، ما يكفيه لأن يدرك أن خطرا مجهولا يحوم الآن حياله ويتهدده · وما يدريه ماذا فعل هذا الغريب الأسود الملبس الذى رفض أن يتسمى وأن ينتسب · ما شأنه وهذا الفارس الخطير من فرسان السلطان ؟ والبدوى الجرىء النظرة ، والأمير الآخر ذى العيون الزرق ؟ وكيف سيقول ؟ وكيف يدبر أمره ويفى بعهده ويمضى عزمه على الجهاد ؟ وهذه الجماعة الصغيرة فى عقر حصن العدو ، عليه اعتمادها فى النجاة وفى النهوض بما أخذت على عاتقها من عبء جليل · وهو وحده الآن بمثابة الحبل السرى الذى يربطها بالوطن الأم ، وهم فى أيدى الاعداء · لكن الأمور مرهونة بأوقاتها يا عبد الله · والله هو المدبر الحكيم ·

سوف يفتح الله عليه ، بشفاعة رسوله وأوليائه ، بما يقول ويدبر · يا من له ما فى السموات والأرض ، واذا قضى أمرا فانما

يقول له كن فيكون · يامن يحب التوابين · يا حى ياقيوم · يامن استوى على العرش العظيم · يامن انزل الكتاب مصداقا وانزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس · لا اله الا هو ، هو العزيز العليم · اللهم اهدنى الى الصراط السواء المستقيم ·

وقد سبح الشيخ فى نغم الدعاء الخافت الرتيب ، وذهل عما حواليه فى حميا الذكر والدعاء ·

وسمع الشيخ فى دعائه صوتا عذبا يأتيه من أعلى الحجرة فى رفق وتلطف وحلاوة مدخل الى القلب :

ـ ابشـــــر يا عبد الله ولا ترع · فانك لواف بالعهد وقائم بالامانة ان شاء الله ·

ورفع الشيخ بصره فاذا بجواد أبيض دقيق السيقان عريض الصدر ينهض برأسه فى شموخ ، وعليه رجل جليل أبيض اللحية أبيض العمامة أبيض الوجه كاللبن الحليب ، فى ثياب سابغة بيض من الصوف الرقيق · والجواد ينزل من سقف الحجرة ، يشقه فى لين من غير صوت ، كأنه سحابة من بخار متطاير القوام لكنه ثابت · والسماء تبدو من شق السقف حريرية انتثرت فيها النجوم بنور أزرق ناعم · وأخشاب السقف مازالت متينة مدخنة ســـوداء من الهباب · لكن الجواد وراكبه الجليل ينفذ منها ، لا تعوقه ولا تحتجزه ونزل الجواد من عل ، يرفع قوائمه ويحطها فى دقة ورشاقة ، كأنه ينحدر على سطح أكمة ذات حصى ، والراكب الأبيض يبتسم للشيخ فيضوء العالم كله بنور لم ير له الشيخ مثيلا قط · نور ســــاطع جميل لا يبهر العين بل تنفسح له آفاق البصر وتجلو وتزدهر ·· والجواد الأبيض ينزل ويقف فتستقر قوائمه على الجندى النائم تنفذ فى جسمه ويلوح البساط تحتها وتحت النائم الذى خفت صـــوت غطيطه ولكنه مازال منتظما فى نومته العميقة · وذنب الجواد يهتز

شعره الحريرى الأبيض فيمس وجوه اللاعبين بالنرد ، وهم عاكفون على لعبهم ، يحلف أحدهم بأغلظ الايمان ويأتى صوته كأنه من وراء جدار بعيد ، ويشور بيديه فتخترقان جنب الحصـــان الأبيض ٠ والشيخ يرى كل شىء بعينيه المفتوحتين ، لا ريب ولا شبهة ٠ ويدور الجواد الأبيض فى الغرفة الضيقة ، لا تحجزه الحيطان ، ولا يضيق بالدكك الممدودة ولا بالناس ، وراكبه يبتسم للشيخ ويمد يده فيمسح على وجهه ، وريح طيبة عبقة كأنها ريح الجنة تهب على وجهه الساخن فيبترد وينشق نسيمها الحلو الرطيب ٠ وثم ألحان عذبة بعيدة مرجعة كأنها ترانيم الملائكة وتسابيح الشهداء المرضيين حول العرش العظيم ٠ **وراكب الجواد الأبيض يقول بصـــوته الرخيم ويكرر :**

ــ ابشر يا عبد الله ٠٠ لا ترع ٠٠ فانك لواف بالعهد وقائم بالامانة ان شاء الله ٠

ولا يملك الشيخ جوابا ، فانه فى جلسته على الدكة الخشبية ، يحس أحجار الحائط الخشنة بازاء ظهره ، وقد خفت أوصـــال جسمه كلها وهانت وما عاد يحس لها ثقلا ولا مادة ، يســـتشعر السلام العميق وسكينة الروح لا تحدها حدود ٠ واللحظة التى تمر به الآن أبد متطاول لا يعرف الزمن ، أبد من نعمة الله وحلاوة رضاه والقربى اليه والى أوليائه والاســـترواح بروح محبته ٠ والجواد يصهل فجأة صهيلا طويلا مرجع الرنين كأن مابه هو الحنين الى مغانيه ومسارحه العلوية ، ويدور فيصعد وهو يخب على سطح الكمته ، بقوائمه الرشيقة ، وينشق السقف وينفسح عن الســـماء الزرقاء ذات النجوم ٠

وقد جمدت يد الشيخ على مسبحته ، وسطع وجهه بنور باهر، وثبتت عيناه وأضـــاءتا بذلك النور الذى مس الكون كله وغمره بسناه ٠

وحانت من الجندى الذى يلعب ويحلف بجواره نظرة اليه ، فاسقط النرد من يديه ، وحدق اليه مبغوتا · كان النور ينسكب حقا من محيا الشيخ ·وقد غاضت منه الدماء وأصبح وجهه كالشمع بياضا وقرص القمر ضياء وعيناه قد لمعتا بدمع مرقرق كأمواج البلور ، والتفت اليه الجنـــود وقد بدهتهم وقفة زميلهم ، وهبوا واقفين فعلقت أبصارهم بالشيخ ، وفى قلوبهم الغليظة فجأة مس الروع والرقة ، وحس عميق بالمعجزة · كان مرأى الشيخ وحده كافيا لأن يلهمهم باقتناع كامل وطيد وايمان لا يتزلزل بما رأى وما سوف يقول · ونهض الجندى النائم يفرك عينيه ويدمدم فى ضيق زلم يصح بعد · كأنما نبهه السكون المفاجىء ·

وقال الشيخ وصوته يأتى من آفاق داخلية فسيحة منيرة ، كأنه لا يملك الا ان يقول :

ـ الحمد لله ·· الحمد لله ·· راكب أبيض الوجه والملبس ، على جواد أبيض كاللبن الحليب رأيته ·· مسح بيده على وجهى فمسنى ريح الجنة · وقال : ابشر يا عبد الله ولا ترع ·· الحمد لله · الحمد لله ··

فأكب الجندى الغليظ الصاحى من النوم على يد الشيخ يقبلها ، وازدحم حوله زملاؤه يقبلون يده فى اجلال مرتاع ، وهو يسحبها منهم ، لايراهم ولا يرى شيئا بعد ، ومايزال وجهه ينســـكب منه النور · وانطلق الجندى المتين يهرول الى الخارج ، **يمد ذراعيه ويهتف :**

ـ كرامة لله · كرامة لله ·· رؤيا ·· الشيخ رأى رؤيا ·· جواد أبيض نزل من الســـماء ·· الحمد لله ·· النصـــر لجنود السلطان ·· النصر لجنود السلطان ·

وفى لمح البصر احتشدت الغرفة الضيقة بالجند والخدم والسواس والعبيد والفرسان ، وارتفع فيها لغط الدعاء والثناء والتبرك ، وهمهمة الحديث · وسرت القصة فى ساحة القصر مسرى النار وخرجت الى الشارع واندلعت فى المدينة · والتفت حول الباب حلقة كثيفة من الجند والخدم ومماليك السلطان وفرسانه · كلهم سواء · يشورون ويضحكون ويقصون القصة من جديد ·· وعندما دوى الطبل ونفخت الأبواق وخرج السلطان راجعا الى باب الحريم على كرسيه يحمله العبيد ، أقبل فارس الدين أقطاى على الفور ومعه ركن الدين بيبرس ، وأسامه الذى كناه أقطاى بصقر الدين ، فانشق الناس يفسحون لهم الطريق ، وران صمت قلق مهتز بالدمدمة · ومضى الفرسان الثلاثة المسلحون الى الشيخ ، وسط هذه الحلقة المتلاحمة من الناس · وقد التقطت آذانهم دون أن يسألوا ، قصة الشيخ وكرامته · فلم يتكلموا وانما انعقدت وجوههم فى عبوس جاد · وهمهمة الناس المتهددة تحيط بهم · وقد مسهم أيضا احساس غامض من الروع والمهابة ، وما عاد بوسعهم ان يمسوا الشيخ الآن بضر · فهؤلاء الجند والناس جميعا قد أصبحوا منذ اللحظة اتباعا وأولياء · وخرج الشيخ تحفه الأنظار المبتهلة الخاشعة والجند يتلمسون ثيابه ويتبركون ويوشكون أن يقبلوا يديه **·· وسار فى وسط الفرسان الثلاثة وحرسهم الى قاعة القصر الخارجية ، وخلفهم حشد متناكب متلاصق متدافع ترتفع فيه ومنه تباعا صيحات غامضة لا يعرف أحد من يقولها :**

ـ هذا ولى الله شيخنا عبد الله

ـ كرم الله وجهه

ـ لن يمسه أحد بسوء

ـ انظر نور الله على وجهه

- نزل له جواد أبيض من الجنة
- النصر للاسلام
- وقال له : ابشر يا عبد الله ولا ترع
- أبيض كاللبن الحليب
- النصر للسلطان والجنود العرب
- مصر محمية باذن الله · لن يمسها سوء ·

وعندما جلس الشيخ على الوسادة فى قاعة السلطان الخارجية وقف الحشد الكثيف دون الباب · يحتجزه صف من المماليك المدرعين شاكى السلاح ، أحاط به خاصة القادة ومماليك السلطان والأمراء ، يستمعون الى رؤياه ·

وفى تلك الليلة عرف أقطاى وبيبرس وأسامه وحدهم بخبر الفارس الأسود والحلقة التى انعقدت فى دمياط ، على أن تمتد الى سائر البلاد لمقاومة المعتدين وشـــن الحرب الخفية عليهم فى عقر حصنهم ، وتسقط أنبائهم ووصل سلسلة الجهاد بين البلد ودمياط ·
وفى تلك الليلة أخذ الشيخ على الفرسان الثلاثة عهدا موثقا وأكلوا الخبز والملح معا ·

ولم ينم القصر ليلتها · فقد خرجت أوامر السلطان باتخاذ الأهبة للرحيل الى المنصورة ·

الفصل الثالث عشر

الناس تحت سماء الليل أمواج تروح وتجيء ، تدور فى ساحة السوق وسط السرادقات من ناحية ، والخيام القديمة من الخيش ، من ناحية ، تقوم على أوتادها المغروزة فى الأرض بين الطنب المتراخية والكوانين متقدة تغلى عليها أوانى الرب والزلابية وحلوى الدقيق ودهن اللوز ، فتتقلب فقاقيعها الساخنة ، وتفوح رائحتها العبقة من العسل المحروق · وقدور لحمة الرأس والكوارع سوداء ضـــخمة مكشوفة يغلى فيها الماء والدهن · وصوانى الحلوى من الصابونية وكعب الغزال مرصوصة على الدكك · ونصب الحمص الأصـــفر والفستق الشامى والفول السودانى وحبوب الجوز الضخمة المدورة المعرقة واللوز الأشقر المسحوب مكومة عالية ، يقف فى وســطها الباعة أو يقعدون بينهـــا على الدكك العالية ، وبجانبهم الأكيال والموازين ، والشـــموع الكبيرة تتقد ، والقناديل معلقة فى الحبال والعرائس والفرسان المصبوبة من الســكر الأحمر المعقود ، مزينة بالقماش باللون الزاهى، وقطع الصفيح اللامعة الدقيقة ، مصفوفة فوق الحمص والناس تقف حول أكوام من العجور والبطيخ الأخضر

الضخم المكور · وشيوخ عليهم سيماء الستر ويسر الحال يجلسون على المصاطب جنب تجارتهم ، وفى أيديهم المسابح ·

والشيخ عبد الله يشق طريقه وسط الجموع المتواكبة ، وحده ، فى جوخته الزرقاء الناصلة ، وعمامته الدخانية ، مطرق الرأس لا يكاد يلتفت الى ضجة المولد وحياته الصاخبة المتقلبة :

ـ صل على النبى تكسب ·· !

ـ الشهد المصفى يا عجور ·· !

ـ ادخل بعشرين باره وتفرج على الملاعيب ·· قرب بعشرين بارة ادخل واتفرج ·· !

ـ الزلابية يا عسل ·· يا جمال النبى ·· !

ـ اللهم صل على النبى ·· !

الاجسام تكتسب حرارة من الليل والأنفاس كثيفة مبهورة تصدر عن فرح وتطلع الى أنواع من المتعات غير مألوفة · ونغمات مزامير ودق طبول ودفوف تأتى من داخل خيام منصوبة مسدلة الاستار ، تجمع الفلاحون أمامها فى ثيابهم المغسولة المصفرة من قدمها ، وعمائمهم الشاش الملفوفة ، والصعايدة فى الجبب الصوف ، فيهم من يرتدى بشتا قديما حائلا قصيرا على سيقان صلبة حافية الاقدام ، ويحيطون برجل بارز الفك والوجنتين كث اللحية على وجهه قترة سوداء ، يلعب قردا صغيرا مربوطا بسلسلة ، ويخبط بيديه على دف من فخار وجلد مشدود ، وعيناه الى القرد الذى ينظر اليه فى رعب مستمر ، وينقلب على رجليه ويديه ، بحركات سريعة مذعورة ولكن مدربة ، وبين الرجل وقرده شبه وتطابق فى الملامح والنظرة ، يأخذ بالعين ويأسرها ، وفى لون الوجه وتعبيره والصيحات القصيرة التى يتبادلانها ·

ومواكب الناس والحمير والجمال تشق طريقها فى الدروب الملتوية التى أمتدت فى السوق ، بين الخيام والسرادقات ، وحيطان البيوت المغلقة على أبوابها · المطابخ ودكاكين الحلوى مفتوحة ، وخانات المسافرين مزدحمة عامرة بالجلبة ، والأنوار تتراقص من وراء الشبابيك الخشبية الدقيقة الزخرفة ، وهناك ظلال النســـاء تروح وتجىء من وراء الشبابيك · والدواب مربوطة أمام الدكاكين· والجمال منيخة تجتر طعامها وتنظر الى اضـــطراب الناس نظرة السلام والرصانة ، فى حكمة ، من أعناقها الشاهقة ·

والجامع الكبير فى نهاية الســـاحة مزين بحبال تعلقت فيها الأعلام والقناديل ، تشيع نورا وهاجا بهيا ، وعلى منارته حبال ممدودة حتى القبة الضـــخمة ، ترفرف فيها الرايات الصـــغار وتضطرب تحتها قناديل خافقة النور على صفحة السماء ، تختلط بالنجوم ·

وقد أوشك الشيخ أن يصل الى الجامع ، وتحت العتبة المرتفعة فرشت الحصــــر على الأرض المكنوسة ، وجلس مقرئون مكفوفون يتلون القرآن وهم ينحنون ويعتدلون ، وقد وضعوا راحات أيديهم بجانب آذانهم · وتنهد الشيخ أسفا · فما كان المحتسب ليسمح لهم بان يتكففوا بالقرآن الكريم ، لولا ان الليلة عيد ، وقد أوقفت الحسبة بأمر السلطان ، حتى يبتهج الناس ·

وأمام الجامع ، وعلى الحصـــيرة ، صـــفان متقابلان من الدراويش وأهل الذكر ، جلسوا وعلى رأسهم شيخ متين الجسم مدور الصدر جهورى الصوت ، متعمم بعمامة هائلة خضراء من قماش رخيص يتلو دعاء متداغم الكلمات بلهجته الغليظة ، سريع الالقاء ، رتيب النغمة ، والاتباع يصغون اليه فى خشوع · لا يسمعون من ضجيج المولد شيئا بل قلوبهم وأسماعهم معلقة بالموسيقى الرتيبة التى تتقاطر متداركة من فم شيخهم بلحيته الضخمة السوداء ·

وفى نفس الشيخ رغبة متعبة فى الوصول · أن يبلغ هذه الحلقة من أهل الذكر فيجلس فى آخرها يصـــفى قلبه بالدعاء والمناجاة ، ويصغى للمدائح والموشحات · فى آخر الصـــف ·· نعم ·· فان أخبار كرامته ورؤياه كانت قد فشت وذاعت وطبقت البلد فى أشموم طناح ، ثم خفتت وضاعت ونسيت فجأة ، كما انفجرت وانتشرت فجأة · وأقبل الشيخ مع ركب السلطان الى المنصورة · ومضت أمور الحياة بالناس لا تدع لهم راحة ، فانشغلوا عنه وعن كراماته· ولم تبق له الا مهابة فى النفوس اذ يلقاه الناس وطاعة تدين له بها قلوب أصفيائه · وهو قد نشط الى دعوة الناس للجهاد والتطوع · لكنه حريص مدقق فى اختيار الخلصاء ، والصلة بينه وبين حلقة دمياط ممدودة لم تنقطع · لكنها رقيقة بعد ، أحوج ما تكون الى الرعاية والحياطة من التمزق والانفصام · وقد أمتدت خيوطها حتى قصر السلطان ، وتشابكت فى نسيج دقيق محكم ، يدور حول أميرين من أمراء السلطان ، أقطاى وبيبرس ، وفارس أعرابى جسور : اسامه ، ويصل حتى باب السلطانة شجرة الدر عصـــمة الدين ، وينزل الى عامة الناس من الفلاحـــين وأبناء البلد ، ويمر أيضا بكاتب من ديوان الانشاء ·

وهو يهرول أمام آخر الخيام المنصوبة فى الساحة ، مستغرق الفكر ، اذ سمع نداء مفاجئا يأتيه :

ــ ياشيخ ·· آنت ياشيخنا ·· يا شيخ ··

كأنه موعود دائما ان يلبى النداء ··

والتفت الشيخ الى فتى قصير يابس الجسم لكنه قوى الأسر ، على ساقيه سراويل قصيرة حائلة الصفرة ، وقف أمام خيمة تلوح من وراء خيشها ذبالة من قنديل معلق · وقد ترك الفتى القصـــير معزاته وكلبه وراح يشور اليه وهو يجرى يناديه بانفعال ·

« مبروكة » ·· أى والله هذه المعزة مبروكة ·· معزة البنت الغجرية التى لقيتها على الطريق ·· بالله كم مضى منذ ذلك الحين ؟ فترة غير طويلة فى حســـاب الزمن ـ لكنها حاشدة بأحداث كأنها تعود الى عهد قديم سحيق ·

وانفرجت أسارير الشيخ دون أن يحس ، ودارت عيناه على رغمهما ، فلم ير الا البغال مربوطة بجانب الخيمة · ولكن هاهى ذى العجوز قاعدة أمام الباب فى العتمة · وأمامها طبق من الفخار به بضع دراهم · وثم فلاحون وجند يدخلون الخيمة · وبينهم أيضا رجل يبدو أنه مستور الحال · عليه ثياب طيبة · ونغمات أرغول وغناء تأتيه من الداخل ·

ـ الا تذكرنا ياشيخ ؟ كنا التقينا بالقرب من فارسكور ·· تعال ·· والله تدخل تتفرج وتفرح بالمولد ·· حلفت بالله يا شيخ !

والقصير النشط المتوفز يمسك بذراعه مسكة قوية صلبة ، ويكاد يجره الى الخيمة جرا ·

ـ طيب يا ولدى ، طيب ·· استغفر الله ·· ها أنذا داخل يا مسرور ·· طيب ··

وقد سر الشيخ انه عرف الاسم ·· وانفرجت فى نفسه ضيقة خبيئة وضنك مكتوم لم يكن يعرف انه هناك ·

ويزيح الفتى شق ستار الخيمة المترب الممزق الأطراف · واذا بالشيخ يقف مرة واحدة ، وينسى كل شىء ، وقد احتواه المشهد الذى يراه ويبهره وأذهله · كان جو الخيمة مشبعا بالدخان والبخور الخشن الحريف ، والقنديل الواحد يهتز فى حبله المعلق من عارضة خشبية تحت خيش السقف المنخفض ، ودكتان خشبيتان قديمتان

عاريتان قد صفتا على الجانبين ، جلست عليهما أخلاط من الناس، جندا وفلاحين وباعة ورجلين أو ثلاثة تلوح عليهم رصانة الرجال الطيبين · وأمامهم ، على الدكك طاسات صغيرة بها سائل أحمر داكن ، يترقرق فى النور المصفر · وقد وقف فى المســـافة الخالية المفروشة بالرمل بين الدكتين ذلك الطويل الفارع الخشن الملامح · ما اسمه ؟ لا يذكر اسمه الآن · لا يهم ·· وعلى فمه أرغول طويل ينفث فيه ، فاذا الخيمة كلها ، والنفوس ،تمتلىء بالشكاة والأنين ونغمات الصبر الطويل · ووقف أمام بهية ، تعطيه ظهرها ، وقد انهمر جسمها الممشوق فى ذلك الثوب الضيق الذى رآه عليها يومها، الثوب المخطط بأحمر وأصفر ، وقد شحبت الخطوط الصفراء فى نور القنديل ، حتى أوشكت أن تبدو بيضاء باهتة ، كأنها خطوط من جسمها تلوح بين خطوط الحمرة الشاحبة المتثنية اللصيقة · كان جسمها متهدلا منثنيا فى وقفة التعب ، يبث حسا بالاستهتار والضجر، والابتذال معا ، ويثير شفقة حميمة دافئة تجيش لها الاحشاء · وهى ترفع ذراعيها فى الكمين الضيقين وتصطفق فى أصابعها المخضبة بالحناء رنات صغيرة من الصناجات ، تتسق مع لحن الأرغول · وصوتها المهيض المرهق تكاد تكون فيه بحة من طول الغناء ، فيه صدى أجش مثير وخافت · **تغنى وفى غنائها تلميح بعذابات النشوة والضـــــياع :**

يابنت ملســــك داب وبانت ايديكى
واخاف عليكى من ســـواد عينيكى

واســكر وأنا معاكى وابوس ايديكى
واعمـــل عمـــايل ماعملهاش عنتر !

والوجوه الغليظة قد أحمرت وجناتها وعظامها فوق اللحى ،

وقف الشيخ فى الخيمة · وكأنما انسربت الى الجو نغمة جادة رصينة عميقة تؤكد موســـيقى الأرغول التى تثير أحزانا تتطلب العزاء · ودار تالبنت ببطء ، وقدماها العاريتان المخضبتان بالحناء تلوحان من تحت ردائها ، على الرمل المفروش · ثم اعتدل جسمها اللدن فجأة كأنما صعدت فيه دفقة من ماء نافورة مليئة ، واشتعل فى عينيها نور خاطف اشرق على قسماتها الدقيقة السافرة كأبتسامة طفل · واستمر الأرغول فى نواحه ، تتهاوى أطراف أنغامه الرقيقة الطائرة فى الهواء ، ولكن عود البنت قد هب ممشوقا على لينه وطراوته ، وصدرها قد نهض من خلف الثوب ، وساقاها تبدوان كأنهما تطولان وتعلوان فى ثوبها السابغ · اهتزت جدائل شـــعرها تحت عمامتها القصب الحمراء المدورة الضيقة · عجيبة دفقات الحياة فى جسم هذه المرأة دفعات تنحسر ثم تصعد فجأة فينزاح عنها على الفور كل تعب وضجر ، واذا هى متوفزة فوارة · ذلك ما حدث أيضا هناك عند السبيل ·

أفاق الشيخ لنفسه من احدى سرحاته المألوفة · كم دعا الله أن يمده باليقظة والصحو ويقيه تلك الغيبات التى يضيع فيها ويفقد نفسه ، حتى لقد أصبحت تلك عادة ملازمة ، ومحنة · وتردد قليلا وهو يستغفر الله ويغض عينيه ، ويهم بالعودة ، اذ سمع وقع سنابك وصهيل خيل يشق الليل ، وضجة خارج الخيمة ، وهتافات عالية ومرحة تسبق دخول فارسين يزيحان الســـتر ويدخلان · والتفت الشيخ فى روع لصيحة أسامه :

ــ هاه ·· هذا الشيخ هنا صاحب الكرامات والدعوات ·· ما شأنك هنا يامولانا ؟

ومع ذلك فقد كان فى لهجته المستخفة العالية قدر من التحفظ والتوقير والخشية · لم يلتفت اليه الشيخ بل ذهب الى الباب مسرعا ، محنى الرأس ، وهو يلملم جبته ، اذ احتجزه فارس الدين أقطاى مبتسما ، يمد ذراعه يحول دونه والخروج :

ـ لا عليك ياشيخ ، لا عليك ‥ دعك من صاحبنا هذا المجنون وابق معنا نتفرج ‥

كان الأرغول قد توقف عن بث شكواه ، وانقطع مرة واحدة . وسرت فى الجمع الصغير رعدة تأهب وتحفز وقد اعتدلوا وفى نظراتهم مزيج من خوف وغضب . ليس لأحد هذه الليلة أن ينغص عليهم فرحتهم . هذه ليلتهم . أعطاهم اياها السلطان . ولا شأن بهم لفرسان السلطان ولا لجنوده . ووقفت بهية مضمومة القبضتين . اندلعت النار فى عينيها وقد تجمع جسدها كله فى توتر التحدى . كأنها قطة على وشك الوثوب . ورأى الشيخ فلاحا ربع القامة متين المنكبين عليه ثوب نظيف من كتان ضارب الى الصفرة الخفيفة ، وعمامته بيضاء بها أثر من زرقة الغسيل . قد أدلى قدميه من على الدكة ، ووضع يده فى خفية ، على هراوته الغليظة ، وتصلب فكاه فى اطباقة قاطعة قوية ، وكأنما غارت ندوب الجدرى فى جلد وجهه الذى لوحته شمس الغيطان المحرقة ، وعمقت ثغراته ، ولمعت من العرق الخفيف . وتحركت كتفاه ، أهون حركة ، الى الامام ، فى تحفز مكبوح . وألقى على بهية نظرة عميقة بها جذوة مدفونة ولكن ذرها صاحية متقدة . وفى جسمه وشخصه مهابة جدار عريض يوحى بالحصـــانة الوثيقة والمنعة ، كانه يتأهب ليحميها ، حماية الرجل لأنثاه .

ولم يدم ذلك الا لحظة يسيرة ، فقد رأى الجمع الصغير فى الخيمة أن الفارسين المسلحين انما جاءا ، شأنهم جميعا ، يروحان عن نفسيهما ويلتمسان متعة وبهجة . وتراخى التوتر . وقد استند الفارسان فى وقفتهما على سيفيهما يتفرجان ، والشيخ محصـــور واقف بينهما ، محرج الصدر وان كان ذهنه قد أخذ يعمل فجأة ، يحل شباك عقدة ما ، ينسج بسرعة خيوط خطة ما ، كأنه تعلم من الفارس الأســـود الغريب كيف ينقض على الفرصـــة السانحة غير

المنتظرة ، ويفيد منها · لكنه مازال يتعثر فى تدبيرها ورسم منهاجها ويتلمس طريقه فى غموض عتمة توشك ان تستضىء ·

وعاد الأرغول يغنى ، وأنغامه تخف وترق وتتسارع · والصناجات فى أيدى بهية تصطفق فى نغم متقارب واثب مهتاج · نحاسها تتلاحق ضرباته ، وجسمها يترقرق ويثنى ، واذا هى ترقص فى خطى سريعة رشيقة ، ترفع ذراعيها وتخفق صناجاتها ، ثم تخفضهما ، وتدوران بهما حول خصرها ووسطها ، قريبتين ماستين بطيئتين ، راحتاهما مفتوحتان فى تشنج نشوة ما ، لكنهما لا تمسان الجسد اللدن المليء ، كأن بينهما حاجزا حراما ، **وتتغنى :**

أسمر وحاوى الوردتين البيض   حبى اتخلق فى ليالى العيد

وهى تثبت عينيها فى عينى أقطاى ، مثقلتين بدعوة تتحدى فى ثبات واصرار خفى ، على شفتيها ابتسامة غامضة المعنى ، كأن فيها استفزازا واستمتاعا ماكرا ·

ندرا على وان اتانى سيدى   لاعمل عمايل معملهاش

والصفقات النحاسية ترن متسارعة خفيفة متوثبة ، ثم تهبط فى دقة نهائية عالية رنانة رائعة :

ـ عنتر ·· !

ولكن الابتسامة المرحة قد ذوت ببطء من على شفتى أقطاى ، واشتد جسمه على سيفه ، من غير أن يحس ، ثبتت عيناه فى سحر هذا الجسد المتحدى المتوفز الذى يميد ويتموج ، وثارت فى عمق

أصلابه موجة ثقيلة بطيئة الجيشان ولكنها زاهرة . والراقصة تدنو من الثلاثة الواقفين بالباب . تتثنى ، كأنها تزحف وتتسلسل على الأرض ، وقبل أن تصل اليهم تلتفت فتصفق صناجاتها أمام وجه عجوز مغضن مقوض الجسم يابس ، فيهتز ويبتسم عن فم غائر الكهوف ، والفلاح الربع القامة المجدور الوجه يرقبها بنظرة متقدة لا تطرف . ثم تدور بهية فجأة وتقترب ، ولا تنظر الى أقطاى ، كأنه لا يوجد هناك ، وتقبل على الشيخ عبد الله ، وقد تغيرت نظرتها وابتسامتها ، واكتسى وجهها القسيم المسمسم ، بسمرته الخفيفة ، تعبيرا عن شجن غريب موجع ، وفى رنة صوتها الأجش الخافت أسى مدفون والأرغول تتهاوى نغماته مترامية مع انثناءات جسمها البطيئة الوانية :

طول الليالى لم ينقطع نوحى   على حبيب عترة أخد روحى
ندرا على وان أتى محبوبى
ونغمات الصناجات تدق الآن دقات ثقيلة رتيبة

لأعمل عمايل ماعملهاش

ثم تسقط الصناجات فى نغم يذوء بحمل فادح من اليأس ، فى هدة أخيرة تصطدم بالأرض :

عنتر .. !

وتلف الراقصة فجأة وتدور بسرعة كأنها تزيح عن نفسها سقم هذا اليأس وتنفض مرارته ، وقد تلألأت عيناها بلمعة الاستهتار الذى لا يبالى ، استهتار آخر حدود اليأس ، ولمعة الصراخ المرح الذى

لا يعلو الا من أرض الحزن حين لا يكون له دواء ، وقد فشاق جسمها هذا الاستهتار والابتذال ، فهى تهتز مرة واحدة هزات يترجرج لها جسمها الطرى الغض ، فى حركة صارخة توشك أن تكون بذيئة ، حتى شهق الناس من اللهفة والروع ، وصعدت الدماء الى الوجوه، وانصب النبيذ ينزلق فى حلق مسدود يجرعه بائع قصير هزيل جاحظ العينين بصوت مسموع ٠

وثارت فى نفس الشيخ عاصفة من الغضب والانكار ، وغامت عيناه من الحنق . فاستدار فجأة ، ولأول مرة منذ أمد طويل ، وجد نفسه يدمدم باللعنات وهتفات الاســـتفظاع المكبوحة ، وهو يخرج بسرعة ، لا يرى مواقع قدميه ٠

الفصل الرابع عشر

هب على وجهه الساخن هواء الليل ، صفت نظرته ، واتسعت الساحة فى عينيه • وضجة المولد قد ارتفعت مرة أخرى ، وهتاف الباعة ومواويل المنشـــدين والدعاء والأذكار والتلاوات • وكانت الأشجار المعتمة على أطراف الساحة أثيثة الورق ، تهتز أغصانها الثقيلة الوافرة وراء الجامع ، وتقع أنوار القناديل بين أوراقها الصغيرة المتربة •

أسرع الشيخ بخطى واسعة أمام خرابة مظلمة خالية يحيط بها سور ، من أوقاف الجامع ، وفى ذهنه هياج حار متقلب • واذا بخطى خفيفة تجرى خلفه وتلحقه ويد ناعمة رقيقة تمتد الى ذراعه فتمسها وتستوقفها فى توسل والحاح متردد هائب • وعندما وقع نظره على المرأة المحجبة التى أدركته ملتفة بعباءة زيتونية اللون داكنة ، وصوت أنفاسها المتسارع يصل اليه الآن من وراء نقابها ، وعيناها تطلان عليه فى دعاء واسترحام ، انبثقت فى تربة الغضب الوخمة السبخة فى نفسه شفقة وحنان ، أوقع وأوجع لأنها تنبجس فى قلب رجل تام الرجولة خشن الحياة ، قسته الشدائد ، وعجمت المحن

عوده ، ولم يألف الرحمة ولا الحنان من الناس أو نحوهم ، فهو أحوج اليها وأصبى وأرهف احساسا · لكن تربة الغضب الثقيلة الغمقة ، مازالت رازحة تطأ صدره ، المرأة فى عباءتها الواسعة تبدو غارقة فيها ، صغيرة رقيقة هشة ، وهى تغض عينيها المعذبتين الى الأرض فجأة ، وتقول بصوت مهيض ، أدرك الشيخ الآن انه لم ينسه قط ، لحظة واحدة :

ـ أعذرنى ياسيدى · لم أكن أقصد · أنا مخطئة · فلا تبخل على بعفوك وبركتك ·

وتردد الشيخ ، لكنه ترك الحنان الغريب ينبجس فى صدره ويتدفق ويغمره ، وكان صوته يرتعش أيضا :

ـ؟عفوا يا بنتى ·· استغفر الله · العفو · العفو · انما المعذرة الى الله وحده ·

والمرأة تهتز فجأة ، كأنها تنهار · وتحنى رأسها فتسندها الى ذراعها وراء العباءة ، وتجهش بدموع كأنها تنبثق من صـــخر عصى ، دموع منتزعة بجهد الألم والالتياع ، كأن الصخر يتشقق عنها فى ضغط لايطاق · وهى تكتم النوبة التى جرفتها من الحرقة الكاوية ، لا تقاوم · **لكنها لم تعد تملك من أمرها شيئا ، وتتمتم وهى تشهق :**

ـ نحن بائسات ياسيدى ·· شقيات نحن · ولنا العذاب فى الدنيا والآخرة ·· العذاب ··

والشيخ قد تحير وتســـايل قلبه من التحنن واللوعة ، لكنه لا يدرى ماذا بيده أن يفعل ، وقد وقف بجوار السور الخرب فى العتمة ، واختلط فى ذهنه كل شىء ·

ولكن المرأة هى التى أفاقت فجأة ، وهى تشهق فى خوف وترقب وتصيخ السمع رافعة رأسها من وراء النقاب · دق سنابك الخيل يخبط الأرض ، والمرأة تجذب الشيخ معها بلهفة · وقد رقأت دمعها وصحا ذهنها وصفا ، وهى تبادر الى السور وتجر معها الشيخ من يده ، وتسرع الخطى ، وتنفذ من ثغرة فيه ، فاذا هما فى الخرابة المقفرة الموحشة ، تتناثر الحجارة على أرضـــها وأكوام القمامة الجافة التى تصوحت من الصيف · وتستجن المرأة والشيخ معا ، وحدهما ، داخل السور · **وهما يسمعان الخيل تقف ، وصوت أقطاى من الليل الخارجى يسأل :**

ـ ألم تكن قد مرت من هنا ؟ ألم ترها يا صقر الدين ؟

والصوت الجسور المستهتر يجيب :

ـ اذا لم تكن قد ابتلعتهما الأرض بكرامة الشيخ ولى الله !

ـ هذا أغرب ما وقع لى · أقسم أن رأيتها بعينى منذ لحظة تأتى الى هنا ·

وتدور الخيل فى الخارج دورة قصيرة ، ويأتى صوت اسامه :

ـ لن يطول هروبها يا فارس الدين · فلست أظن أن الشيخ يسخر الجن أيضا، وأهل الأرض السابعة ·

ـ أعاذنا الله يا أسامه · وحفظنا من كل سوء · اياك وهذا يا أسامه ، ولك كل شىء بعده ·

ـ أتخاف الظلام وسكان تحت الأرض يا فارس الدين ؟

ـ لست أخاف شيئا · هيا بنا ولا تتماد · هذه ليلة لا خير فيها ·

جاءت ضحكة الاعرابى الخفيفةالساخرة المستمتعة ، وابتعدت مع وقع السنابك العائدة ٠

وتنهدت المرأة وهمست ، كأنها ماتزال تحاذر أن يســـمعها أحـــد :

ـ **الحمد** لله ٠ لم يسترح قلبى لهذا الفارس ، منذ رأيته

ـ هو أيضا معذور يا بنيتى ٠٠ أنت تعرفين ذلك حق المعرفة ، وهو رجل كريم على أى حال ٠

ثم سطع لذهنه حل المشكلة التى كان ذهنه يتخبط فى شباكها ، وانفكت العقدة التى ظل يحوم حولها طيلة الوقت ٠ وقال ، وقد عاد اليه هدوء جأشه ، وتغلب على احساسه بانه وحده فى هذا المكان الموحش المسور مع هذه المرأة الطيعة الغريبة المثيرة ، وعاد الرجل المسئول المنوط اليه بمهمة جليلة ، والشيخ الذى يعصمه دينه من الغواية :

ـ اسمعى يا بنتى ٠٠ انى أعرف انك امرأة صالحة القلب ٠ غفر الله لنا ولك ٠ وأحس أن بك توقا للانابة الى الله ٠ ولك عندى مهمة لا ينهض بها سواك ٠ لن تخيبى نظرتى فيك ٠ تأتين الليلة باذن الله بعد ان ينفض المولد الى فرن مأمون فى درب الفرانين ٠ ومعك رجلك ، فانى أراه جديرا بالثقة أيضا ٠ على خيرة الله ٠٠ سيرى خلفى حتى خيمتك ٠

كأنما يخشى عليها من عبث بعض الســـوقه أو المجان فى الطريق ٠ لكن صحبته وحمايته لها ، على بعض الطريق ، هو المخرج الوحيد لحنو غامض يضيق به صدره ٠

ورجع الشيخ بعد ان دخلتبهية الى الخيمة المعتمة التى خلت من روادها ، لم تلتفت الى موكب الدراويش الذى قام وراء الاعلام

والرايات السود المطرزة بالخط الكوفى ، والطبول الخشبية الضخمة والنقاقير النحاسية تصطفق وتدق ، وأمامهم شعل النفط تتراقص ألسنتها بالدخان · ويقف الموكب مرة واحدة ، ويسود السكوت ثم يرتفع الصوت العظيم :

ـ الله أكبر ·· ! الله أكبر ·· !

وقد ازدحم الناس حول الموكب يسايرونه ويصيحون معه ، وخلفه قوم من أهل الفتوة يلعبون بالسيوف والخناجر ، ويلقفونها على أطراف أصابعهم فى براعة خاطفة ، وواحد منهم يسير عاريا حتى الوسط ، وقد غرس فى صدره عمودا رفيعا من الحديد مسنن الطرف ، ينفذ فيه من جنب الى جنب ، وهو يمشى مختالا كأنه فى نزهة ·

نزل الباعة من على نصبهم بين الحمص وصوانى الحلوى ، واقتربوا من الموكب وهم يهللون مبهورين · والغلمان يتركون الخيل والجمال ويهرعون يتسللون بين الصفوف والسيقان ، وعلى وجوههم ابتسامات جديدة غضة ، متعة اليتيم الذى جاع طويلا الى البهجة والسـرور ، ومدت أمامه فى ليلة مبرورة أسـمطه مثقلة بالفرح والمشاهد الحلوة ·

والشيخ قد عاد من المولد بلا حمص · لم يجلس فى حلقة الذكر ولا تلا دعاء ولا استغاثة ، بل لم يسمع القرآن · يعود مثقل الذهن ولكنه خفيف الخطو ، فينحرف فى درب ضيق وحلت أرضه ويمر به بين الحيطان المظلمة المطبقة سقاء يحمل قربة ضخمة يتقطر منها الماء ، وهو يكاد يتراقص بحمله فى مشيته المسرعة الى ساحة المولد · وتخفت الأصوات والأضواء وتتباعد الدقات وغناء المزامير ويعود الظلام محملا بالسر والهيبة · ونجوم السماء تلمع ، يراها

الآن صافية مونقة فى سماء داكنة ، تشع أطرافها البعيدة من فوق سطح البيوت ٠

كان زين العابدين ينحنى على قصعته الضخمة المدورة ، والعجين تحت ذراعيه أبيض كثيفا لزجا مازال متميعا بالماء ، وذراعاه الحليقتان العاريتان النظيفتان تغوصان فى المادة الرخية اللدنة القوام حتى المرفقين والنار تنعكس بوهجها الأحمر على عصابته البيضاء التى تمسك بشعره الخشن المجزوز وطيبة وجهه كأنها تفوح برائحة الخبز الطازج ٠ والشيخ عبد الله قد جلس على فرش بجانب الجدار الذى حمى من الفرن ٠ والى يمينه شاب أنيق الجبة ، يتعمم بعمامة جديدة من قماش الشرب الرقيق ، والفتى يرجل لحيته الخفيفة المعنى بها ، بأصابعه البيضاء التى تبدو عليها النعمة ٠ وهو حسن التقاطيع مورد الوجه أسود الحاجبين ٠ وقد جلس وأمامه خفه الناعم يصغى الى حديث الشيخ عبد الله ٠ وصبى الفرن مازال يقظا يشتغل ، يرفع ألواح العجين التى رصت عليها الأقراص البيضاء ، وينتظر سيده مأمون الفران حتى يفرغ من مسح بلاطة الفرن الناعمة الساخنة ، بخرقة طرية مبلولة ، ينظفها من الفتات المحترق والشرار الأسود ٠

قال العجان وهو يريق بعض الماء من اجانة واسعة يترقرق فيها السائل الصافى تحت نور مسرجة خافتة :

ـ نصر الله يا شيخنا دين الاسلام وخذل الكفار ٠

انسربت فى هذه اللحظة قطة سوداء كبيرة أطلت برأسها من كن بين الحائط والتنور ، عيناها خضراوان متقدتان ، وهى تموء فى الدفء وتهب على قوائمها تقوس ظهرها ، وتموء ٠ فهب الصبى اليها يلوح بيديه وينفخ « بس ! ٠٠ بس ٠٠ ! » والتفت زين العابدين

يرفع مرفقيه فى ثوبه الواسع من غير أكمام ، ليحمى العجين ، بينما القطة تثب وتهرب مسرعة مروعة من الباب ، تموء فى شكاة ، الى الدرب المظلم الضيق ، **وقال الشيخ :**

ـ هؤلاء المعتدون الذين أتوا يطرقون أراضينا قد جاءوا وراء راياتهم الموسومة بعلامة الصليب · لكنى رأيت يدا وشمت بعلامة الصليب عينها ، تمتد الى يد مؤمنة ، خالصة العزم على الجهاد ، فى عهد مؤلف وثيق على بذل الجهد والروح لطرد الدخلاء الواغلين ، تؤثر فى سبيل ذلك بالمال والولد ، وتخاطر بالأمن والحياة ، حتى يجلو الظالمون وتطهر أرض البلاد · أليس فى ذلك عبرة يا محمد بن عثمان ؟ كان استاذك حصـــيفا ومبادرا الى الفطنة بمعدن الرجال ، عندما عقد عروة هذا العهد مع اسحاق بن جبره القبطى ، ومع أبيه ، نصرهم الله جميعا بنصر من عنده ، ونصرنا على العدوين · ان فتح الله لقريب ·

والتفت الشيخ الى الباب فى قلق هين ، وقال :

ـ مضى شطر من الليل ولم يقبل أحد بعد ·

وكأنه قد استشعر شيئا ، أو قال رقية وأتى بكرامة · فان باب الفرن قد مثل فيه يحيى الطويل ، بهرت عيناه من وهج التنور يظللهما بيديه ، ويحد النظر بقسماته الجهمة ، ويلقى بالتحية · وبدت خلفه بهية فى عباءتها الملففة الطيات ، منتقبة لامعة العينين ، وفى ظلمة الشارع شبح الفتى القصير بسراويله يتلفت حواليه فى الدرب ·

وعندما اتخذ الوافدون الجدد مجالسهم على البساط النظيف ، وانزوت بهية بجانب الجدار ، قريبة من الشيخ ، لا تسقط نظرها عنه قال عبد الله :

ـ الفاتحة يا اخوان ٠

واعتدل العجان فى ركعته على القصعة ، وأخرج مأمون ذراعه من فوهة الفرن ، وشد الصبى عوده المتعب من الحركة الدائبة طول النهار ، وما عادت تسمع الا التمتمة بالآيات ، وفحيح النار فى قلب التنور ، كأنها لهفة دائمة محدقة بأشواق متطلبة ٠

لم يضيع الشيخ وقتا ، فلم يكن يأمن أن يطرقهم غريب ، وقال بصوت جاد ليس بالهامس ولا بالمرتفع :

ـ ليس شأننا الساعة أن نقول ونطيل القول يا اخوان ٠ ولا تخفى عليكم هذه الغاشـــية التى دهمت ثغر البلاد ٠ وقطعت عنا شطرا عزيزا من ديارنا ٠ والظلمة المعتدون انما يستعدون للوثوب على سائر البلاد ٠ ويعلم الله ان السلطان أيده الله يستفرغ الوسع ويعمل ما وسعته الطاقة لملاقاة أعداء الدين والوطن ، والجد فى نزالهم ، ودحرهم ان شاء الله ٠ على أن واجب الجهاد لا يقع على السلطان وجنده من دوننا ٠

وسكت قليلا ، وأدار بصره ٠ وطالع فى الوجوه المحيطة به ما حفزه أن يكمل مطمئن القلب :

ـ وانى أتوسم فيكم جميعا العزم عليه والقدرة على مشقته ، دفاعا عن الديار ٠ يايحيى ، لست بالغافل عما حدث لك فى الشام ، أنت وأمة الله هذه الى جوارك ٠ وانى لأعرف ان لك مع هؤلاء الفرنج ثأرا لا يستنيم ٠ وفى قلبك منهم وجيعة تطلب الشفاء ٠ وأنتم قوم لا تنامون على ضيم ٠

فرفع اليه يحيى وجهه العابس المعقود ٠ أهذا الشيخ ولى حقا وله كرامة كما يقال ؟ من أين أتاه الخبر ؟ هل كشـــف عنه الحجاب ودانت له الرؤيا ، أم أن له عيونا وأرصادا وأتباعا ؟ هذا الشيخ بحق له شأن وخطر ، وليس ما قيل عنه بالكثير عليه ٠

منذ عام ونار الحقد والحزن تتأرث فى قلبه ، ولا تهن ٠

ذلك اليوم الذى لن ينساه ما عاش ٠ كانوا فى الشام ، بالقرب من «صور» وقافلتهم تسير الى جانب النهر الصغير السريع ٠ وقد قيل لهم ان الطريق غير آمن ، لكنهم كانوا يقصدون مصر على وجه السرعة ، فغامروا ٠ واذا بالطريق ينشق عن كوكبة من فرسان الفرنج ، وما كانت ليسعها أن تنجو أمام الخيل الراكضة تطوى الأرض ٠ كانت هجمة الفرسان الفرنج تنذر بالشر المستطير ، فهذه الغارات المفاجئة يشنونها كقطاع الطريق ، ليســـت بالغريبة ولا بالجديدة ، والاخبار تتواتر بها فى المجالس والأسواق ٠ ولما اقترب المغيرون بأوشــــحتهم البيضــــاء ، وعليها الذراعان المتقــاطعان الحمراوان ، لم يسع يحيى الا أن يجذب امرأته بعنف ، وهى تجر معها طفلها الصغير ، ينحدرون جميعا الى شط النهر الوعر ، ترتفع الأرض تحتهم فى حمى الجرى المندفع ، فلا نجاة لهم ــ ان كتبت لهم النجاة ــ الا فى النهر ، وهو يشـــد بهية معه الى الماء ويلقون بأنفسهم فيه ، والطفل على كتفه ، لا يدرى كيف صعد اليه ، وهم فى وسط المياه المتقلبة ، والتيار العنيف الدافع يضغط عليهم ويسحبهم معه ، على أنهم يحسنون العوم ، فلا خوف من الماء مهما بلغ من عنفه ، وانما الخوف من أولئك المغيرين على الشط ٠ لكن صرخة ثاقبة مروعة على الشط ايقظت يحيى من غمرته ، كانت أمه العجوز تعول وتصرخ نائحة ، وتلطم وجهها لكنه لم يسمع الا صوت ابنه الفتى حسن ٠٠ حسن ٠ وقد رآه يحيى يجرى الى الشط ، فى ومضة لن ينطفىء ابدا ، وقد أدركه قائد الفرسان ، وانحنى بجانب جسمه يرفعه الى صهوة الحصان ، والفتى يضرب بذراعيه فى الهواء وعلى صدر الفارس الضاحك عن أسنان كبيرة قاسية ، والحصان ينطلق به نحو المصير الذى لا يجســـر على التفكير فيه ٠ لقد استأسره المغيرون ومضوا به ٠ وأمه تخبط التيار بذراعيها ، وتشرق بالماء ، ويكاد التيار يشدها الى الأعماق ، وما يدرى يحيى أهى الدموع أم

مياه النهر على وجهها المفزع الذى شـــاهت تقاطيعه من الرعب والكارثة · ومن يومها لم يخلص له قلبها · قام بينهما حاجـــز عريض ، كأنها تنقم عليه ان نجا ، وترك ابنه يختطف أسيرا ·

أعادته الى نفسه كلمات الشيخ الحازمة :

ـ رعاك الله يا بنيتى · تلك مشيئته · وان له لحكمة · فامتثلى أمره · ولكن فى وسعك أن تثأرى لابنك وضناك ·

وصوت نهنهة قصيرة مقطوعة يأتى من وراء النقاب ، يكف فجأة كما انهل فجأة ، والشيخ يقول :

ـ ماذا تقول يايحيى ؟

رد عليه يحيى بصوت صلب فيه عمق وخشونة :

ـ القول لك يا شيخنا · نحن منذ الساعة رهن كلمتك ·

وبهية تنغض رأسها عدة مرات ، للتأكيد ، كأنها لا تأمن ان يخونها صوتها اذا تكلمت ·

ـ أنتم قوم رحل لا تقيمون فى مكان · لذلك وقع اختيارى عليكم · وأنتم تعرفون الطريق ، ومســـالك التوقى والنجـــاة . ان اضطررتم اليها · وعليكم منذ اللحظة أن تتأهبوا للسفر وأن ··

ولكن مأمون الفران اقتحم على الشيخ كلامه ، والتفت اليه فاذا هو محتقن ساخن الوجه من النار والغضب ، يداه مرفوعتان . بقبضتيهما الغليظتين كأنه يتوعد :

ـ على مهلك ياشيخ ·· حاسب · أهذا مقدار وفائك بالامانة؟ هؤلاء قوم من الرحل كما تقول بعظمة لسانك · قوم لا دار لهم ولا وطن · أتراهم قادرين على الوفاء بما توشك أن تعهد به اليهم ؟ الله يعلم أنهم عندى وفى فرنى · وقد تركنا لك تدبير الأمر ياشيخ ·

ولكن ليس هذا وقت رعاية لحرمة الضيافة ، ولا طاعة ما تقول ، دون حساب ، فأمرنا جد لا يحتمل المجاملة ولو كنت أدرى من ضيوفنا الليلة ما ٠٠

وصمت لحظة ، كأنه لا يملك ان يتكلم ، ثم اســـتطرد عنيفا جائحا :

ـ ولكن أتظنك ياشيخ ترى رأيك وحدك ؟ وتنفذ فيه كلمتك وحكمك ، دون تعقيب ؟ ليست أعناقنا ولا حرمات أهلنا هى التى أطلب منك ان ترعاها ، ولكنى اقتضيك حق الله ٠٠

رفع الشيخ رأسه فى دهش كامل ٠ وهم بالكلام ، بايقاف هذا السيل الخطر من غضبة الفلاح وابن البلد ، من خوفه الدفين وتخوفه التقليدى للغجر الرحل ، ومن العداوة القديمة بين الجنسين ٠ ولكن الفران كأنه نسى كل شىء عدا ثورته العارمة ٠ ولعلها ثورة لم يكن مبعثها مجرد خشيته من الغرباء ، ولعل أصولها ترجع الى جذور أعمق وأنفذ فى نفسه ، فى مناطق غامضة فيها ، تمور بقوى لا يحسن التفكير فيها ولا ادراك كنهها ٠

ـ اقتضـــيك حق الله يا عبد الله ٠ أهؤلاء الناس لهم دين وخلق ؟ وأنت العارف المجرب ؟ ألم تسمع ما يعرفه أهلنا عنهم فى كل قرية وكل كورة ؟ أتأمن جانبهم أن يبيعونا للكفار ، بدراهم لا بدنانير؟ الأمانة ثقيلة يا شيخ ! ارع حق الله فى نفسك وفينا ٠

كان يحيى قد وقف فى الفرن ، والنار تنعكس على قسمات وجهه التى أصبحت كالحة باسرة معقدة ، كأنها جذع شجرة قديمة غليظة٠ ولحيته ترتعد رعدة هينة ، تحت فم مزموم ، ويده مشدودة الى جنبه كأنه يردها عن حركة مألوفة تتلهف الى اتيانها ، أن تثب الى خنجره فتغمده لتخرس هذا الصوت الوقح الأخرق ، فما قيل لواحد

من قومه مثل هذا ابدا أو أقل بكثير ، ونجا قائله من ضربة الخنجر القاتلة · **وهتف بصوت فائر مكبوح :**

ـ كفاك يا فران · كفى ، قلت لك · وحق الله الذى تتشدق به ، حق الله الذى أنا أعرف به منك ، وحق شيوخنا أجمعين ، لولا هذا الشيخ وهذا القرآن فى يده ، ولولا أننا نحن فى دارك ، وأننا نحن نعرف حق المضيف وحق الضيافة ·· ماذا ؟ قومى يا بهية ·· قومى ·· هيا بنا عن خلقة هذا الفران النحس ·

وتلفت حواليه ، لا يرى من حميا الغضب ، ونادى بصوت مرتفع دوى فى رحابة الليل :

ـ مسرور ·· مسرور ·· أين أنت يا مسرور الكلب !

لكن هذا الغضـــب كله انفثأ كأنما انصب عليه ماء الدعة والرضا، اذ سمع صوت الشيخ ، هادئا وان كان فيه حزم ، وبه رعشة خفيفة :

ـ حقك على أنا يا يحيى ·

وصوت محمد الكاتب الخفيض الحيى :

ـ صلوا على النبى يا جماعة · صلوا على النبى · اقعد يا يحيى ··

وقال الشيخ :

ـ قلت لك حقك على ·· اقعد ·· اســـتحلفك بالقرآن الا قعدت · واخز الشيطان ·· اجلس هنا · وخلك فى مـــكانك يا أم حسن ·

والتفت الشيخ الى مأمون يقول فى زجر رفيق :

ـ هذا عهدى فيك يا مأمون ؟ هذه يمينك وطاعتك ؟ أتظن أننى أرى رأيا دون أن أتدبره وأمعن فيه النظر ؟ أنا الذى تطلب منه حق الله يا مأمون ؟ أما ترعى حق نفسك أولا يا رجل ؟

كانت فورة مأمون قصيرة الأمد ، قصيرة النفس ، وقد انخزل الآن ، وأفحم · واستخذى وهو يتمتم :

ــ اللهم اخز الشـــيطان ·· حقك على ياشيخ · حقك على يا يحيى · والله ما أدرى ماذا أطلق لسانى فى الناس · والأمر بين يديك ياشيخنا · الرأى رأيك ·

والشيخ قائد حصيف ، ذهن · فهو لا يضيع القول سدى . وقد انقشعت هذه الملمة الطارئة ، فهو يتركها تمضى ، ولا يتلبث فى تشقيق الكلام والحديث ، وتأريث جذوة قد خبت · وينتقل من فوره الى المهمة التى يريد انفاذها · وينحنى على يحيى فيضع ذراعه على كتفه ، بحركة لم يكن يأتيها قط من قبل ، لكنه رآها عند الغريب الأسود مرة واحدة · كأن هذا الغريب يلهمه عن بعد ، ويتقمصه · ويقول الشيخ هامسا ، حتى لا يسمعه العجان والولد :

ــ كنت أقول أن عليكم منذ اللحظة أن تتأهبوا للســـفر الى نواحى دمياط · وعلى أسوارها ، بعد خيم المعسكر الافرنجى ، سوف تلتقون ببياع دوار يلبس السواد ، ويتمنطق بزنار ، وينادى على الرمان فى عز الصيف · ذلك كل ما لكم به حاجة الآن ، سوف تدبرون أمركم معا · وعلى الباقى · وانما عليكم قبل أن تخرجوا ان تذهبوا الى الباب القبلى الصغير لقصر السلطان ·

وأخفض صوته حتى ما كاد يبين فى الصمت الذى تقطعه من

بعيد همهمة المولد الخافتة ، وهو يتحدث الى يحيى بدقائق مهمته وتفاصيلها ، ثم ارتفع قليلا :

ـ ولعلكم تعودون الى المنصورة هنا باذن الله ٠٠ ثم تشدون الرحال مرة أخرى ٠ ومعكم أثقالكم وأحمالكم ، الى أسوار دمياط ٠ ذلك أمر موكول الى حينه ٠ وأنتم قادرون دائما أن تجدونى عن طريق هذا الفرن ٠

والتفت الى مأمون وقال :

ـ نقرأ الفاتحة ٠٠

فجلسوا جميعا ، ونهض العجان وصبيه فأنضموا الى حلقتهم قاعدين على عقبيهما حول البساط ، وأتى مأمون برغيفين ساخنين يفوحان بعبق طيب طازج وعلى الرغيف الثانى قليل من الملح ٠ وفى صمت تام بعد أن قرأوا الفاتحة ، قطع كل واحد منهم لقمة غمسها فى الملح الأبيض الناعم وأكلها ، الا العجان والولد فقد أكلا الخبز قراحا دون ملح ٠

والنار تتقد فى التنور هى وحدها فى السكوت صوت ناطق بدلالة عميقة الايحاء ٠

الفصل الخامس عشر

عندما مضى يحيى بقامته الفارعة الى الباب ، وطواه الليل مع الشبح القصير المربوع القامة الذى كان يلوح طيلة الوقت على عتبة الفرن ، محتبيا فى جلسته ، عقد يديه على ركبتيه فى الظلام ، نهضت بهية فى عباءتها ، ونور القنديل الشحيح يلمع فى عمق عينيها ، بؤرتين مشعتين بلهب ثابت ، تنزعهما عن الشيخ كأنهما تحولان عنه فى مشقة ، والمرأة فى حرارة الفرن الضـــيق المرهق ورائحة العجين الخصيبة الطيبة التى توحى برائحة الحياة نفسها ، اذ كان الحديث يدور وينفجر ثم يهدأ ويقر الى اتفاق وسلام وطيد تختمه الفاتحة بميثاقها ، فى أثناء ذلك كله كانت فى نفسها فجوة مفتوحة غائرة فسيحة ، فجوة فى الظلام ، منيرة بالشمس على مروج ترعى فيها على البعد الغنم ، ويجرى الى يمينها نهر سريع دافق التيار ٠ وهى تتخبط فى المياه الباردة التى تهضب وتتقلب وتدوم ، تلطم التيار بذراعين عنيدتين ، تشهق وتصرخ فى صمت ، مع فحيح النار وغمغمة الحديث الخافتة ـ وابنها الصغير على كتف أبيه وذراعا الرجل تقاومان التيار كأنهما توقفانه بمحض الارادة ٠ ومن خلال ضبابة تسطع عليها الشمس ، ترى عباءتها وقد علقت بغصن شـــــجرة

صفصاف فى مياه النهر بالقرب من الشط ، والنسيج الشفاف من البلل يصطفق فى المياه التى تتموج به وتترقرق من تحته ، تهم بأن تنزعه من الغصن الذى نشب فيه طرفه ، وعلى الشط العالى ابنها حسن وصرخة أمها النائحة التى فقدت الصواب ، وسنابك الخيل ترج الأرض ذاهبة الى أسوار مغلقة ، لا أبواب فيها ، والفجوة فى نفسها ماثلة أبدا لا تنمحى ، هى أبدا تخبط التيار وتشهق ، على وجهها مياه النهر وملح الدموع ، وقلبها المصدوع قد انشق شطرين تهاويا وانفصلا فى صدرها ، ويحيى أمامها دائما يقاوم ويمدها ، بمجرد مقاومته التى لا تستكين ، بشجاعة وجلد ، وابنها يصرخ ويتملص أبدا ويلوح بذراعيه ، والخيل تجرى لا تقف ، وهى مازالت وسط الثغرة فى المياه · وكل شىء يبدأ من جديد ، من جديد ، فى ذهول مستمر متصل من مشهد ماثل لاينزاح ، ولا ينجاب ، ولا يناله الصمت ولا النسيان · أبدا أبدا يبدأ من جديد ، فى دورة لا تقف من عذاب متوتر لايطاق ، ولا يزول · وهذا الكابوس المضىء المشمس تصطدم بحوافه مشاعر كثيفة غامضة ، الشـــيخ بوجهه الناحل الوضىء وعينه السمحتين اللتين تسطعان مع ذلك بعذاب مدفون بشهوات الرجل الناضج فى عنفوان رجولته ، شـــهوات مقهورة مكظومة لم تدن لانتصار نهائى ، بل تتحفز دائما للاندلاع ، ما هذا الرجل الذى ينطوى جســـمه الضاوى على قوة كأنها تفوق قوى البشر ، أنه يغمز قلبها ، ويفجر فيها نزعات خفية قاهرة تعصف بها وتشعل أحشاءها بوقدة مظلمة ، وهى تحس أنها لتسعد بان تؤثره حتى على نفسها ، وفى غموض لا يعرف صوت الكلمات تعرف أنها لقادرة على أن تضحى من أجله بوقود حياتها نفسه ، لو أنه أشار اليها أيسر اشارة ، بل دون أن يشير اليها · سعيدة هى بأن تضع على هيكل رجولته القوية وايمانه الوطيد الاركان قربانا من عجين نفسها الطيع ، ينضج ويحترق على أحجار جسمه المتقدة بنار عذابه العميقة ·

والشيخ يحس هذا النغم الخفى من التجاوب بينه وبينها ، تجاوب يذهب الى غور سحيق فى النفس ، تزول فيه السدود بين الأشخاص والأشياء ، بينه وهذه المرأة بجسمها اللدن المثير وعينيها المثقلتين · وقبضتاه الناحلتان المعقودة عظامهما تمسكان بمسبحة كأنه يتشبث بها من السقوط فى هوى فاغر فاه لا يرى له قرار · وهو لا يتحرك ، وجسمه مشدود كأنه سلك يوشك الآن ـ الآن ـ أن ينقصف ·

ولكن الزمن رفيق بالمعذبين المأسورين فى أصفادهم الداخلية ، وقد مضت هذه المرأة وطواها الليل ، وفى وسعه الآن أن يلتفت الى ما بين يديه · وهو ينهض ويضع مرفقه على بلاطة الفرن الامامية ، ويحس سخونتها وهو ينظر الى مأمون اذ ينشغل لحظة طويلة بمسح داخل البلاطة ، فى فوهة الفرن ، بخرقته المبلولة · ويقول الشيخ فجأة دون تمهيد :

ـ سيكون عليك يا مأمون ، منذ الغد ، أن تصحب قافلة هؤلاء القوم فى رحلتهم الى دمياط · وسوف تجدهم فى الصباح عند الباب القبلى لقصر السلطان ·

ثم أضاف باسما :

ـ وسوف تحتاج الى قوة ذراعيك هاتين يا مأمون والى جلدك واحتمالك ودقة مدخلك الى الأمور ـ مادمت لا تغضب ولا تثور · سترفع أحمالا ثقالا ونفيســـة القيمة ، مهما بدت لك غثة تافهة ، وترعاها ، بحبة عينيك ، طيلة الرحلة ، وتدفع عنهـــا العيـــون والأرصاد · لن تكون الرحلة الى دمياط لقراءة الرمل يا بنى ولا لوشوشة الودع ·· ولكن لا بأس أن تتعلم فى الطريق كيف ترقص المعزاة « مبروكة » أو أن تنفخ فى المزمار ·

ورماه مأمون بنظرة عاتبة ، تزعم لنفسها الغضب ، وقد طاب قلبه وصفا ، وعرف انه منذ الليلة يسلك طريق الجهاد ٠

خرج الشيخ ومعه محمد بن عثمان كاتب الانشاء الى حارة الخبازين ، والجدران تلتوى بهما وتضيق وتنفرج فى العتمة ، ولكن ليست بهما حاجة الى مأمون ــ وهو عريف الخبازين وصاحب أقفال الحارة ، فالدروب فى ليلة المولد تبقى حتى الفجر مفتوحة الأبواب ٠

قال الشيخ وهو يلملم جبته الجوخ ، يتلمس مواطىء قدميه ، ويتعثر أحيانا فيمد اليه الكاتب الفتى يده ، كأنما يقيه السقوط ، ولكن مهابة الشيخ تمنعه أن يمسك به ، وثقته أيضا بأن هذا الشيخ لن يسقط أبدا وان امتدت الأيادى اليه فى لهفة ٠ ثم استبان وجه الشيخ تدريجا فى العتمة ، **وهو يقول :**

ــ أعرف ما يدور بخلدك يا بن عثمان ٠ بقيت صامتا عندما ثار مأمون وفار ٠ ولم تتكلم ٠ طيب القلب هذا الفتى مأمون ٠ ومعدنه أصيل ٠ ولكنه من أهل الفلح وسيظل أبدا فلاحا ، مهما برع فى حرفته ولقن أساليب أهل المدن ٠ يخاف الغجر كما يخافهم كل أهله ٠ لا يعقل ذلك الخوف ولا يتدبره ٠ ولكن أنت يابن عثمان ، فيم هذا القلق وتردد الشك فى نفسك ؟ لا ، لا تعترض ٠ ألم يعلمك أستاذك الصدق مع النفس وأن نصدق بعضنا بعضا ؟ أنت أيضا غير مستريح لتدبيرى ٠ ولكنى أعرف أنك موضع ثقة ٠ وسوف أقول لك ، وحدك ، فاياك أن يشط بك اللسان ٠ وأنت سيد من يصـــون السر ٠ حقا وفعلا كما يقولون ٠ ان قلبك لا يطمئن لاختيارى هؤلاء القوم ٠

والشيخ اذ يوشك أن يفسر الأمر ، يتلمس هو أيضا بقية الخيوط المعلقة التى ظلت تتشابك فى ذهنه طول الوقت ، حتى التأمت

فى النهاية ، نسيجا محبوكا جيد العقد ، وهو يجهد أن ينقى لحمة هذا النسيج ، حتى يصفو له طرازه ، ويخلصه من اختلاط خيوط السدى الخلفية ، وتعقد الخيوط الأخرى التى غزلتها فيه عواطف مبهمة ونزعات عميقة منبعثة من أحشائه وصميم نفسه ، وانما يريد أن يتتبع خيوط النمط الذى يحركه العقل الصاحى المدبر ، ويترك الآن اضطراب الفتائل الخشنة الملفوفة المشعثة ، الآتية من أغوار محتدمة مجهولة القصد والنية ٠

ـ ليس بخاف عليك أن هؤلاء القوم ، كما قلت ، أصحاب طريق ، وأنضاء سفر ، ولهم به خبرة ودراية ٠ فلن يكون ترحالهم فى البلاد مستغربا ولا مثارا لقيل وقال ٠ ويخال الى أن دخولهم الى دمياط لا يكون متعذرا بل يسيرا مقربا ان شاء الله ٠

ولم يملك الفتى الا ان يتساءل :

ـ دخولهم الى دمياط ؟

ـ نعم يا بنى ! دخولهم على الاعداء فى عقر حصـــنهم ٠ اقتحامهم الأسوار المغلقة على البلد الشهيد الذى طرد منه أبناؤه وخلا للواغلين المعتدين ٠ دخولهم ومعهم أحمال غالية فى غاية من النفاسة ٠

فقال الكاتب :

ـ أموال كثيرة ؟ من فضة وذهب !

وضحك الشيخ ضحكة قصيرة مستمتعة :

ـ وما جدوى الذهب فى بلد مغلق ؟ بل من نار وحديد ٠

أوشك الفتى أن يفهم ٠ لكنه لم يصبر على سؤال شيخه ، بل **قال :**

ـ وتعهد بهذا الحمل الثمين الى هؤلاء القوم ياشيخنا ؟

ـ مازالت فى نفسك أثارة من ريبة · مازلت تخونهم · ولكن الله ألهمنى الأمن اليهم يا بنى · أليس بينهم وبين الأعداء ثأر قديم · الولد لا يباع · لا تبيعه أمه أبدا ، ولا تسكت أبدا على انتزاعه من حضنها ·

ـ كم من أمهات ثكالى وآباء فقدوا الولد يا شيخنا ؟

ـ أجل ، ولكن كم منهم تنفتح له أبواب قصر السلطان ويدخل الى حريمه ؟

ـ وما شأن القصر والحريم بما نحن فيه ؟

ـ له شأن وخطر · من أين تتأتى لنا الاحمال النفيسة التى سوف تذهب الى دمياط ؟ وما جدوى الأخبار التى تأتينا من معسكر العدو ان لم تصل الى وجهتها ومقصدها ؟ وقراءة الرمل ووشوشة الودع ، تلك يا بنى فى معظم الأحيان ستار لمؤامرات ممتدة النسيج، تهون أحيانا أو يجل أمرها ، على السواء ، قناعا ، تنتقل من ورائه الأنباء وتحاك باسمه التدابير · ومن الباب الخلفى للسلطان تخرج أثقال ، وتنتظر جارية من حريم السلطان ، تنفذ بأصحابنا هؤلاء ـ المرأة وأمها العجوز ـ الى يدى شجرة الدر نفسها ·

فتمتم الفتى من تحت أنفاسه ، وقد اصطدمت قدمه بشىء فى الظلام ، وهرب شبح مرن لدن الظهر من تحت قدميه ، يموء مواء شاكيا :

ـ لكأنى بالأبواب جميعا تنفتح لهم · يقينى انهم ســـوف يدخلون دمياط ·· !

ـ نعم ، ولكن شيخك ، على ثقته بذلك كله لم يغفل أصلا من

الأصول التى يتأسس عليها هذا العمل ، فيم تظننى أرسلت مأمونا معهم ؟ يحمل الأثقال ؟ لم أرسله لمتانة ذراعيه وجلده على رفع الاحمال ، ولا لفطنة الحرفى ابن السوق ، فحسب · وانما ذلك الى حذره وحيطته وتخونه الدائم · سوف يكون من تلقاء نفسه عينا على هؤلاء القوم ، وحارسا لا تغمض له عين ·

فوضحت الخطة كلها لعينى الشاب · لم يدع الشيخ احتياطا الا اتخـــذه ولا احتمالا الا نظر فيه وعالجه · الغجـــر يدخلون ويخرجون من كل الأبواب ، دون كبير ضجة فذلك شىء مألوف ، ويحملون العتاد والاخبار ، وعليهم دائما رقيب يقظ الريبة يترصد كل حركة وكل سكنة ، عين مفتوحة على خوف موروث قديم وحذر يكاد لعراقته يكون فطريا · ولكن هذا الجمع بين الأنقاض أمأمون العاقبة ؟ هذا التواكب على طريق طويل ، بين الغجر فى تقلب طبعهم ونزعتهم القوية الى التحرر من كل قيد ، وميلهم الفطرى الى العبث والمرح وانتهاب المتعة ، وبين الفران الريفى الأصل بخلقه الركين وحذره وميله الى الاستقرار والجد والتمكن فى الأمور ؟ ثم خوفه الذى لا يدعو الى اطمئنان ؟ فقد يرى خطرا حيث لا يكون ، وقد تثور به حميته فينقض البناء كله ؟ وهو فيما بدا جليا من ثورته الآن ، حرى بأن تصعد الدماء الى رأسه ، كما يحدث للفلاحين واذا بالفأس تقع فى الرأس ، ويفسد الأمر جميعا ·

ـ قلت لك يا بنى لا تخف · لا تظن أن شيخك قد أغفل من الأمر ركنا لم يستقصه ولم ينظر فيه ، على قدر ما أمكننى الله ·

فأجفل الفتى على رغمه · الشيخ قد قرأ ما يدور بخلده مرة أخرى ؟ أهى فطنة وزكانة من رجل أخلص للفكر نفسه ، وأرصدها للغوص فى الأعماق ، والتقرب الى الله ؟ أم هو حقا ولى من أوليائه قد كشف عنه الحجاب ؟

واستأنف الشيخ ، يتملس آخر خيط من خيوط النســـيج ويحكم آخر عقدة فيه :

ـ لن يمضى موكبهم الصغير وحده ، بأطرافه المتناقضـــة والطريق الى دمياط سالك معمور يا بنى باذن الله · تجارة البا ناشطة والبيع والشراء نافق رائج · علمتنا الأيام الكثير ·

سأحكى لك حكاية صغيرة جاءت بها الثقات ·

والشيخ انما يفيض بالحديث ، كأنه يريد أن ينفى عن نفس عكارة تختلط فيها ، ويخلصها ·

وهو يتنحنح ويخلص زوره :

ـ قالوا ان السلطان صلاح الدين يوســـف بن أيوب كان يستخدم فى معسكره بياعين دوارين ، يطوفون بالثمار والمتاع على المعســـكر · ولهم من حرفتهم عذر مقبول وتعلة سائغة أن ينتقلوا بين أطراف المعسكرين ، فى غير مشقة ·

ـ يفعلون ماذا ؟

ـ يبيعون ويشـــترون · الفاكهة والخبز والاخبار والانباء جميعا ·

ـ وتأمن ياسيدنا أيضا الى السوقة والسقطيين من الباعة

ـ ان كانوا فى حقيقة الأمر متطوعة مجاهدين ، وناسا من قلب الناس ، أرضهم هذه تحتنا يذودون عنها بالدماء وما هو أنفس من الدماء ·

ـ وهؤلاء يصحبون قافلتنا فى المسير ؟

فلم يجب الشيخ ، وصمت · **واستطرد الفتى :**

ـ ياســيدى ·· هؤلاء لا يعـــرفون ما يدور فى قافلتنا من

اصطراع · وليس لهم بصر بأهواء النفوس وتغاير المنازع ·

ـ البصر فى القلب يا محمد · والقلب عين لا تغمض ·

فلبث الفتى ينتظر ايضاحا لهذا الكلام المشكل المرموز · ولم يأته تفسير ·

فقد استغرق الشيخ هم آخر حميم ، قريب الى ذات صدره · وهو يرى النظرة المتقدة الوامقة التى كانت تتجه فى خيمة الغجر ، من وجه صليب الاركان مجدور ، خشن بالعاطفة الراسخة ، وجه الفلاح الصخرى ذى العمامة البيضاء المغسولة تتأجج فيه عينان لا تنطقان الا بشىء واحد . وهو يرسل هذا الفلاح ويعبئه وراء القافلة ، لا تعرف عنه شيئا ، ولا يعرف هو عن مهمتها شيئا ، ولكنه مكلف فحسب بأن يرافقها فى مسيرتها · هذا كل ما عهد اليه ، صـــــــراحة ·

ولكن الشيخ أعرف بما يكن حسن بن منصور فى خبيئة نفسه · هذه المرأة ــ على ما نكبتها به الأحداث ــ جد سعيدة والله ! ·· هى البؤرة الساطعة التى تلتقى فيها ، وتتركز ، هذه الأشعة المحرقة من عواطف الرجال · كلهم رجال فتيان ، لمنازعهم بهم صـــــولة واحتدام · ولكن فى عنف هذه العواطف وتقابلها ، وتجاذب أقطابها المتناحرة الذاهبة كل منهـــا الى نقيض ، فى ذلك على وجه الدقة استقرار حرج دائما ، قلق دائما ، موشك أبدا على الاختلال ، لكنه مشدود الاطراف قائم على توازن متوتر مشدود ثابت كأنه السلام والتناسق ·

ــ والله أدرى بما فى القلوب ، وهو على كل شىء قدير · اليه نكل أمرنا ، واليه التدبير ·

رتفعت أصـــوات المولد تدريجيا ودفوف المواكب الصـــوفية تتسارع نبضها فى حمى النشوة الأخيرة · والتراب فى آخر الحارة عند التقائها بحارة السقائين تحس به القدم سخنا طريا عليه برك صغيرة من الماء والطين ، تلمع فى أنوار القناديل البعيدة التى تصير الى انطفاء · ومحمد بن عثمان لا يرى الساحة ، بل عينه متجهة الى داخل فكره ، يتأمل كلام الشيخ ويجهد أن يفقه معناه ، ويعود به الخاطر الى لقياه بالغريب الأسود الذى لقنه أصول الجهاد وأكل معه الخبز والملح ، وقرأ الفاتحة معه على المخالصة فى الود والمآخاة فى سبيل الله · ودخل معه مجلس السلطان · ثم خرج سريعا فجأة لا يلوى على شىء · وكيف أتى به بالليل الى ركن الدين بيبرس فاستنطقه واستجوبه ،ولكنه لم يش خبرا ولا أفشى سرا · ولولا بقية من مودة عند الفارس لما نجا من محنة عصيبة ·

أما الشيخ فكأنه تعب من طول تعقب خيوط تدبيره ، وهو يحس نهك السعى طول النهار ، بين الفرن والخانقاة ، بين السوق والقصر ومخيم العسكر ، يلقى ذلك ، ويسوى الأمور مع الآخر ، أقطاى ونجم الصباح جارية شجرة الدر ، ومأمون وحسن بن منصور ، محمد بن عثمان ، وهذا المجلس الأخير فى الفرن · كل ذلك أرهقه الآن ، وقد تعب أيضا من مخض العواطف المتضاربة فى قلبه ، توشك أن تطيح به لولا مسكة من ارادة وعصمة من خلق متين ، ودين يملك عليه نواصى نفسه ·

وساحة السوق قد تخلخلت قليلا من زحمة الناس ، فبدت فى آخرها خيام المهاجرين القليلة ، وصفوفهم النائمة مكومة أمامها ، والاطفال ، مستكنين بين أمهاتهم ، بين ما بقى لهم من فرش قليل وما منحهم اياه السلطان ، على قارعة الطريق ، تحت أغطية خلقة تقيهم العيون · ومازال ملاعبو القردة والحواة يصرخون بأصوات

مبحوحة ، والقفازون قد همدوا بعد طول التواثب والنط ، وقعدوا أمام خيامهم مهدودى الحيل ·

الأنوار تخبو وتنطفىء الواحد بعد الآخـــر فى خيـــام الرقص والغناء · ولكن حلقات الذكر منصوبة ناشطة · وصفوف أهل الذكر وأصحاب الطرق تقف وتنحنى وتستقيم ، بحركات الانجذاب الأخير، والطبول والدفوف تدق فى لهفة النشوة النهائية ، والصيحات تنطلق متدفقة من الاحشاء تصرخ وتتضرع :

ـ الله ·· ! الله ·· ! الله ·· !

الفصل السادس عشر

كان أسامه يشق طريقه وسط شوارع المنصورة الضيقة ، على فرسه الصهباء ، فى بكرة الفجر · ومازالت السوق نائمة بعد يقظة طويلة مجهدة · وليس فى الحارة ببيوتها الضيقة المتراكبة الا بضع كلاب هزيلة يلوح على شعرها طل الصباح يبلله ، تجوس وتنبش بين أكوام القمامة الصغيرة المتناثرة ، ومخلفات السوق ، فالبلد لم تكنس بعد ولم ترش · وهب عليه هواء طيب رطب دافىء عبق برائحة الخبز الطازج من فرن مفتوح الباب ويصعد الدخان كثيفا من منافس التنور ، فلعل الفران يحمى التنور لخبزة الصباح ·

وأسامه نشط خفيف على فرسه المتوثبة التى تجيش وتتوفز لمجرد اليقظة فى الفجر والاقبال على نهار جديد ، والتشوف الى الركض على الطرقات فى الخلاء تحت السماء الفسيحة · وكان أسامه قد غادر بيت أقطاى ، حيث كان يضيفه منذ جاء ، وآخاه وأحبه ، بل وهبه أيضا جارية تركية لا تحسن الحديث بالعربية ، بعد ، لكن شد ما تحسن الحديث بعينيها ، كعينى قطة تترضاه وتتحبب اليه ، وما أروع ذلك الحوار الذى لا يحتاج الى كلمات ،

يدور بين جسديهما فى خطفات سريعة بارقة ، تتوهج وتحتدم ثم تنتهى الى الصمت العميق الملىء بالسلام · وينهض أسامه فى الفجر، يتدفق جسمه بماء الشبع والرى ، كنبات مصوح يزكو فى أرض طيبة ويهتز بالعنفوان · ولكن ليس عند الاعرابى راحة ولا صبر على الاقامة فى المدينة ، وبين الجدران ·

وهو الآن قد قر عزمه على الركوب ، حتى تخوم البلد الشهيد، وفى قلبه نزوة غامضة متلهفة ، وعزم دفين لا يثقل الصدر ، على التصيد والطراد ، واطلاق السهام ، واللعب بالسيف · اليوم يأخذ حظه ، من قتال الغزاة ومناوشتهم والايقاع بهم ، بعد أن يستمتع بالركوب على فرسه التى طالت بها الراحة والخمول فى اصـــطبل الأمير فارس الدين ، وينهض بعد أن يريحها قدر ساعة أو ساعتين ، يتصيد فى عتمة الغسق وأول الليل ، بين مخيم الفرنسيين خارج دمياط وتحت أسوارها ، وحيدا لا يظاهره الا سيفه وقوسه · لا تقية له الا جحفته الجلدية الوفية ، ولا صـــاحب معه الا فرســـه على الطريق · فما يحب الصيد والنزال حقا ، الا وحده ، وابن عمه قد عاد الى مضارب قومه الرحل الذين عساهم الآن يتنقلون فى الصحراء الشرقية ، غير بعيد من الغيطان ، طلبا للكلأ والمراعى · لا يطيب له أن يخرج فى ثلة من الفرسان المماليك أو فرسان الاعراب على السواء ، كما يفعل معظم جند السلطان ، وكما يفعل الخلق العمم الكثير من الاعراب والغزاة والمتطوعين أقبلوا من كل صوب فى جموع غفيرة لا يحصيها الا الله ، للمناوشة والجهاد والحرب · كأن شعوره بالتفوق والاستعلاء ، واستخفافه بالمخاطر ، ينأى به عن الانخراط فى جماعة أيا يبلغ مدى فروسيتها وشرفها ·

وهو اذ يدخل الســـوق ، والفجر الرمادى مازال يخيم على السماء ، يرى الدكاكين المغلقة والخيام التى دكن خيشها من بلل ندى الفجر ، والمهاجرين نائمين فى أكوامهم ، متلففين ، ويرتفع من

وسط الأجسام المتراكمة صراخ رضيع يطلب ثديا لعل ماءه قد نضب وغاض ، والصراخ يعلو نحيلا فى فراغ السوق والفجر · ونصب الحمص والثمار مغطاة بقماش من قلوع المراكب القديمة ، وفرسه تلتقط خطاها بين نفايات السوق وأكوام الناس النائمين ، جماعات جماعات ، مكومة على الحصر فى فناء المسجد ، حتى الباب ، وفى الســـاحة تحت عتبته · كلهم من الوافدين على المدينة ، أعرابا وفلاحين ، ومن أهل الصـــعيد والنوبة ، جاءوا متطوعين للغزو والجهـــاد ، يأخذون ليلة راحة فى المولد ، ثم يرحلون للغارة على الفرنسيين الواغلين ·

اقتربت الفرس براكبها فى عباءته الصوفية الخفيفة البيضاء ، من سور المنصورة ، على النيل · وتحت السور أكوام أخرى من الأحجار والملاط والرمال ومعدات البناء ، وحولها خيام البنائين والنجارين وأهل الحرف والصناعات وقد انطفأت نيران مواقدهم وغشـــى جمرها رماد أبيض كثيف · ودار أســـامه بفرسه بحذاء الســـور حتى اقترب من ثغرة فيه ، أمامها ركام عال من أحجار ورمال ، ونظر اليه الحرس بعيون حمراء مثقلة الجفون من السهر ، وقد لفوا العباءات حول أجسامهم ، يسيرون على الأرض ، يدبون بأقدامهم طلبا للدفء ويكهكهون وهم ينفخون فى أيديهم ، على أن اليوم صائف ، لكن برد الفجر له قرة قارسة مفاجئة ·

وسرعان ما كان أسامه ينهب الطريق على النيل ، والشوانى والسفن الحربية على يساره متكاتفة متقاربة ، عالية ومنخفضة ، ضخمة ثقيلة ومسطحة خفيفة تتمايل ، هادئة فى مراســـيها حتى ليسمع اصطفاق الماء بجوانبها ، لكنها قاتمة السطوح بما عليها من العدة والرجال النائمين تحت الأغطية الداكنة ·

وكانت فرســـه ماتزال تتوثب وتجيش بالتوتر والاقبال على

الطريق ، فى حموة الضـــحى ، وقد لمع العرق على جنبيها ، لكن الركوب الهين لم ينل من أنفاسها الرتيبة المرتاحة ، وهى تصهل اذ تقترب من موكب قادم من الشمال يسير خببا فى غير تعجل ، والجياد ترد عليها بصهيل فيه نزوع وشوق فطرى ينادى ، وأسامه اذ يدنو من القادمين يطامن سرعة فرسه ثم يقف جنب سبيل فى الطريق · والموكب يسترعى نظره ويجذبه حتى ليواكبه راجعا بضـــعة من الطريق · كان فى وسط كوكبة الفرسان العرب بغال كثيرة عجفاء ناصـــلة الجلد ، تبدو كالأنقاض المحطومة ، يركبها أســـرى من الفرنسيين وجوههم الى الخلف متجهة نحو الذيول ، وفى أيديهم أصفاد من الحديد وضعوها على جسوم البغال ، راكبين من غير ســـروج وثيابهم البيضاء المعلمة بالذراعين المتقاطعين الحمراوين ملطخة بدم ورشاش طين ، قد اصفرت واغبرت وتمزقت خرقا مهلهلة على الأكتاف المقوسة المنهارة تخرج منها أذرع شعراء عارية ·· ووجوههم عليها زغب خشن أخضـــر كاب ، لم يحلق منذ أيام ، وشعورهم ملبدة تحيط بالوجوه الشـــاحبة المتدهورة ، فى جدائل عقدها وسبخها التراب والعرق ، وفى عيونهم نظرة غائبة ·

نظر اليهم أسامه وعيناه لامعتان بالدهشـــة والعجب · انه يراهم لأول مرة · فهؤلاء هم الغزاة الجبابرة العاتون ، هذه الحطام المرمية على البغال ، سلمت بكل شىء وفقدت كل اهتمام بما يدور ، منفية فى أبعاد غربتها الشاسعة وحيدة وحدة لابرء منها ، وســـط ضجيج الموكب العائد المنتصر ·

اقترب أسامه من أحد الفرسان وألقى بالسلام وسأل :

ـ من أين الأسرى يا أخى ؟

ـ من صيداء الشام ·

ـ صيداء الشام ؟ فأنتم من دمشق ؟

ـ أى نعم من دمشق الفيحاء · كان ذلك فتحا من الله مبينا

ـ الحمد لله · وهل حضرت حصار صيداء يا أخى ؟

ـ أى نعم · وكان شاقا ومريرا · لكن الله أيدنا ، وأخذنا نحن أهل دمشق ، ثأركم لدمياط ·

ـ صيداء مقابل دمياط · دمشق تهب للانتقام للقاهرة · ذلك وحده نصر من الله يا أخى ·

ألسنا كلنا يا أبناء العرب كالبنيان الواحد المرصوص ؟ اذا أصاب الضر لبنة فيه تداعى له سائر البنيان بالمظاهرة والتأييد ·

ـ وهل حضرت دمياط يا أخى ؟

فلمعت عينا أسامه لمعتهما المألوفة ، وقال ونبرة الاستخفاف انما تخفى شجنا وأسى :

ـ أما دمياط فقد شهدت يومها يا أخى ، لكنها ليست المحط ولا المناط وها أنذا عائد الى أسوارها أتصيد صيدا كهذا الطير النحس الآتى من صيداء !

وضحك الدمشقى ضحكة مجلجلة وابتسم بعض صحبه الذين سمعوا حديث الأعرابى على فرسه الصهباء ، واقتحم أحدهم الحديث :

ـ طير مقصوص الجناح ، غربان الشؤم هؤلاء · ولكننا قد عدنا كذلك برؤوس بعض الطير الذى وقع ·

وأشار الشامى الى أفراس يركبها قادة الموكب ، على الجانب الآخر من الطريق · وانفرجت الخيل براكبها قليلا حتى يتسنى للاعرابى أن يرى ما يشير اليه الشامى الضخم الأبيض الوجه الطيب الملامح ·

كانت تتدلى من جوانب السروج رؤوس بشرية مجزوزة عند العنق ، وقد جفت بشرتها الشقراء وتغضنت وحال لونها الى صفرة مغبرة كابية ، عليها أيضا طبقة خفيفة خضراء من شعر الذقن ، وتستهدل عليها فتائل من شعر ملبد جاف · حدقت الرؤوس الميتة الى أسامه بأعين مفتوحة شاخصة ، فيها نظرة غائمة متسايلة ، وأفواه فاغرة كأنها تصرخ من غير صوت · والرؤوس قد ضمرت قليلا وصغرت ، وهى تهتز مع خبب الجياد ، وتخبط جنوب الخيل لا تملك من أمرها شيئا ، تكاثفت عليها أرتال من ذباب ضخم له طنين ، والصقور والحدأ تهوم فى السماء فى دوائر واسعة ·

عيونهم الآن مفتوحة مائية ، لا ترى ، ورؤوسهم تتدلى من على السروج مربوطة من شعرها بالحبال ، أفواهها فاغرة على التراب الذى تثيره سنابك الخيل من الطريق · وأسامه صامت تتقد عيناه بألق الاستخفاف بكل شىء · أهذا ما شقى هؤلاء فى سبيله ، يبارحوا أوطانهم وبيوتهم وأهلهم له ؟ ما أهون الدنيا على أصحابها ، وما أطمعهم فيها ؟ وما أقسى خديعتها لهم · وقلبه الخفيف المستهتر تنوش أطرافه شفقة هينة خفية ورثاء لا يقر لنفسه به ، ولكن فى نفسه حسا غامضا بعدالة قاسية لا تعرف هوادة · عدالة حق ، تقيمها الحياة ، لها منطقها الذى لا يغلب أولئك الأسرى الذين بلغت بهم الذلة حد الضياع ، وهذه الرؤوس المجزوزة كرؤوس الخراف ، شواهد مبينة على تلك العدالة ، وليس فى شعوره حس بالنصـــــر والزهو ، بل بالرهبة · الرهبة أمام منطق العدالة والجزاء الحق · دفعه هذا الشعور الغامض ، وحفزه حس بأنه لا ينبغى له الآن أن ينظر فى ذلك ولا أن ينخله ويفحص عنه ، فانه لجدير لو استغرقه ، أن يذهب عنه طلاوة الصيد الذى خرج اليه ، ولهفته الى الطراد والقنص · دون كلمة نخس فرسه التى كانت الجياد تصهل وتتواثب وتتدانى اليها ، وثنى عنانها الى دمياط ·

كانت فرسه خفيفة ماتزال ، تتنزى وكأنها ترقص ،اذ تعدو فى غسق الليل عبر الغيطان ، وبين المستنقعات الضحلة · ثم ترتفع الى آكام عريضة فسيحة رملية · وخيام الجنود العرب منصوبة متجمعة فى معسكرات صغيرة متناثرة ، مؤقتة ، من فرق الحرس والمتطوعين ، بينها نيران بعيدة صغيرة ·

أسوار دمياط الشهيدة قائمة من بعيد ، غريبة الآن ، لا طريق اليها · وأنفاس البحر الملحة تأتيه ، فيها مرارة لاذعة · وقد كان واقفا منذ ساعة ، خلف كن من الشجر ، على فرسه ، يربت عنقها ملاطفا ربتة ملحة خاصة · والفرس تحس التوتر والخطر ، فلا تصهل ولا تحمحم ، بل تقف جامدة كصخر منحوت · وأسامه بعينه النافذة الحديدية يرقب حرس المعســـكر الفرنسى وخيامه الأمامية القليلة المتباعدة تنطفىء فيها الأنوار الواحدة بعد الأخرى ، وصفوف الخيـــام الخلفية الكثيرة بعيدة معتمة ، تتوقد بينها نيران دقيقة لامعة ، كعيون خبيثة · وقد هدأت أصوات الخيل والنداء فى قلب المعسكر ، ولاحظ أسامه أن الحرس يطوفون بالمعسكر فرادى ، يمر الواحد منهم على جواده ثم يمضى ، ويخلو الصف الامامى من الحراسة فترة من الزمن حتى يعود حارس آخر بعد انقضاء هنيهة وافية · وليس عنده الآن الا يقظة الصائد المتربص وحذر المهاجم بغتة يحسب الفرص ويقدرها ·

وغير بعيد من أمامه ظهر فارس بخوذته الحـــديدية ، رفع قناعها من على وجهه ، فى درعه الثقيلة ، على جواد ضخم يخب ببطء ورزانة · والفارس الفرنجى يدنو قريبا منه حتى يومض ضوء الهلال الصغير على درعه ، ويتأهب أســـامه ويتجمع ، والفارس يصيح صيحة غريبة بلغته ، ويتردد صـــدى الصيحة الأجنبية فى الغيطان وبين الخيام ، لا يجيب عليها أحد · ثم يخفت وقع السنابك اذ يدور الفارس حول معسكره · وما يكاد يختفى شبحه حتى ينطلق

أسامه بفرسه ، ودماؤه تدق ، لكن رأسه صاح صاف ، ويده على مقبض سيفه فى الغمد الجلدى الصفيق ، وسنابك فرسه ترج الأرض وحدها فى الليل الساكن ، حتى يصل الى خيمة مظلمة ، وأسامه يتحرك بسرعة خارقة فى ضوء الهلال البازغ الأحمر الذى يثير فى ذهنه ذكريات لم تغف بعد ، ليلة أن صحب أقطاى الى هذه البقعة أمام أسوار دمياط . وكأن الذكرى تحفزه على العمل الخاطف الدقيق الصامت . فهو ينزل من على فرسه بخفة ، ويربطها فى وتد أمام الخيمة ربطة خفيفة غير موثقة . ويسل سيفه العربى الرقيق الحاد ويرفع ستر الخيمة من غير صوت ، يسترق الخطى فى خفه الجلدى الناعم ، ويلقى بنظرة سريعة الى الداخل ثم الى الخلف ، وقد سمع صوت حوافر قادمة . ويرخى الستر وراءه فاذا هو فى الظلام ، رائحة القش والعرق والسكنى فى حيز ضيق تصدم أنفه . ويقف صامتا بلا حراك ، سيفه وراء ظهره حتى لا يلمع فى الظلام ، وأنفاسه محبوسة ، حتى يخفت وقع الحوافر فى الخارج ، وعيناه قد ألفتا الظلام. وعلى كومة من القش مفرودة على لوح من الخشب ، ينام جندى غليظ ، ويغط الرجل فجأة ويشخر ويدمدم فى نومه ، وبجانبه زميل له يتململ وينقلب على جنبه .

وكل شىء يجرى بعد ذلك فى حركة متصلة خاطفة . الرجل يهب جالسا فجأة ، ويفتح عينيه كأنما حفزه احساس خفى أنذره بالخطر . وأسامه يثب على الفور ويخبط الرجل النائم أولا كى يأمن من غيلته ، على رأسه ، بمقبض سيفه خبطة قوية فى المؤخرة يصدر عنها هديد مكتوم . وأنة تخفت على الفور . وفى هذه اللحظة الوامضة كانت عينا الثانى قد انفتحتا على سعتهما وصوت حشرجته قد أخذ يعلو فى صدره ويغرغر ، من الذعر ، على وشك الانطلاق فى صيحة مدوية ، ويده التى كانت قد أمتدت الى زميله لتنهره وتوقظه قد سكنت فى منتصف الطريق اليه ، مرفوعة متطلبة ، اذ رأى العربى وأضاء فى ذهنه الموقف . وأسامه يثب فاذا هو على

رأسه شبحا مداهما فى الظلام بثيابه البيض ، وسيفه المسلول يرتفع قائما فى الهواء · والفرنسى الغليظ الجسم قد هب على قدميه وانحل عنه سحر الذعر الأول والمباغتة ، وفى يده خنجر اختطفه من كومة مهوشة بجانبه من الملابس · ولكن فمه قد انطبقت عليه يد قابضة معقودة الأصابع كأنها كلابة ، تسد عليه النفس ، وتكتم صرخته · وهما يتلاحمان فى عناق مطبق ، وثيق اللفات ، وجسماهما قد التصقا كأنهما من كيان واحد ، ولكن الأذرع والسيقان تتملص وتشـــتبك وتدور على الأجسام فى احتكاك لصيق ، واليدان مشتبكتان قابضتان على الرسغين ، تذودان عن الجسم حد الخنجر وشفار السيف ، والأذرع ممدودة متصلبة تهتز فى عزم تسفح فيه آخر قطرة ، لكى ينفك ويضـــرب · والاقدام كأنها تحفر الأرض فى تشبثها وتثبتها وتمكنها من الوقفة ، حتى لا ترتفع عن الأرض ، والأنفاس تخرج متحشرجة مبهورة ، وعرق النضال المستميت قد تفصد على الوجوه وتقاطر فى مكامن الجسم الداخلية عند الأبطين وبين الفخذين ·· وأسامه تثب فى قلبه فجأة شعلة الاستهتار والمغامرة ، فيرفع ساقه فجأة ــ وقد تكون نهايته فى تلك اللحظة الخاطفة التى تتخلى فيها ساقه عن الأرض ــ لكنه فى خفة ونزق مستمتع بالمخاطرة ، يرفعها ويثبت بالأرض بكل عزمه وقوته ، ويخبط الآخر بعقب رجله ، مرة واحدة عنيفة ، ثم تلتف ساقه بعد الضربة تحت ركبة الآخر ، فاذا الآخر ينهار على الأرض بكل ثقله ، وفوقه أسامه ، وقد سقط عنه الخنجر · والسيف يغوص فى الاضلاع · وأسامه يسله بسرعة ، وقد صفا ذهنه وتوهج ، وعلى شفتيه ابتسامة مستهترة لا يراها أحد فى الظلام ، ولا يتردد أسامه بعد ذلك لحظة واحدة · بوسعه أيضا أن يجز الراسين ، وينال عنهما جائزة · لكنه لا يفعل ، كأنه يستنكف هذا العمل الذى هو من حقه ، ومن شـــريعة الحرب التى يأتيها المسلمون والصليبيون على السواء · ويقف يصغى الى انفاس النائم المتحشرجة الخافتة ، وينصت الى حوافر الحرس تدور مرة أخرى ·

الحارس يطلق صـــرخة كأن فيها ذعرا يلتمس الشـــجاعة عليه بالصراخ ، ثم يسارع من خطو جواده ، فى اللحظة التى كان فيها أسامه قد انحنى فاحتمل النائم الغائب عن وعيه على ظهره ، بعد أن تحســـس جنبيه واختطف خنجره وخنجر الآخر فأولجهما فى منطقته ، وهو يثب فى ضوء الليل الخارجى تحت الهلال الذى شحبت حمرته بسرعة ، واذا بالأسير مقنطر أمامه على الفرس الصهباء وهى تثب خفيفة مطواعة سريعة الى كن الشجر ، لم يحس بها أحد ، وتعود فى طريقها الى خيام المعسكر العربى ٠

وأسامه اذ يعود على فرسه ، يربت فجأة على ظهر الأسير الضخم الغائب ، مازال ،عن الوعى ، فى حذو وخفة قلب ٠ هذا صيده الليلة ، صيد حلال ٠

وفى الليلة التالية وجد حارس آخر ، ممددا مجزوز الرأس ، على مائدة خشبية ، ورأسه مفقود ٠

كان أسامه قد حكى مغامرته الصغيرة لفئة من عسكر المماليك ٠٠ وانفتح الطريق أمام غارات الليل ٠ طلائع الفرنسيين يخرجون للكشف ، فلا يعودون ٠ والحرس يطلع عليهم الصباح أجســـاما ممدودة على الأرض من غير رؤوس ٠

حدث أن أوغل جوتييه دنتراك مع حارسه كاستيون فى الحقول المحيطة بالمعسكر ، هجم عليه رعيل من فرسان المماليك ، فألقاه حصانه على الأرض ، وهرب عنه تابعه ، وسقط السيد فى درعه الثقيلة ، كحيوان ضخم قد أحيط به ، وتعاورته الهراوات بالضرب ، وثلة من الفرسان الفرنسيين وحرس الملك تقبل بســـرعة ، لكنها لا تنال من الهاجمين العرب شيئا ، وتعود بالفارس جريحا مدنفا ، ومات ليلتها ٠

كان أسرى الفرنسيين يصلون فى كل زمن قليل الى المنصورة ويرسلون منها الى القاهرة ليعملوا فى بناء الأسوار والحصون · فى أوائل ربيع الأول ، وصل منهم الى القاهرة ستة وثلاثون فيهم فارسان ، ثم سبعة وثلاثون فى خامس ربيع الآخر ، ثم اثنان وعشرون ، وخمسة وأربعون ، وخمسون ، لا ينقطع ورودهم · والمتطوعة والعربان ماتنى تنال من معسكر المغيرين الواغلين بالمناوشة والنخس والوخز والمناجزة ·

وأصدر لويس التاسع أمره بأن يغير نظام الحراسة ، وأن تقف فرق أصحاب الأقواس ورماة النشاب وحرس الليل صفا متراصا حول المعسكر الصليبى ·· لا يتركون فى صفهم ثغرة ·

الفصل السابع عشر

ـ آمه ، أريد من العسل ٠٠ أنا مالى ٠٠ هه ٠٠ أريد من العسل ٠٠ !

كانت البغال تنوء بأحمال من جرار العسل ، تسير الى جنب الطريق ، ومواكب الخيل ماتنى تخطف ذاهبة آتية ، تثير عليها سحابة من الغبار ، وقوافل الناس والدواب تماشيهم ، تسبقهم وتتخلف عنهم ، وحر آخر يولية مرهق يأخذ بالأنفاس ٠ والتفتت بهية الى ابنها ، وهى تمسك بيده ، وقد سال قلبها من المحبة ، لكنها نهرته :

ـ اسكت يا على ، اخرس ٠ بعد قليل نقف ونرتاح وتأكل حتى تشبع عسلا ٠٠ !

ـ أنا مالى ٠٠ الآن ، هه ٠ أريد من العسد ٠٠٠ ال ٠٠ !

والاصرار فى لهجته والالحاح يعلو ويلج ، فهو احتجاج طفلى مقنع على مشقة السير ، واقرار للارادة الصغيرة التى تعتمل فى نفسه ٠

ـ اخرس قلت لك · داهية تاخدك ·

والدعوة انما ينطق بها فمها ، آلية لا معنى لها ، أما صدرها فيهتز له رقة وحدبا ، ولكنها من الضنك وضيقة النفس ، تفرج عن همها بالدعوة عليه · والطفل لا يفهم الا اللهجة الصلبة والرفض ، فيجهش فى البكاء وينتسف يده من يدها ليرمى بوجهه فى حجر جدته التى تعرج خلف القافلة الصغيرة ، متوكئة على عصا غليظة بها عقد لامعة من القدم ومن طول مصاحبتها على الطريق · والجدة تربت رأسه بيدها اليابسة ، صامتة ، غائمة العينين ، تحس نفسها عجوزا مهملة خلفها الزمن ، لا تملك امضاء حكم ولا انفاذ ارادة · ولكن البهلوان القصير يثب فجأة على البغلة التى تهتز تحته ، ويقعد القرفصاء على ظهرها ، وهو يشير الى الصبى اشـــارات سريعة متآمرة ضـــاحكة ، دون أن يتكلم ، والطفل قد بهرته هذه الحركة وفاجأته ، فصمت معلق العينين بمسرور ، يضع أصبعه فى فمه ، بتلهف متوتر مأخوذ ·

هتف مأمون الفرا ن، وهو يسير خلف القافلة بجانب العجوز ، وفى وجهه مضض السفر واجهاد الرقابة اليقظة الدائمة :

ـ حاسب · ماذا تفعل هناك ؟ انزل ·

فرفع مسرور يده باسطا كفها الى وجه مأمون ، نازلا بها فى اتجاهه ، بحركة متلاحقة دالة على التثبيط وتهوين الخطب ، كأنما تقول له ، ياشيخ ، انحط أنت واسكت · ماذا جرى ؟ وأنت مالك ؟ ثم قال بصوت معابث ساخر **وهو يقلب شفتيه ويزم عينيه ، هذا المهرج :**

ـ لا تخف يا مأمون يافران · هذه جرة مأمونة من العسل السكر ·· !

غرف مسرور من العسل الذى يترجرج تحت عنق الجرة ، وملأ منه صحفة مدورة القعر ، ثم قفز ، دون أن يريق منه قطرة ، وذهب الى الصبى الذى أقبل عليه بعيون نهمة فرحة مازالت مطلولة بالدمع ، وقد أشرق وجهه · وبعد لحظة واحدة عزف عن العسل ، ولم يعد يلعق منه شيئا ، كأنه لم يكن يريده قط ·

كانت الأنظار جميعا فى القافلة قد اتجهت الى هذه اللعبة الخطرة ، اذ كانت البرانى الضخمة البطناء فى الحقيقة تخفى تحت العسل براما أخرى أصغر ، ملففة بالخرق الصفيقة المحكمة ، فيها سائل النفط النفيس ، والعسل فى كل برنية واسعة العنق ، يغطى برمة داخلية أصغر ، ويسيل عليها ويحيط بها · هذا السائل الثمين مصدره من « حوائج خاناه » السلطان فى المنصورة ، ووجهته أنى حلقة المجاهدين المغامرين بأنفسهم للجهاد فى دمياط · وبعض البرام تحتوى على أجزاء حديدية مفككة ، محشورة بالليف والخرق المبللة بالزيت حتى لا ترتطم بالفخار ولا ينالها الصدأ · وبرام أخرى فيها خناجر قصيرة ومدى طويلة ملففة كذلك ·

وفى القافلة كلها جو من التوتر ، كأسلاك مشدودة مهتزة غير مرئية ، توشك فى كل لحظة أن تنقطع · مصاحبتهم لهذه البضاعة الخطرة من شأنها ، وحدها ، أن تبرى العصب فى أجسامهم المكدودة من السفر ، أما رفقة هذا الفران الغريب عنهم ، وقد أوفده الشيخ عبد الله ليساعد فى تحميل وتنزيل البرانى الثقيلة الخطرة ويدخل معهم دمياط ــ هذه الرفقة فى الليل أو النهار ، وعينه الثاقبة الماكرة التى يهتز فيها سائل خطر آخر من الشك والحذر الدائم ، وذكرى ثورته فى ليلة الفرن ، وان كانت قد انتهت الى مصالحة ومعاهدة على حسن الصحبة ــ فهى تجعل السير أشق وأضنى على الجسم والقلب معا ·

وقد مرت القافلة بالمستنقعات وآكام الرمال العريضة ، وأخذت الغيطان تقل وتتباعد وتراب الأرض السوداء يزداد صـــفرة من الرمال ، والطريق تزدحم بالجنود والرسل والعربان والفرسان · ولاحت خيام المعسكرات العربية الصغيرة المنتشرة بين الغيطان وعلى الآكام أمام دمياط ، وكأن الساحة كلها سوق كبير مترامى الأطراف، لكنه سوق فيه حس بالخطر والترقب والترصد · والهواء أصبح رقيقا ملحا فيه لذعة طيبة منعشة ·

والقافلة قد نشطت الآن ، وفضت عنها الوهن والتعب ، فقد قاربت الوصـــول ، وشارفت على اجتياز الشـــقة الفسيحة بين المعسكرين ، وأصبح عليها الآن ان تواجه الشق الأدق والأخطر من رحلتها · **وقد قطعوا الطريق بحذاء مخيم عربى صغير ، ومر بهم نفر من الجند العرب الشابين ، فهتف احدهم يميل على العجوز :**

ـ أوشوش العسل يا خالتى ؟

وصاح آخر ، وهو يشير الى بهية ضاحكا :

ـ أنا أريد من هذا العسل ·· !

فضحك الجنود فى لحاهم الكثيفة ، الخشنة ، ضحكة عريضة المدى وهم يسيرون الى حالهم ·

وخرج من بعض الخيام المنخفضة الناحلة اللون جماعة من الباعة الدوارين ، يحملون قففا مغطاة فيها عجور وبطيخ وقثاء ، ومقاطف ضخمة تخرج من حوافيها أشلاء دامية ، حمراء بيضاء ، من أفخاذ الضأن والبقر ، ملفوفة بخرق ملطخة بالدم ، ينض منها الماء ، ويئز حولها الذباب الكبير الأخضر · وآخرون يحملون دفافا رصت عليها صفوف من أرغفة الخبز ، مدورة كبيرة · وانضمت

هذه الجماعة الصــــغيرة من الباعة ، ومعها باعة آخرون كانوا يماشون القافلة على الطريق ، الى قافلة الغجر باعة العســـــل ٠ وانعقدت بينهم الأحاديث والأخبار يقصون كيف نهب جنود الفرنج منذ أيام بعض الباعة وضربوهم وتركوهم تحت السور بين الحياة والموت ، جرحى محطومى العظام ، لولا أن أسرع اليهم فرسان قيل أنهم من فرسان ملك الفرنجة نفسه ، ومعهم طبيب داواهم وطبب لهم بطبه الغريب ٠ ونقلهم الفرســـــان حتى حافة الشــــقة الحرام بين المعسكرين وتركوهم هناك بعد أن طيبوا خاطرهم بدراهم مصورة من الفضة ٠

لحظت بهية ، بعين المرأة ، وجها بدا لها مألوفا بين الباعة ٠ وصاحب الوجه فتى ربعة ، يجنح الى القصر لكنه راسخ البنيان ٠ هذا الوجه المجدور الصارم الفكين ، بعينيه العميقتين ٠ انها رأته فى مكان ما ٠٠ متى ، أين ؟ تعصاها الذاكرة الآن ٠٠ لعلها رأته فى سوق من الأسواق ، كم من وجوه مرت عليها ومضت ؟

واذ أوشكت القافلة التى تضخمت الآن وامتلأت أن تأخذ طريقا وسط الحقول المهملة الصغيرة الزروع ، ثم فلاحون قلائل ينحنون فيها ، مازالوا متشبثين بأرضهم طالما كانت فى غير حكم الغزاة ، كأنما لا تعنيهم مصائر الجيوش المرتطمة حواليهم ، والطيور البيضاء تقف على ساق واحدة ، تنقر الأرض فجأة ثم تطير وتسف من جديد ٠ عندئذ أقبل فارسان من ناحية المعســـــكر العربى أحدهما باذخ فى ملابسه وزرديته وخوذته المذهبة ، على جواد أشهب فاره ، والآخر أسمر منحوف فى ثيابه البيضاء وعقاله البدوى ، على فرس صهباء خفيفة ٠ وانقض الفارسان على قافلة البياعين ، وشحب وجه بهية على الفور ، وتوتر مأمون ويحيى ومسرور ، حتى الصبى فزع الى جدته صامتا مذعورا على فمه بقايا العسل اللزج يمسحها بيده المتربة فتزيد لزوجة وترابا ٠

عرفت بهية على الفور هذين الفارسين اللذين تتبعاها فى ليلة المولد بالمنصورة · وتدهور قلبها لحظة واحدة ثم ارتفع صاعدا للفور على تيار من التحدى والتأهب ، وقد التأم شتات نفسها · هجم الفارسان لا يلويان على شىء وسط الطريق الضيقة ، ينقضان على قافلة البياعين التى تبددت على الفور منحدرة الى الغيطان ، تطأ الزروع الرقيقة · ولم يبق على قارعة الطريق من الباعة الا جماعة الغجر ، وقد انضمت الى بعضها البعض بينما سـقطت العجوز تحتضن الطفل وتحميه بذراعها على جنب الطريق ، بجوار ترعة صغيرة شحيحة الماء ، تطفو على سطحها نباتات عريضة خضراء وخمة المظهر · ومأمون قد استدار الى الفارسين يواجههما وفى عينيه غضب مكتوم عاجز ، قد ضم قبضتيه ودار ذهنه ، فانه ليدرك أن لا حول له أمام هذين الفارسين المدججين بالسلاح · ويحيى يسند يده على ظهر احدى البغلات ، يقف جهم الوجه منتظرا ، كأنما تجمد وتصلب ، لا تتحرك عيناه الشاخصتان المظلمتان · منذ أن فقد ابنه ، وقام ذلك الحاجز الصلد من الجفوة التامة واللامبالاة بينه وبين امرأته ، اصبح كمن يقف فى وسط حلم سىء لا ينتهى ، لا يدهش ولا يفجؤه شىء ·

ولكن بقى على الطريق على خطوات قليلة من القافلة ، ذلك البياع المجدور الوجه الذى يتعمم بعمامة متربة على طـاقية سوداء من اللباد، وثوبا قديما تركت عليه الرحلة آثارها· وقد وضع قفة الفاكهة على الأرض واقترب بسرعة من الغجر ، فشق طريقه بين البغال ، ونحى عنه الفتى القصـير ذا السراويل الحائلة ، ووقف بقامته الربعة كأنها حائط منخفض لكنه ركين لا يتضعضع ويده فى داخل ثوبه ، فى حركة لا تخطئها عين ، يمسك شيئا ما ، سكينا أو خنجرا . فى حزامه الداخلى ·

الفارسان بجواديهما ، وهما يقفان أمام القافلة فجأة ، يطلان

من قمة جواديهما على الجماعة الصــــغيرة ، والتراب قد ثار بين قوائم الخيل ، والصهيل يرتفع من خطمين تسقط منهما خيوط رقيقة بيضاء ٠

وكأنما خلا المشهد كله من الناس ، ولم تبق فى بؤرته الا تلك الجماعة المترابطة بشباك من الهوى واليأس والمأساة والأواصــــر البدائية التى لا تنفك ، ولا غلاب لها ٠

لم ير أقطاى الا هذه القامة اللدنة الممشوقة التى عذبت لياليه ، كأنها سيف يتحداه ، غضة كأنها ثمرة طيبة ريقة ريعانة بالعصارة ٠ **وساد السكون لحظة قصيرة ، ثم قطعه أسامه باسما وهو ينهج قليلا :**

ــ قلت لك ان الأرض لن تبلعها ، لكنك والله لحقتها فى آخر الطريق ٠ فلعل الأسوار كانت تطويها ، لولا ان ادركتها يافارس الدين ٠

لم يتزلزل الرجل المجــــدور الوجه ، فى وقفته الوطيدة أمام المرأة ، ولم تطرف عينه ٠ كان يرى الفارسين أمامه ، عاليين على جواديهما ، لهما هيبة رادعة من السلاح والدروع ، لكن فى نفسه تصميما غير عاقل ، وحرارة متوهجة تبهر عينه عن مرأى كل شىء ، وليس فى يديه وجسمه كله الا ارادة واحدة كأنها مستقلة عنه ، تفرض قانونها الذى لا يرد ، ان يدفع عن هذه المرأة كل خطر ، بأى ثمن ٠ وساقاه الصلدتان كأنما انغرزتا بالأرض ، لن تتزعزعا ٠

ولم يملك أسامه الا أن يلحظ هذا الفلاح الغريب ، ونظرته المتقدة فى وجهه الصخرى المنقور ، كأنما مرت عليه آلاف السنين ، دون أن تنال من صلابته الراسخة العريقة ٠ **ولمعة الاستهتار تضوء فى عينى الفارس البدوى ، وهو يهتف بالعجوز :**

ــ اتقرأين الرمل ياعجوز ؟ هل تعرفين ماذا سيحدث الآن ؟

كان الفارسان فى ثقتهما الكاملة بأنهما لابد محققان مايريدانه ، وأنهما بعد لحظة وجيزة سيعودان بهذه المرأة المشتهاة التى طالما انسربت من بين أيديهما ، يحســـان أن بوسعهما التمهل لحظة ، وتجنب الاصطدام الذى لا جدوى منه ٠

لم يكن اقطاى ، ولا أســـامه يقيمان كبير وزن لما قد تجره مؤامرتهما على الحلقة من ضرر ، كان بيبرس هو المنوط به أن يمدها بالنفط والسلاح من مخازن قصر السلطان ٠ والمرأة وحدها ، لن تعوق سير الجهاد اذا توارت عن المشهد ٠ والرجال كفيلون بأن ينهضوا بالمهمة خير نهوض ٠ وليس دور الفارسين فى هذه الحكاية الغريبة عن تهريب السلاح والنفط الى المدينة المحاصرة ، بل دورهما فى القتال على الميادين المكشوفة ٠

لم يتكلم أقطاى ٠ كان فى حلقه جفاف ، وقلبه ينقبض من اللهفة والتشوف ومقاربة ادراك طلبته ٠ وفى عينيه هذه القامة الطرية الغنية بالكنوز ، فى ثوبها المخطط ، ونهديها المرفوعين بتحد ، ورأسها الناهض الذى لا ذلة فيه ولا خوف ٠

وكأن متع الحياة كلها قد خبت وانطفأ بريقها ، ولم تعد الا هذه الشهوة الرائعة ، تملأ جنبات العالم بوعود من سعادة لا عمق لها ولا حد لها ، ولذائذ حارة لا تفرغ كأنهار من العسل واللبن متدفقة ابدا يتمرغ الجسم فى أمواجها الوثيرة ٠

لم يتحرك أحد ، لحظة واحدة ، لكنها كانت لحظة حاســـمة وقاطعة ٠ ثم جاءت الصدفة التى يندر ان تجىء ٠

انشق الأفق عن رهط كبير من فرسان الفرنج ٠ أقبلوا على جيادهم الغليظة العالية المتون ، من بعيد ، وأعناق الجياد ممدودة

مداهمة ، ودروع الفرسان تنعكس عليها الشمس ، وقد مدوا أمامهم رماحهم الطويلة ، كأنهم معا حيوان جماعى واحد شائك لا يصد ٠

تبادل الفارسان العربيان نظرة واحدة ٠ فلا قبل لهما ، قطعا ، بهذا الحيوان الشائك ، ونيته على القتل واضحة وحادة السنان ، واذ بالجوادين يدوران ويخطفان الأرض وســـــط الحقول ، بين الزروع الرقيقة ، نحو المعسكر العربى ٠

انقشعت سحابة عن الجماعة الصغيرة صحيح ، ولكن غيما كثيفا مكفهرا أدركها واطبق عليها ٠

واذا ارتجت الأرض بسنابك الخيل المداهمة المنتشرة على حلقة واسعة حول الجماعة الصغيرة من البياعين ، دبت فى مأمون حياة جديدة مفاجئة ٠ كان أسرعهم الى ادراك الموقف ، وفهم عواقبه ، وحسن الحيلة له ٠ وقد ارتفع وقع السنابك واقترب جدا ، عندما هجم مأمون على غير انتظار ، وشد حسن بن منصور من ذراعه الى الوراء ، شدة عنيفة لم يكن الفلاح الربعة ينتظرها ، وجذبه معه الى منحدر الطريق ، وفى خطوتين كانا معا ، فى وسط سائر البياعين واقفين جميعا وأمامهم بضاعتهم وهو يهمس به همسا ملحا :

ــ بحق العهد والميثاق أطعنى واسمع الكلام ٠ هذا ســـوف يرضى عنه شيخنا عبد الله ٠

كان للمبادرة أثرها على حسن ، فتخلخلت ارادته فى اللحظة الواحدة الدقيقة التوقيت التى يصـــعب بعدها الرجوع ٠ واذ هو لا يفترق عن سائر البياعين، رجلا مسالما متاجرا يبيع بضــــاعته البريئة من الفاكهة ، وقد أذهله أن يرى هذا الرجل من قافلة الغجر يستثير اسم الشيخ كأنه رقية وتعويذة أو كلمة سر ، وفهم فجأة ان القافلة تخفى حيلة من حيل الجهاد ، وأنها حلقة من السلسلة الخفية المتينة الممتدة على طول البلاد وعرضها ، لمقاومة الغزاة ٠

لم يعد الأمر الآن أن يدفع عن هذه المرأة التى يكن لها مشاعر تزلزل قلبه ، بل حقت عليه الطاعة ٠

ومامون يهمس به .

ـ دعها . سوف تعرف كيف تحسن تدبير أمرها مع الفرنج . ولعلها ان تنفعنا داخل دمياط .

أحدق الفرســان بالباعة ، شــارعى رماحهم أمامهم ، وهم يلغطون بحديثهم الغريب . ولكن بعض الباعة كانوا يفهمون عنهم كلمات قليلة من ممارستهم التجارة معهم تحت أسوار دمياط ، وعاد حسن يفكر مرة أخرى فى نوع من التسليم وطيبة القلب أن التجارة هى التجارة وأن الناس مضطرة على أى حال أن تعيش ، وأن الله غفور رحيم .

وتقدم شيخ مقوس الظهر ضئيل الكتفين ، من الباعة ، تبدو عليه الطيبة والمكر معا . وقال لهم بلغتهم :

ـ تجار .. نحن عندنا بضــاعة للجنود . فاكهة . لحم . عسل . بضاعة نريد نقود .. فضة ..

أجال قائدهم الشاب نظره فى الباعة ومقاطفهم وأقفاصــهم وبرانيهم وهتف بأمر لأحد رجاله، فنزل الرجل من على جواده . ومازال رمحه بيده ، وأخذ يقلب البطيخ على الأرض ويكشــف الخرق عن أفخاذ الذبائح وجنوبها الدامية ، ثم اقترب من برانى العسل .

والجماعة الواقفة على الطريق لم يعد أحد منها ينظر الى أحد ، عصبهم مشــدود وقلوبهم واجفة ، ولكن رؤوســهم ثابتة ووجوههم جامدة .

تقدمت بهية فجأة وابتسمت للقائد الشاب وجســمها يترقرق تحت ثوبها كأنها ترقص ، فوقف الجندى وابتســم عن نواجــذه ابتسامة بذيئة عارية الأنياب ، حتى سمع صيحة غاضبة من سيده ،

فامحت الابتسامة عن وجهه الخشـــن الحليق وأغلق فمه ، كأنما بصعوبة ٠ورجع يضع قدميه فى الركاب ليصعد على جواده ٠ بثقل كانت بهية قد التفتت ٠ أعطت ظهرها البديع الطويل للقائد الشاب ورفعت برنية صغيرة من على جنب احدى البغال ، ثم عادت ومازالت تبتسم ، وعصابتها القصب الحمراء على رأسها تدور بخصـــلات شعرها الأسود الفاحم ، وفى عينيها لمعان غريب عميق ، وهى تغرز عينيها فى عينى القائد الشاب الوسيم العريض المنكبين ، وتمد يديها تحمل البرنيةالصغيرة فى حركة هبة لا تحتاج لبيان ، كأنها تقدم له قربانا ، وعطية تتجاوز مجرد العسل فى الاناء الفخارى ، وتتضمن وعودا حلوة جدا ، أخرى ٠

وضمت البرنية الى صدرها الوافر الراسخ ، على بطنها ، فى عناق حميم مثير ، ورفعت الخرقة المتجمدة بالطين الجاف النظيف عن عنق الاناء ، واهتز العسل الأبيض الكثيف القوام ، فى عتمة الاناء الداخلية الغامضة ، تحت عينى القائد الشاب ٠

فضحك الفتى وهو يقول كلاما ســـريعا مضــــطربا من الفرح والانتظار والتوتر وأشار اليهم جميعا ان يتقدموا ، وعاد مع فرسانه بعد أن ترك فارسين يحرسان الباعة حتى خيام المعسكر الفرنجى وحتى أبواب دمياط ٠

فى تلك الليلة كان الرجل ذو العباءة السوداء ، ومعه جبره وابنه اسحاق ومأمون الفران ، فى بيت مضيفهم المطل على النيل فى حارة الصباغين قد أخرجوا البرام المدورة المليئة بالنفط ، وركبوا زراقات النفط ، والخناجر ، والمدى ٠

وارتفعت ، بعد منتصف الليل ، صيحات تتجاوب وتتردد بين حوارى وشوارع دمياط الأسيرة ، وسنابك الخيل ، تدق الأرض ،

والدخان الكثيف يتصاعد فى أعمدة سوداء ثقيلة من مخازن المؤن والسلاح ٠

وفى الصبح عثر الفرنجة على أربعة منهم قتلى فى حارتين على مدخل السوق الكبير ، ولم يكن فى الحارتين الا بيوت منخفضـــة حقيرة ، تركها أهلها خاوية ولم يسكنها أحد من الفرنجة الوافدين ٠

كان الجنود الفرنجة قد اشتروا يومها ، من على مدخل السوق، عسلا طيبا من عسل النحل ٠

وفى الفجر هجم فارسان على بيت جبره بن توفيلس ٠ كان أحدهما فتى شابا وثيق الكتفين مترفع النظرة ، والآخر تابعا أبطن قصيرا معقد الأسارير ٠ وكان على الصغير يبكى ويتشبث بأردان جدته عندما خرج الفارسان ومعهما أمه ، وحدها ، من البيت ٠

الفصل الثامن عشر

نهض ايرار ديزميراى بقامته الفـــارعة من على المائدة التى مازالت مغطاة ، على مفرشها من الحرير الدمقسى ، بصحاف خشبية ضخمة ، وبقايا أرغفة الخبز المستديرة السميكة القوام البيضاء البطون ، ونتف من اللحم بردت وأغبر دهنها الأبيض وأبريق من الخزف قد فرغ النبيذ منه ، وكانت الغرفة مدخنة وحارة من خشب الموقدة ، ومد يده فأمسك بعظمة كبيرة مازالت تنشب بها نسائر لحم مشعثة ، وألقاها الى كلب جسيم البدن ، طويل الشعر ، مسترخى الأذنين ، وزام الكلب ونفض شعره الملبد الضارب الى صهبة داكنة. ولقف العظمة فرفسه الفارس فجأة على جنبه الأبيض المرقط ببقع منداحة ضاربة الى الاحمرار ، وعوى الكلب عواء حادا مضطربا فضحك الفارس وهو يجفف يديه الدهنتين فى طرف غطاء المائدة الحريرى ، وتجشأ بصوت عال مستمتع وقال : « كان هذا طيبا » وضحك مع ضيوفه وهم يرددون : « كان هذا ، حقا ، طيبا » .

أجالت بهية النظر اليهم متأملة ، ساهمة ، من مكانها على مقعد غير ذى ظهر محفور ومنقوش بشــــارة الأمير الفرنسى غائرة فى

الخشب الثمين : شجرة صنوبر قصيرة عليها تاج مثلث الاطراف ، وقد ربطت شعرها كالفرنسيات بشبكة من الخيوط الذهبية تلمع فى سواد جدائلها الغنية ، وانفتح صدر قميصها الأبيض الناعم الذيل عن صدرها الوفير المحبوس المدور ، عاريا حتى نصفه ، تحت المئزر البنفسجى الموشى بفرو أسود ، ينسدل سابغا على ســـاقيها حتى القدمين ، فقد تعلمت من الفرنسيات · وكان وجهها على نضارته الفطرية يزداد التماعا فى نور المسارج ونار الموقدة ، بعد أن ذرت عليه مسحوق الفول الأبيض وطيبته ــ وصدرها وذراعيها ــ بلبن الخيل ·

قام جان دى جوانفيل بوجهه النحيل المسحوب مازالت تبدو عليه آثار ساعات طويلة من الاستغراق فى القراءة والتفكير والكتابة، وراول دى وانون بشعره الأصفر الطويل وعينيه الزرقاوين الباردتين ووجهه الأشـــقر كأن النار لفحته ، وفيرى دى لوى بوجهه المدور الرخى القسمات وعينيه المائيتين المهتزتين أبدا كأن نظرته لا تثبت على شىء ، وجان دى فاليرى العريض الاكتاف الذى يرتفع عنهم جميعا بطوله وصـــوته الجهورى ونظرته الحصـــيفة الواثقة ، ونساؤهم الى جانبهم ، تفوح منهن بقوة عطور الصـــندل والزنبق والمستكى معا ، تتفصد حبات العرق على جباههن المدورة وأثدائهن المدورة ، ومنهن من تزيى بزى المصـــريات ، بطواق من الحـــرير الأخضر والأزرق ، وعصابات قصيرة من الديباج الفستقى ودراعات مكشوفة الصدر ومآزر فلفلية مذهبة ، وعتابيات مخططة بالطول وهن يضحكن أيضا ويتهامسن بأصوات نعمها النبيذ والامتلاء ·

كانت الغرفة ثقيلة الهواء بروائح الطعام الحريفة بالينسون والصعتر والثوم وعطور النساء الآتية من الشـــرق والغرب على السواء ، والنار تفح فى الموقد الذى احتفر فى الحائط تحترق فيه كتل ضخمة مقطوعة من سيقان الخشب المدورة ·

نهض الفرسان الخمسة وراء نسائهم ، يطأون السجاد العربى بنعالهم العالية التى جف عليها وحل الطريق ، وريح الشتاء الباردة ، تهز الستائر الثقيلة المثبتة بأوتاد على الأبواب وعلى خصاص المشربيات المشبك بزخارف دقيقة مخروطة كأنها عيون هندسية باهرة الجمال ، مخبوءة عمياء ٠

كانت بهية منذ خطفها ديزميراى قد تعلمت جانبا من لغتهم لقنتها من الفارس الشاب والنساء الفرنسيات فى هذا البيت الذى كان للسيد طاهر المحروقى شهبندر التجار ، وهو اذ يخطو الى الباب ، ثقيلا ، راضيا ، حليقا ناعم القسمات فى سرواله الضيق الطويل الذى يحبك ساقيه المفتولتى العضلات وقميصه الصوفى المطرز الموشى بفراء من القاقم الأبيض ، ويشد صدره العريض ، تطوف فى نفسها خطفات من اقتحاماته العارمة لها ، فى أولى لياليه ، ورائحة جسمه الزهمة ـ هؤلاءالفرنج لا يستحمون ابدا ! ـ واستسلامها ، وهى سلبية جامدة ٠

وتنوش ذهنها فكرة تراودها ، وتنحيها : أهو استسلام من جانبها فقط ، أم قبول أيضا ، ولعله ترحيب خفى بهذه الرجولة الغريبة المعادية والمطلوبة فى وقت معا ؟ فكرة تنحيها بسرعة ولكن جسمها ، من جانبه لا يستطيع ان ينحيها ٠ كان ينام معها فى الغرفة العلوية نفسها ، وعلى حشيات القطن الوثيرة المكسوة بالكتان الاخميمى ، خادمه الفلاح ، وبجانبه سيفه ورمحه بلحيته القذرة الملبدة ونظرته المتبلدة ، مع امرأة جاءت مع الحملة وراء الجيش ٠ للحياء عند هؤلاء الناس معنى غريب ٠٠ ! أما هى فقد انحسرت كل حياة من هذه الاعتداءات التى أصبحت الآن مألوفة ، وغريبة فى الوقت نفسه ، كأنما لا صلة لها بها ٠ لكن للجسم حنانا خفيا صامتا، ومستقلا ٠ وعرف الفارس الفرنجى هذا الحنان ، وأساء فهمه ، لذلك سمح لها ان تغادر البيت من غير حراسة ٠

وأمكن لها أن تتردد على بيت جبره بن توفيلس فتزور أمها وترى ابنها ، وفى زيارتها السريعة الملهوفة تنقل الى الغريب ذى الملابس السوداء ما التقطته من أخبار الجيش الفرنسى ، وما وصل اليها عن مواقع مخـــازنه ونظام حراســـتها وخـروج الفرسـان للاستكشاف ٠

وكانت الحرائق تشتعل ، من غير تفسير ، فى السفن ومخازن الأسلحة ، والقتلى يعثر عليهم فى الحارات والشـــوارع المهجورة المظلمة ، وظفرت البحارة المصرية بمسطح فرنسى فيه مقاتلة بالقرب من نستراوة ، فى ١٥ من رجب ذلك العام ، كيف عرفوا مســـيره واتجاه رحلته ؟ وكانت سرايا المناوشة من الجنود المصريين تهجم على أطراف مخيمات الجيش بالضبط عندما تتغير نوبات الحراسة وتتراخى اليقظة المتوترة فتتخطف الأسرى أو تقتل الجند والرؤساء وتعود برؤوسهم ، وقد رسم الســـلطان دينارا ذهبيا عن كل رأس من رؤوس الفرنسيين يؤتى له به ٠

وأخذت المؤونة والأقوات تشح فى دمياط على أثر اسراف القادة والنبلاء الفرسان فى نصب المآدب الباذخة والاغراق فى انتهاب المتع واللذائذ الفاحشة ، وعندئذ أخذ الجنود المصريون يحتجزون التجار والباعة الدوارين عن الوصول الى مخيمات الجيش الفرنسى ودخول دمياط ، الا القلة النزرة التى احتالت على الحصـــار ، وكأنما المصريون قد عرفوا بطريقة ما أن الجيش الفرنسى يعانى من ضذانة الزاد والمؤن والعتاد من الطعام ٠

وكان ديزميراى ، مستأمنا الى هذا الحنان الجسدى الموصول بينه والغجرية المصرية ، لا يفهمه تماما ولكنه يعتمد عليه ، يتيح لجماعة الغجر الصغيرة تجار العســل : يحيى ومأمون والعجوز والولد الصغير ، أن يخرجوا من الأسوار ويعودوا اليها بعد حين .

يغيبون بضعة أيام للتزود بالعســـل ، ويعودون مثقلين بالبرانى المدورة ، لا تعوقهم عقبة فى الخروج والدخول ٠

وعلى الطرف الآخر من الشـــــبكة تدخل العجوز الى بلاط السلطان تقرأ الطالع لجواريه وتفتح الرمل بين يدى السلطانة ، وقافلة العسالين يصـــحبها فارسان من امرة بيبرس حتى تخوم المعسكر المصرى ، ويرحب بها جنود ديزميراى اذ يرون البغال تهتز تحت أثقالها من هذه البرانى المدورة المنبعجة البطون المليئة عسلا ، ما يدور فى ذهن أحد منهم أن فيها أيضا مصرعه أو مقتل زميله ، وأن فيها سلاحا أفتك وأضرى من جريدة عسكر كاملة ٠

بهية تهم الآن بالقيام ــ لم تحذق بعد آداب الســــلوك عند الفرنسيين فقد كان ينبغى ان تكون هى البادئة بالنهوض والرجال ينتظرون ــ وقد غثت نفسها قليلا ، مرة أخرى ، من المآكل الغريبة التى لم تألفها بعد تماما ولم يطب لها مذاق فى فمها حتى الآن : التوابل الحريفة فى كل شىء ، يضمخ بها الحلو أيضا ، والدهن واللحم السمين والامعاء المشوية المحشوة باللحم المفروم ثم السمك المطهو بطرائق تميع النفس . نصف نىء ونصف مشوى ، والنبيذ الأحمر الثقيل القوام ٠ وربت ديزميراى فجأة على ظهرها ، ومسح على شعرها المربوط بخيوط ذهبية مرصعة بجواهر صغار متألقة ، وهى تكتم رعدة سرت فى جســـدها من مس يديه الزلقتين بالدهن واللحم على شعرها ، أرعدة تقزز أم ترقب ــ على الرغم منها ــ للمتعة ؟ فينحنى عليها وهو يضحك ويخطفها من قميصها العلوى النصفى المنفرج الردنين عن صدرها الملىء ، ويلف خصرها المطوق بمنطقة ضيقة وثيقة الضيق وموشاة بالذهب وهو يلتفت لأصحابه :

ــ ساحرة أسيرتى المصرية هذه ، جاريتى الغجرية ٠٠ !

كانت بوجهها الأسمر المسمسم الدقيق القسمات ، يطوف به اشعاع غامض من الأنوثة الممتهنة ، تثير فى الفرسان نوازع خفية غامضة ، وصدرها فى ثوبها الفرنسى يبدو خمريا لدنا فى تدويره الرخى ، تنوس عليه قلادة عربية من ذهب رقيق مشغول فى أطرافها أجراس دقيقة جدا لها صلصلة خافتة موسيقية الايقاع ، والتفت عليها العيون الزرقاء الباردة والثاقبة والمهتزة والواثقة والمتأملة والمترفعة ، معا ، كلها تجيش بتعبير واحد فيه لمعة من الشبع بالأكل الدسم والشبق بدفء النار ووهج النبيذ الأحمر ٠

قال دى فاليرى بصوته البطىء المتحفظ وهو يبصق على السجاد :

ـ هيا بنا يا ايرار ، فلنذهب ٠ والا تأخرنا عن اللحاق بالزورق ٠

وارتفعت صيحات الاستعجال والمرح والتلهف الى متعة أخرى بالخروج ٠

كانت دمياط ليلتها مزينة بالمشاعل والأنوار والرايات الأجنبية وأمارات الفرح كأنها هى أيضا أسيرة قد استبيحت للغاصبين فألبسوها زيهم الغريب المتلألىء على أساها الدفين ٠ كان الكونت دى بواتييه قد وصل من عكا صباح اليوم ليلحق بأخيه الملك لويس وقد بقى فيها طوال هذه الشهور السبعة بعد أن انحرفت الرياح بسفنه عند مقدم الحملة فى أبريل ورمت بها على شواطىء الشام وكان موقف الحملة قد تحرج ، فالجيش مرابط فى دمياط ينتظر وصول بقيتها من الشام ، والمؤونة قد أخذت تنحسر وتفرغ ، والجو الغريب على الفرسان والجنود أثار فى نفوسهم نزوات النهب والشبق ، ورواسب وحشية قديمة ، فكانوا يغيرون على التجار ، بل أقاموا المواخير حول بيت الملك القديس نفسه ، وراحوا يهبشون المتع

ويصيبون ما استطاعوا من ملذات ، مع الخواطى الفرنسيات اللواتى جئن مع الحملة فى زى الرجال ·

كانت الشـــوارع عندما خرجت هذه الجمـاعة من الفرسان والنبلاء تموج بالجنود فى أقبيتهم الجلدية أو القماشـــية المتينة ، متمنطقين بالسكاكين والبلط ، على رؤوسهم قلنسوات وأقباع من الصوف أو الجلد ، والنبلاء على جيادهم فى معاطفهم المطرزة وأطواق الفرو الناعم بيضاء أو سمراء تحيط بأعناقهم ، والرهبان بملابس الحجاج وفى أيديهم العصــــى ، والكهنة بثيابهم الطويلة وأكمامهم المحفوفة بالدانتيلا البيضاء ، والنساء يســــحبن أذيال ثيابهن فى الشوارع المسبخة بالطين والوحل تنسرب فيها مجار رفيعة من الماء العكر الكريه الرائحة ، ويلتقطن خطـــاهن بين أكوام من النفايات والمعى والمصارين ملقاة أمام البيوت تلغ فيها الكلاب المتيقظة بالليل. وتتعارك حواليها القطط ، لا يلقين لذلك كله بالا بل يحاذرن أشـــد الحذر من ان تنكشف كواحل سيقانهن فى المشى أو الركوب ، وان كانت صدورهن عارية تحت أنوار المشاعل المتراقصة ، فى فتحتها المربعة الموشاة ، عليها شيلان من الصوف الناعم · والخيل تخب فى الشوارع وتطس الماء تحت سنابكها على الثياب الغالية والخشنة سواء ، والخدم يصيحون أمام سادتهم ، وساحة الســـوق باهرة الضوء بالقناديل والمشاعل المرشوقة فى الحيطان ، والمشاعل التى تحملها صفوف من الخدم أمام البيوت ، والغلايين والشوانى والسفن المسماة بالحمام والجمال والخيالة مضــــاءة أيضـــا على البحر والزوارق الخفاف فى النيل تروح وتغدو ، تمرق بمجاذيفها النشطة الكثيرة السريعة الحركة وعليها حمولتها من الأشراف مع نسائهم تتناهى منها ضحكات رنانة وخشنة ومخمورة ·

عندما اقتربت من الشط جماعة الفرسان الخمسة ونساؤهم ، وبهية بينهم تخطر فى ثيابها السابغة وحذائها الجلدى الناعم ، وقد

ربطت مئزرها بعرى فاخرة من الحرير المفتول تتدلى تحت صدرها ، شاهدت على جسر النيل الموحل جماعة أخرى من الأسرى المصريين، يصرفون فى الخدمة الشاقة ، حتى فى الليل ، تصريف العبيد ، أقدامهم عارية مغروزة فى الطين ، وثيابهم خلقة يطير بها هواء الشتاء البارد، فى سيقانهم قيود من الحديد والخشب المنقوب ، أجسامهم ضاوية واضحة الزرقة من قرة البرد ، يتحركون فى بطء وثقل وهم يمدون السقالات الخشبية من الشط الى الزوارق ، وعلى رؤوسهم فرسان الحرس الفرنسى برماحهم الطويلة ، ينظرون الى كل شىء فى ملل وضجر ، فهم فى الخدمة الآن ٠

ومركب صغير يمرق أمام الشط ، فيه فرسان من الفرنج ، قد لبسوا ملابس المماليك وتزيوا بزيهم وسلاحهم ، يهتفون سكارى طافحين من السكر بالعربية المكسورة :

ــ اللا ٠٠ ه ٠ أكبا ٠٠ ر ٠٠ ! اللا ٠٠ ه ٠٠ أكبا ٠٠ ر ٠٠ !

احتقن وجهها بالدم المكظوم ، وغلا فى قلبها حقد لا شفاء له ٠ وودت لو انتقعت فيها هذه الغلة الصادية ، هذا العطش المحرق فى صدرها ٠ فوران الدم فى دخيلتها ، فيه تشف ورضى دفين ٠ فهى تنتقم لنفسها ، ولقومها ، ولدينها ، وهى تقوم بجهاد أشق وحده من الغزو الصريح وامتشاق السيف فى الساحات ، وهذا الدور الذى استباحت نفسها كلها له ، وامتهنت حياتها كلها له ، فيه من الازدواج والثنائية ما يؤود بها ، وهى فى كل لحظة تتذرع بصبر مرير ، وقوة تنوء بها العصبة من الرجال ، وعصبها دائما مشدود يقظ يلقف كل اهتزازة وكل نأمة ٠ ألا تخفى عن نفسها ــ مع ذلك ــ متعة خفية بما فى هذا الدور نفسه من خبرات حسية ثرة ــ والخطر الذى تعيشه ألا يحمل صلبه أيضا نواة ناعمة من اللذة ، غريبة عنه وملتصقة به التصاقا حميما ؟

فى الصباح التالى انعقد المجلس الحربى الذى دعا اليه لويس التاسع فى دمياط للتشاور فى سير الحملة ، واتجاهها ، وانفاذها ٠

كان الملك بوجهه الشاحب الدقيق الملامح ، وجدائله المقصوصة، يجلس على كرسى عال مطعم له أربع أذرع مدورة من الزان النفيس، وعلى رأسه ظلة موشاة برسوم خضراء على شكل زهور الزنبق ، ناحل الجسم طويلا فى ثيابه البيضاء البسيطة على قميص من الشعر يرتديه تحت مئزره ، وعيناه القلقتان تدوران فى حشد النبلاء والقادة الذين التأموا أمامه حول خوان طويل مغطى بفرش ثمين من الديباج مسروق من دمياط ، والغرفة على سعتها حارة منعقدة الجو بوهج النار المستعرة فى الموقد الضخم ، ونور النهار الغائم ٠

كان الكونت بيير دى بريتانى يتحدث منذ قليل من الزمن ، بصوته الأغن الخفيض الثابت النبرات ، يقول رأيه فى المسألة التى دعا لويس هذا المجلس الحربى لبحثها والبت بالرأى فيها ٠

ـ « ٠٠ والاسكندرية ليست بعيدة على سفننا ، ولا شك أنها مزودة بالمؤن والذخائر ، مما يحتاجه الجيش فى حالته التى تعرفونها الآن ٠ واذا فاجأناها فلن يصعب علينا أن نأخذها بسهولة ٠ وعندئذ فان النصر السهل القريب من شأنه أن يرفع من روح جنودنا ٠

واسمحوا لى ، مولاى وسادتى ، أن الفت أنظاركم الى مدى هبوط هذه الروح فى الحملة كلها الآن ، بعد الوقفة الطويلة هنا فى دمياط ، وتناقص المؤونة ، ومناوشات العدو التى لا تتوقف ، من غير نتيجة حاسمة ٠٠ »

كان يأتى بالحجج المنطقية واحدة اثر الأخـــرى ، بايجــاز ووضوح ، ولكن صــــوته الرتيب بغنته الخفيفة كان يفتقر الى كل

حرارة ، لا يكاد يصل الى الاقناع ، باستواء طبقته والملل الذى يخامره ، اما الكونت دارتوا فكان يقلب النظر بينه وبين الملك ، ويتململ فى جلسته ، ويعبث بسواك فى أسنانه وهو يبتسم ابتسامة خبيثة عن هذه الاسنان القاسية الصلبة ٠

« ٠٠ ولن يكون الطريق من الاسكندرية الى القاهرة أطول ولا أشق من الطريق الذى علينا أن نسلكه من مواقعنا هنا ٠ على العكس تماما ٠ فلو بادرنا الى الزحف على القاهرة بعد أن نؤمن الاسكندرية مباشرة ، لوجدنا الطريق فى معظمه خاليا من أية مقاومة يعتد بها ٠ لن يسهل على السلطان أن ينقل بسرعة جيشه المحتشد على طول المسافة بين دمياط والمنصورة ، عبر الدلتا فى هذا الشتاء المطير الموحل ٠ أما لو قررنا الزحف من هنا الى القاهرة مباشـــرة فســـــوف يتعين علينا أن نشـــــق طريقنا بالقتال فى مواقع متعددة والاشتباك مع القوات الرئيسية للسلطان وهى متحصنة فى مراكزها منتظمة الامداد وافرة الزاد والعتاد ٠ الى جانب اضـــــطرارنا ان نخصص فرقا من الجيش لملاقاة وصد فرق المناوشة وعصابات القتال الخلفى فى مؤخرة جيشنا ٠ أعتقد مخلصا مولاى وسادتى أن الخطة المثلى هى أن نتجه بالســـــفن الى الاسكندرية أولا ونرسى بمرفئها الواسع الحصين ونستولى عليها ـ لن يكون ذلك كما أسلفت صعبا على الاطلاق ، ثم ننقض بسرعة على القاهرة » ٠

كان صوته قد خفت فى نهاية حديثه وانحدر الى غاية من الملل والرتابة ٠ كانت عقيدته الثابتة بصواب رأيه ووضوح هذا الصواب لكل ذى عينين أكبر من أن تدعه يتحمس لها ٠ هذا الوضوح البدهى عنده لا يكاد يحتاج الى بيان أو كلام أو حماسة ٠

هل كان فى طبقة ما من طبقات نفسه ، أيضا ، أن غباوة الناس، مهما كانت قداستهم ومهما خلصت نياتهم ـ وانقيادهم لمشـــــاعرهم

وانفعـــالاتهم ، مما لا يمكن معه أن تهتز بمنطق أو عقل أو نقـــاء رأى ؟ ٠

صمت لويس التاسع ، ودارت عيناه فى المجلس ٠ لم يكن قد حسم ــ هو ــ رأيا وكانت الوجوه الحليقة الضخمة عليها تعبير من الضجر والسرحان كأن أصاحبها يسمعون موعظة قديمة مألوفة من عظات يوم الأحد ٠

ولكن الكونت دارتوا كان قد رمى بالسواك من يده فى حركة عنف ، وهتف ، وهو يشب على مقعده ويجمع ساقيه تحت المقعد كأنه يهم بالوثوب وصاح فى صوت كالنباح :

ــ مولاى ٠٠ سادتى ٠٠ اسمحوا لى ٠٠ هذا كله مجرد كلام منمق حسن الوصـــف ٠ لسنا ــ نحن ــ هنا رهبانا فى السوربون نسوق الحجج ونرتب البراهين ولسنا تلاميذ ندرس أرسطو !

نحن فى مجلس حرب ٠٠ حرب ! حرب ٠٠ ! نحن نقاتل ! الاســـكندرية ؟ لماذا ننحـرف ونرجع ، وندور ، والطريق أمامنا مستقيم ؟ هل نخاف القتال ؟ هل ندور حول الحرب ؟ لسنا نخاف القتال ، نحن سوف نشق طريقنا على جثث هؤلاء الكفار ٠٠ ! دعنى أؤكد لك ان الاسكندرية سوف تبقى تنتظرنا ، لن تنخسف بها الأرض ٠٠ عاصمة السلطان هى القاهرة ٠٠ والقاهرة هى التى سنأخذها ٠٠ الآن ٠٠ أولا ٠٠ على الفور ٠٠ جنودنا يفوقون كل ما يستطيع هذا السلطان أن يجمع من قوات ٠٠ اذا أردنا أن نقتل الأفعى فلنبدأ بسحق رأسها ٠ ورأس الأفعى هى القاهرة ــ مولاى ٠٠ سادتى ٠ فلنسحق رأس الأفعى ٠٠ الآن ٠٠ !

واعتدل فى جلسته ٠ كان صوته النارى المحتدم قد ترك عند القادة النبلاء توترا ويقظة وحماسة ظامئة للقسوة ٠ وعندما تحدث

بعض البارونات يظاهرون خطة الكونت دى بريتانى دهشـــوا هم أنفسهم اذ سمعوا أصواتهم مترددة تسلل الوهن وعدم اليقين اليها ٠

كان الكونت ألفونس دى بواتييه ، أخو الملك ، قائد المشاة ، والفرايار جويوم دى سوناك قائد كتيبة فرسان الدواية ، وهنرى الأول دى لوزهنـــان ملك قبرص ، والكونت جويوم دى فلاندر ، كلهم ، من أنصار الهجوم المباشر على القاهرة فارتفعت أصواتهم متلاحقة تدعو الى بدء الهجوم ، أما الأسقف أودون توسكولوم وبعض القادة الذين يؤيدون خطة الاسكندرية فسراعن ما تضعضعت ارادتهم وخاصة اذ ادركوا ان لويس التاسع يصغو الى خطة أخيه بالرضا والتحبيذ ٠

عندما انفض المجلس وخرج الأشراف يحيطون بالكونت دارتوا ويتلاغطون ، لحظ بعضهم عربيا ناحلا هضـــيم الوجه فى ملابس سوداء يلف حول وسطه زنارا كالأقباط يبيع للحرس شرابا أبيض ساخنا كثيف القوام يفرغه من برنية صغيرة فى أكواز من النحاس ، ويضحك مع الحرس ، ولكن عينيه يقظتان مدببتان حادتا السنان ٠

فى صباح اليوم التالى خرجت جماعة تجار العسل من أبواب دمياط ، لتتزود ببضاعة جديدة فى هذا الشتاء من أرياف البلد ، وبعد يومين دعت السلطانة شجرة الدر تلك العجوز الغجرية صاحبة الودع لتقرأ لها الطالع ، وتفتح الرمل ، وفى مساء اليوم نفســـه خرجت جريدة ضخمة من العسكر ، خفافا من غير أحمال ، تظاهر المعسكر المصرى امام دمياط ٠

وبعد ثلاثة أيام عادت حلقة العسالين من البرامون ، محملة بالبرانى الضخام وسرعان ما نفقت بضاعتهم من عسل النحل ٠

ورأت طلائع الفرنسيين خيام المعسكر المصرى تتقوض ، وأثقاله ترحل ، وصفوفه تلتئم وتتأهب ٠

واشتدت بعد ذلك المناوشة والمناجزة بين طلائع الفرنسيين وفرسان المصريين وكثرت غارات البدو فى الليل على أطراف المعسكر الصليبى ونشب حريق كبير فى بطسة كبيرة من السفن الصليبية الضخمة القابعة فى الميناء ، كانت نارها تشتعل بألسنتها الطويلة المدخنة فى سماء الشتاء وتنعكس على المدينة كلها ، ولم يستطع شرطة الملك لويس التاسع أن تصل الى سر مقتل الجنود والفرسان الذين كانت جثثهم تتكشف متطرحة فى الحارات والدروب ، وعزتها الشرطة الى القلق والمشاحنات على المال والنساء ، والنعرات بين فئات الجنود المتباينة من القبارصة والفلاحين الفرنسيين واتباع الأشراف وجنود الشام التابعين لفرسان الاسبتارية والداوية ٠

كان فى دمياط كلها روح خفية من التهديد والخطر ، كأن المدينة الشهيدة مازالت تتنفس تحت وطأة الاحتلال ومازالت تشيع فيها سحابة لا ترى لكنها تقبض الصدور وتناوش القلوب بمخاوف غامضة مبهمة لكنها حقيقية ماثلة مرهوبة السطوة ٠

الفصل التاسع عشر

عندما دخلت بهية الى الفرن ، حرصت على ان ترد مصراعى الباب الخشبى بعناية ، وراءها ، فحجبت زفيف الريح ، وهبت النار وتوثبت فى حلق الفرن اذ مستها لفحة الهواء ، ولملم الجالسون على الكليم الصوفى الخشن أثوابهم حولهم يحاولون أن يعصموا أنفسهم من عصف هذه اللفحة الباردة · وجوههم الصلبة الخشنة ، بأعينهم اللامعة يتراقص عليها ضوء ذبالة المسرجة المعلقة فى السقف وانعكاس النار من داخل التنور ·

خطت بهية اليهم فى عباءتها الزيتونى السابغة ونقابها من اللون نفسه · رقصة خفيفة مجنحة ، وكأن فيها ايقاعا جديدا غير مألوف فيه خفة مكسوبة منذ عهد قريب وفيه أيضا نضج وثقل ، فى وسط صخور الرجال · وهى تحدس فيهم ، بغموض ، قساوة ما ، وهشاشة أيضا · وجلست فى آخر المجلس ، عند الباب ، وهى تعرف انه ، فى النهاية ، لن يستعصى عليها أحد · كانت فى الفترة الأخيرة على الأخص قد عركت الرجال حقا ، وزادت حنكتها بهم ·

كانت حلقة الفتوة كلها مجتمعــــة الليلة لأول مرة بعد زمن طويل · وقد مرت شهور طوال عبر الصيف وأوائل الشتاء ، منذ أن شربوا الماء والملح مثنى وجماعات ، لم يشربوه قط معا ، فلعل هذه الجلسة الليلة آخر حلقاتهم · كانت الأحداث قد تعاقبت على البلاد ، توارى السلطان وقد تفاقمت به العلة ، وخرج الفرنسيون من دمياط وزحفوا على البلاد تناوشهم الجنود المصرية دون أن توقفهم ، حتى وصلوا الى بحر أشموم ، وعسكروا أمام المنصورة ·

خرجت جماعة المجاهدين فى مؤخرة الجيش الفرنســـى من دمياط ، وشقت طريقها عبر الترع والغيطان الى المنصورة ، وعادت العجوز قارئة الودع بأخبار جليلة تنبىء بموت السلطان ، وان الأمر كله تدبره السلطانة شجرة الدر مع أمير العسكر فخر الدين ، وأنها تخفى خبر الســلطان · وقد ســـافر أقطاى فى رحلة غير معروفة المقصد ، ثم عاد ·

وتقدم الشتاء ، والعربان والمتطوعة والفلاحون والحرافيش والزعارة قدموا الى المنصورة ، مع الفقهاء والشيوخ والكتاب وحتى أهل الحرف والصنايع ، فى جموع غفيرة ، وانتظموا فى المعسكرات أو ضربوا خيامهم حولها ، يقيمون التحصينات ويناجز الاعداء من فقه فيهم صنعة الحرب والقتال ، ومن لقنها على حداثة عهد بها ، على السواء ·

كانت الحلقة قد نهضت بدورها فى المقاومة الخفية ، والجهاد عبر صفوف القتال ، ولكن ثم الليلة جوا متوترا يخيم عليها ، كما حدث فى الماضى مرارا ، لكنه الآن أشـــــد انطباقا وأثقل وطأة ، بوضوح ·

والغريب الأسود فى جلسته على رأس الحلقة ، بجانب الفرن

مباشرة ، يعلو الجميع بقامته الناحلة الضاوية المشدودة أبدا بطاقة متجددة لا تغيض ، مطبق الشفتين ، فى وجهه الطويل قطوب خفيف لا ينفر ، ولكنه ، على العكس ، يبعث الثقة والأمن ·

مأمون الفران بوجهه المدور ولحيته الكثة منعقد الأســـارير بغضب مكظوم ·

والى جانبه الشيخ عبد الله وضىء القسمات بنور من العزم والايمان العميق ، يجلس متربعا على الكليم ومعه حسن بن منصور الأشمونى ، وجهه المجدور الخشن تحت عمامته المزهرة المغسولة الملفوفة حول لبدة فلاحى داكنة اللون ، صـــــخرة منقورة محببة تعاورت عليها عواصف القلب والســـماء معا ، لكنها ثابتة تخفى ينابيع من المحبة والفداء ، والى جـــانبه محمد بن عثمان بوجهه الوسيم الأنيق ، ومعه وافد جديد يبدو عليه أنه فلاح تركت عليه الأرض ترابها وفى عينيه خصوبتها الوفية ، ثم يحيى الزمار جهم القسمات دائما ، صلبا ، يطرد العالم عن نفسه ويحجز كل شىء دون حيطان قلبه الموجوع المعجون بالوان آلامه الخفية ، وقد جاء مجلسه فى نهاية الحلقة بجوار بهية التى لا يلوح منها الا ضـــوء عينيها المتشعشعتين المتوهجتين فى النار ·

سبعة كرام تشتتت بهم مسالك الجهاد فى الطرق والمواقع ثم التأمت بهم مرة أخرى فى عقدة متينة ، ولكنها الليلة متوترة بخطر الانفصام والانفراط ·

أومأ الغريب فى عباءته السوداء برأسه الى الشيخ عبد الله ، فارتفع صوت الشيخ فى الصمت ، منغوما رطيبا :

ــ نقرأ الفاتحة ان شاء الله ·

سرت همهمة القراءة ، وأمتدت بعض الأيدى تمسح الوجوه ·

وما كادت تنحسر الهمهمة حتى اقتحم الصمت الذى لما يكد يبدأ ، مأمون الفران بصوته الملىء الأجش :

ـ هل بت ياابا الشيخ عبد الله ماكلنا عارفين ما تجمعنا الليلة عليه · كيف نسكت على النار التى لها فى القلب وقيد ؟ وهذه الحال المائلة لابد تنصلح أو نشوف لنا فيها شوفة والله ·

مختصر الكلام يا اخوان ، هذه المرة التى تروح وتجىء بيننا وبين الكفار قدامنا هنا ، على عينك يا تاجر ، على البر التانى من بحر أشموم · وراجلها معنا لا يشكمها ·· الله علام بالقلوب ·· والناس أسرار ، اى ياسيدى ، ونعم بالله ·· لكن معسكر المسلمين ؟ تبيت هذه المرأة عند صاحبها الفرنجى فى خيمته والله ، وترجع ·· ونسكت ؟

لم تتحرك عضلة واحدة فى وجه يحيى ، قسماته منحوته من حجر ، ولم يلتفت لهذا التعريض الجارح برجولته ، ظلت عيناه شاخصتين ثابتتين بألم فادح كأنه لا يطاق ولا يحتمل وعزم صلب لا يهتز على الاستمرار فى الاطاقة والاحتمال ·

حسن الأشمونى هو الذى انحنى بجسمه الى الامام متجها الى مأمون ، وفى نظرته نية قاتلة :

ـ هذا الكلام يقوله الرجال ؟ اتق الله يا مأمون · لا تغلظ فى محضر الرجال · النقيب يعرف شغله · أنت وحدك ترى فيه الغفلة وقلة الحيلة يعنى ؟ ياخى ! ألم تكن هى ··

ولم ينطق حسن باسمها ولا أشار اليها ، كأنه اسم يتحرز من اللفظ به ، اسم حوله حرمة وتقديس ، ولو كانت غجرية ورقاصة ·

ـ هى التى أعطت أغلى ما يؤديه الناس فى الجهاد ؟ دلت النقيب وأصحابه فى دمياط على الثغرات فى صفوف الاعداء ، وجاءت

بالأخبار وشالتها العجوز فى عبها لغاية الســلطان ٠٠ من موت عساكرهم فى الحارات والأســواق ؟ من حرق مراكبهم ومخازنهم وشون السلاح ؟ ياراجل ٠٠ اتق الله ٠٠

مازال نقيب الحلقة صـــامتا ، يحدج الفلاح المجدور الوجه بنظرة مازالت صـــارمة واثقة ، لكن فيها لطفا خبيئا وفهمـا ٠ **ولا يلتفت الى مأمون الذى يصيح :**

ـ كلنا عملنا ما علينا ٠

لكن الشيخ عبد الله نظر اليه ، كأنه يكبح حصانا جامحا ، وأشار بيده اشارة سمحة مهدئة فخفض مأمون صوته ، راغما ، وهو يستطرد :

ـ طب قلنا ما فات مات ٠٠ قلنا الله علام بخفايا القلوب ٠٠ طيب دلونى يا جماعة ما الذى يخليها تنط من هنا الى هناك ؟ ولا أبو فصاده والله ٠٠ طب ليه ؟ عندنا لمثل هذا رجال ٠ يعنى عدمنا الرجال ؟

كان فى صوته غيظ عميق لا يحسه ولا يدرى بوجوده ٠ لكنه هناك ٠ غيظا وان كان موصول الوشائج بالخوف على المسلمين الا أنه أيضا غيظ الحرمان وغضب الدفاع ضد نزوعات الاحشاء التى لا تعرف الا رغباتها المستعرة الجامحة مكتومة تحت ركام التحوط والتنكر ٠

تدخل محمد بن عثمان كاتب الانشاء بصوته المستريح :

ـ صلوا على النبى يا جماعة ٠٠ صلوا على سيد الخلق ٠ **والهمهمة تجىء :**

ـ اللهم صلى عليه وسلم ٠ اللهم صلى وسلم على سيدنا **محمد ٠**

ـ ولكن هل هى تذهب من تلقاء نفسها ؟ بالعقل يا جماعة ٠٠ هل عليها رقيب أو حسيب ٠٠ ؟

عيناه مثبتتان على النقيب ، وصـاحب العباءة الســوداء لا يجيب ، فيضطر محمد بن عثمان اضطرارا الى أن يكمل حجته ، وصوته يتقاطر الى خفوت :

ـ وما فعلت فى دمياط ، وبعد دمياط ، كفيل وحده بالشهادة لها ٠ والشهادة لله ٠٠ وكفيل وحده أن يدعونا الى النظــر بعين العقل ٠٠

وحسن ينغض رأسه بقوة ، للتوكيد ٠

قال الشيخ عبد الله بصوته الرخيم الذى ينزل على الصدور المحرجة بالسكن الى الراحة :

ـ وأشهد أنها وزوجها منذ حل الفرنجة بمعسكرهم قد قاما بأعباء جسام ٠ هذا الرجل يحيى الذى لا يقول عن ذات نفسه ، أشهد أمام الله وأمامكم الآن انه كان يعبر البحر مرة وأحيانا مرتين فى اليوم الى أشموم طناح ، ويعود ، على ما فى ذلك من القاء بنفسه الى التهلكة ، ينقل الينا أخبار الطلائع التى يرسل بها الكفار حول معســكر الســلطان ٠ والأخبار تأتيه من امرأته تلك التى تتهمون بالبهتان ، ولو كان معنا الليلة أسامة بن مروان لشهد بالقتلى الذين سقطوا فى أيدينا من أعداء الله ٠

واندفع حسن كأنه لا يصبر على القول :

ـ وما درينا أبدا ولا جاءنا خبر أن أحدا منا وقع فى أيدى الفرنج ٠ ولا سمعوا عنا بحس ولا خبر ٠ وهذا الاعرابى بن مروان ابن ليل يرجع الينا ، كلما طلع لهم ، بأسير أو قتيل أو سلاح ٠ ولو كانت خوانة ما أفلت الاعرابى والله ٠

ارتفع الصوت الواثق العميق بنبرة السلطة النهائية :

ـ قد قطع الأمر ووضح يا اخوان ٠ وهى لا تذهب ولا تجيء من تلقائها ٠ وهى عندى أمينة على العهد ٠ يا مأمون يا فران ٠ عليك منذ الآن أن تكف عن الاساءة اليها أو الى يحيى بالقول أو بالفعل ٠ القول فى ذلك ما أقول ٠٠ لا عودة الى ذلك الأمر بعد اللحظة ٠٠ أتسمعنى يا مأمون ٠ على كل منكم أن ينصرف الى تدبير حلقته وحدها ٠ أما هذه فالى قيادها وتصريف أمرها ٠

لم يرد مأمون بكلمة ، وما كان بوسعه ، بل الغريب أن توتره نفسه هو قد تراخى فجأة ، كأنما العبء قد أزيح عن كاهله ، وكأنما القضية قد حسمت ، ولعله فى قرارته كان ينتظر من يسد على منافذ قلبه عصف الشك والتقلب ٠

ابتسم النقيب وهو يتجه الى الفلاح الجالس الى جانب حسن بن منصور :

ـ أعرف انك وصـــلت عصـــر اليوم من القاهرة أعزها الله يا على بن منصور فماذا لديك ؟

قال الفلاح بصوته الطيب الغليظ :

ـ الحمد لله فى كل حين وأوان ٠ أنت تعرف أننى تركت البيت والغيط منذ شهرين ، الله يدبر حال عبيده على كل حال ٠ قال لى أخى حسن اذهب الى مصر ٠ وتبرك بزيارة أولياء الله الصالحين ، هل أعصى أخى حسن ؟ وقرأت الفاتحة عند السيدة وصليت ركعتين فى الأزهر الشريف ٠ وفى آخر جمعة من شعبان ورد الى الجامع الكبير كتاب السلطان يقوى الناس على الجهاد وكأنى والله أسمع الامام يبدأ بتلاوة الآية الكريمة التى أحفظها والله عن ظهر قلب ،

غيبا والله : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » ·

ـ صدق الله العظيم ·

قرأ الشيخ عبد الله بعد همهمة التصديق :

ـ « وانفروا خفافا وثقالا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلك خير لكم ان كنتم تعلمون » ··

عادت همهمة التصديق ، وقال على بن منصور :

ـ وكأنى حتى هذه الساعة التى نحن فيها فى محضر الخير هذا والله أسمع عويل الناس وبكاءهم بالدموع ، والصوت العالى بالغاغة والزعيق ·· ومصر كلها ارتجت كالبهيمة العشر ، ولا مؤاخذة فى الكلام ، وهى تجىء بالفحل المعتبر ، اى والله ·· من كثرة انزعاج الناس وحركتهم للمسير · وطلعت مع عالم عظيم · وها نحن اليوم عدد لا يعلمه الا الله · ما يفوت يوم الا ونعمل فيه عملا للجهاد · حفرنا الخندق الكبير حول معسكر المسلمين وهو اليوم يقرب من التمام ·

وفينا من أصحاب الصنايع والبنايين الذين يرمون الأسوار والحيطان وأصحاب المجانيق المهولة هذه يشدونها ويعقدون حبالها ، بل فينا من العياق حتى والمشاديد والفتوات وخلق ماله من أول ولا آخر والله ·· الحمد لله ·· وما عيب الا العيب ·· لانعرف الفروسية ولا اللعب بالسيف ، صحيح ، هذا عيب ؟ أبدا والله ·· هذه الأسوار شلناها على الكتف وحطيناها بالذراع ، ولما تقع الواقعة عند كل واحد منا فأس وسكين ··

فضحك الغريب ضحكة قصيرة وقال :

ـ وانتم والله أدرى الناس بما تفعلون بالفأس والسكين ٠ !

ورد الشيخ عبد الله :

ـ ولكم من الله ثواب عظيم ٠

التفت الغريب الى مأمون وفى وجهه عبوس خفيف :

ـ وأنت يا مأمون ؟

فرد مأمون وكأن فى نفسه شيئا مازال ، فقط على سبيل الحفاظ على كرامة واعتزاز :

ـ يوه ٠٠ أخبارى أنت تعرفها ٠

فقال الغريب بالأمر :

ـ وأنا أريدك أن تقول ٠٠ !

ـ جماعتنا تهجم صباحية ربنا كل يوم على معسكر الأفرنج ٠

وصمت ٠٠ فالباقى معروف ٠ ولم يسأله النقيب كما كان يخشى مأمون أن يسأل :

هل لقيت جماعته خيانة أو نكاية ؟ هل عرضـــت لها ريبة أو وشاية ؟ لكن النقيب كان قد أنهى القضية وأوصد بابها ٠ فارتاح مأمون ، وانحسرت غلته وغسلت قلبه راحة موقوته ومضى يقول :

ـ يوم الخميس الفائت بعد صلاة الفجر ، دخلنا عليهم وراء حشد من فرسان الأمير فخر الدين ، بالذبابيت والفؤوس ، وضربنا أرجل خيلهم أيضا وكسحناها ٠ وقلعنا أوتاد الخيام وعملنا كمائن ٠

ثم صمت لحظة واتجه بالحديث الى يحيى ، وبهية أيضا :

ـ أما أنت يا يحيى فلن أســـألك ٠ أعرف دورك فى حريق

البسطة الضخمة يوم الخميس فى البحر وأعرف شغلك فى النفط وزراقات النفط ··

وابتسم لنفسه ، بخفاء ، بينهما ذكريات يتقاسمانها ويبخلان بها على الناس جميعا ، حتى على أصحابهم فى الحلقة كما يبخل المرء أحيانا بحبات كنوزه الصغيرة الثمينة المودعة فى أعماق القلب ، الا على الأقرب الأعز من الأخوان · اشتراكهما فى ليالى دمياط وسط الاعداء ، بلا نجدة ولا ظهير ، يرميان النفط المشتعل من الأنابيب تدفعه سهام القسى المنطلقة فى الظلام فتنشب النار فى أخشاب البيوت وحيطانها وقلوع المراكب وصواريها ، خروجهما معا يجوسان الظلام بين صيحات الحرس الفرنسى الخشنة المهددة والاحساس الخاص بغوص سن الخنجر بين كتفى العدو ، ناعما وزلقا ونهائيا ، الاحتماء بالجدران والبيات فى البيوت المهجورة فى سواد الليالى ، بينما الحرس فى ثلله المدرعة الثقيلة المصلصلة بالسلاح والحديد يطوف للبحث والتفتيش ، التسلل فى غبشة الفجر من الأفنية وفوق السطوح حتى الوصول الى مأمن الزحام فى السوق ·

واصل الرجل الأسود ، كأنه يؤدى طقوسا ، ولا يبحث عن ردود فى حقيقة الأمر :

ـ وأخبار قصر السلطان ياست أم على ؟

جاء صوت بهية من آخر الحلقة خفيضا وناعما وفيه اهتزاز شجن قديم :

ـ والله ياسيدى مازال السلطان متواريا لا حس ولا خبر · ولا يظهر لأحد حتى ولا لخاصة حريمه · أمى تقول ان الخبر صحيح يا والداه · مات السلطان عليه رحمة الله · ولنا نحن النساء معرفة بهذه الأمور · السلطانة ·· كفاية أن ترى عينيها يا حسرة ··

يا عينى ·· أم ·· فقدت الزوج والحمى وراح منها الولد ، معا ·· ولكنها والله شديدة وقوية القلب · وهى التى تقوم بالأمر كله مع الطواشى جمال الدين محسن والأمير فخر الدين · يدخلان عليها كل يوم للتدبير · ولكن لم يتغير شىء · الدهليز السلطانى على حاله ، والسماط يمد كل يوم والأمراء تحضر الخدمة · والقول ان السلطان مريض ما يصل اليه أحد ·

وصمتت لحظة ، وكأنها فرغت الى عالم داخلى ، تتأمل مصير هذه المرأة ــ وان كانت سلطانة ــ ومصيرها هى أيضا ·· وتغوص فجأة ، هنيهة قصيرة ، فى هذا الحلم الخاص ·

قال محمد بن عثمان ، متطوعا :

ــ الكتب تخرج من المعســـكر وعليها علامة الســـلطان · والمكاتبات ترد برسم السلطان من الأمير حسام الدين الهند بانى نائب السلطنة بالقاهرة · وفارس الدين أقطاى عاد من رحلته الى حصن كيفا · المتواتر ــ والله أعلم ــ أن الأمير حسام الدين أرسل قصادا من جانبه الى طورانشاه ، وأن الســـلطان فى طريقه الى المنصورة بعد أن دخل دمشق فى عيد الفطر واحتفل بالسلطنة احتفالا عظيما ·· ولكنى اخالك تعرف عن ذلك الشىء الكثير ··

لم يجب النقيب لحظة · وبعد سكتة قصيرة قال ، كأنما ينتزع نفسه الى هم يريد أن يحسمه ، متلفتا بالحديث الى حسن بن منصور **والى الحلقة جميعا فى الوقت نفسه :**

ــ يا جمال الدين بن منصور ·· أريدك ان تعرف الآن أمام هذه الجماعة من قادة الفتيان أنك منذ اللحظة موكول اليك تدبير أمر هذه الحلقة · لو اننى غبت عن الميدان لا تسأل عنى ، أيدك الله بأيد

من عنده يا جمال الدين ٠٠ أنت فتى حق ولا كالفتيان ٠ تدبيرك فى زراقات النار الاغريقية وحريق أبراج الاعداء وحفر الخنادق التى قوضت جسرهم ، مع رجالك الفلاحين ٠٠ هذا تدبير قادة الرجال وأمراء الرجال ٠

غض الفلاح عينيه فجأة ، ولم يتكلم ٠ كان وجهه الصخرى شاحبا قليلا والقوة التى فى نفسه يحسها قادرة على اقتلاع العالم من جذوره ٠ لكنه ، أمام هذه المرأة الجالسة بجانب الباب ، يحمل نفس حمل رضيع تدر بالشوق والحب المدفون ، من غير أدنى أمل ، من غير أن يدرك ، حتى ، أنه يطمع فى أمل ما ٠ كان أمامها شديد الورع ٠

لم يخرجوا ليلتها من الفرن ، ودخلوا الى بيت مأمون يقضون بقية الليل حتى صلاة الفجر ، وقامت بهية الى حريمه فنامت معهن وكان قد صفا لها ونفسه اطمأنت حتى أدخلها على نسائه وبناته ٠

كان الهلال الصغير معلقا على سطوح البيوت فى المنصورة . هلال آخر شوال والسحب تطير بها الريح الباردة ، تخفيه قليلا ثم تنزلق بسرعة على السماء الى الغرب ، وتتلاحق أسراب السحب كأنها تحمل النذر ٠

الفصل العشرون

كان المعســـكر الصليبى فى أول ذى القعدة من عام ٦٤٨ ، تتعاقب خيامه حتى الأفق ، تحدق به الضفة الشرقية للنيل من الغرب، وبحر أشموم من الجنوب ، وتمتد وراءه الحقول والبرارى البعيدة من الشرق والشمال ٠

وكان يشق المعسكر فارس غامض المعالم فى أول الليل ، على صهوة جواده الثقيل ، متلفعا بعباءة صـــغيرة لا تدرأ عنه المطر والبرد وقرة الريح التى تهب على صفوف الخيام الطويلة الموحشة تغطى الساحة الواسعة حتى أطراف الأفق حيث تلوح الأشـــجار المتباعدة كأنها قد تقاربت وتضامت وأطبقت على المعسكر ، سورا آخر محاصرا ومتهددا ٠

الرياح ترصـــدتهم هذا العام كأنها روح عاقلة لها نواياها المبيتة ، حتى لقد حطمت على أسوار دمياط ، فى أول الحملة ، مئات من سفنهم ودفعتها الى النيل حطاما متموجا مضطربا من الخشب والصناديق والأسلحة والمؤونة يرتطم بعضـــه بالبعض ويغوص فى الثبج والزبد ٠

كان صوت قطرات المطر المنهل يقرع قماش الخيام فى هدير مستمر لا يتوقف ، كدق طبول صغيرة عنيدة لا عداد لها ، لا سبيل الى الخلاص منها ، والماء يسقط على ظاهر الخيام التى أغبر لونها فى خيوط سائلة تسقط على الأرض الموحلة وتنفذ ، من خروق الخيام المرقعة ، على ساكنيها المقرورين ، وقد التفوا حول مواقد صغيرة مدخنة من الفخار · فلم يعد بالمعسكر كله كفاية من الخشب بعد أن استنفذت أخشاب الأشجار القريبة كلها فى بناء الأبراج التى أحرقها المصريون بنيران زراقات النفط ، حتى لقد أمر الملك بفك السفن واستخدام أخشابها فى بناء قنطرة قوضها المصريون أيضا من الناحية الأخرى ، المرة بعد المرة ، يحفرون حفرا عميقة على الطرف الآخر من بحر أشموم ، فتتحلل أصول القنطرة وتتخلخل وتتدهور فى الماء يجرفها التيار ·

كان الجنود يفرشون القش داخل الخيام على قماش صفيق ، تفوح منه رائحة عطنة من البلل ، والتلبد ، تمتزج برائحة البرك الصفراء التى تخلفها الخيل فى اصطبلاتها ، ويسقط عليها ماء المطر فتثور لها هذه النتونة المحرقة الحريفة ، وقد طال مكثهم فى هذا المعسكر طيلة شهور الشتاء ، والمصريون يناوشونهم ليل نهار ، يتخطفون جنودهم ويستأسرونهم أو يقتلونهم ، يهجمون فى فرق خفيفة سريعة الضرب والرمى تنقض وتدمر وتقتل ثم تغيب بين البرارى والغيطان ، ويرمونهم بالسهام ، والنيران والأحجار الضخام من قاذفاتهم ومناجيقهم ، لا يدعون لهم راحة ولا استقرارا للتأهب والاعتداد ·

ها هى ذى الليلة تبشر بانقشاع هذا الغم كله · والمياه التى تحدق بالمعسكر لا سبيل الى تخطيها قد آذنت بان تدين وتعنو ·· واليأس الذى تخلل القلوب أو كاد سوف ينجاب بعد قليل ، بعد أن

لاحت نذر الانحدار والضياع والتعفن فى هذه الساحة المحصورة التى لا منجى منها ، أو هذا كان يبدو الأمر ٠

ارتعد الكونت هيمبير دى بوجيه ، كونستابل فرنسا ، اذ هبت به عصفة من الريح الباردة أطارت عباءته عن ذقنه وصدره ، وغرق وجهه فى مياه المطر تضرب صفحته بسهام دقيقة لاذعة ٠ ولكنه مشبوب بحرارة أمل يدفىء نفسه ، لم يتركه يفكر كثيرا فى حماية نفسه من البرد والريح ، وهى كلها هينة على أى حال اذا تذكر صرير البرد فى بلاده ٠

جىء اليه فى المغرب ببدوى يحيط به حرس من جنده قالوا له انهم وجدوه أعزل بغير سلاح ، يركع أمامهم ويقوم ، ويشور بيديه ولا يتوقف عن الكلام بالعربية ، ولما استدعوا المترجم المالطى فهموا منه أن لديه أمرا عظيما لا يقوله الا للأمير ٠ ومن غير كبير عناء عرف الكونت أن البدوى يعرض عليهم أن يدلهم على مخاضة مأمونة يتسنى لجنودهم أن يعبروها بسهولة على بحر أشموم فيصيروا على شط المصريين وتخلو أمامهم ساحة القتال من الجنوب ، وطلب البدوى خمسمائة قطعة ذهبية ٠ كان الكونت قد تعلم المساومة منذ أن وصل الى هذه البلاد فراح يساوم هذا البدوى ـ وعرف ان اسمه جعفر ـ ولكن الاعرابى الجهم الناحل انقلب فجأة صموتا عازفا عن الكلام كأنه لا يفهم ما يقال ٠ **وأصر على خمسمائة قطعة ذهبية لا يتحول عنها ويرددها بعناد :**

ـ خمسمائة قطعة ٠٠ ذهب ٠٠ ! خمسمائة ! ذهب ٠٠ !

احتجز الكونت هذا البدوى اذن ، فى خيمته الباذخة نفسها التى تختلف كل الاختلاف عن خيام الجنود بما فيها من متاع وسجاد وستائر داخلية وفراش وثير ودفء مريح ، ووضع عليه حرسا من خاصته ، وهو الآن يتجه فى المطر والليل الى خيمة الملك ٠

انعقدت الصفقة ودلهم الاعرابى على المخاضة الضحلة · ودعا الملك مجلسه الحربى وتقرر أن يعبر الجيش الى الشط الآخر ·

وفى أيام قلائل نفض المعسكر روح الوجوم والوهن التى كانت تخيم عليه ، ولمع الجنود سلاحهم ووثقوا دروعهم ، وأشعلت نيران عظيمة رمى فيها ، بلا تورع ، القماش والقش وما بقى من أخشاب الشجر المقطوع · راح الحدادون يطرقون سنان السيوف والرماح يثقفونها ويشحذون شفارها ويثبتون مسامير الدروع ويصقلونها ، وترددت الصيحات وارتفع اللغط وانبثقت فى الأصوات حياة جديدة متلهفة ، وخرج الفرسان بخيولهم يمرنونها ويذهبون عن سيقانها آثار الخمول ·

وفى فجر الثلاثاء خرجت كتيبة الكونت دارتوا وكتيبة الكونت دى بواتييه ، والكونت دانجو ، أشقاء الملك الثلاثة ، تتبعها كتيبة الداوية على رأسها الفرايار جويوم دى سوناك ، ومعهم الملك فى ثلة من فرسانه ، وأمامهم جميعا حاملو الاعلام ، والقسس والرهبان يحملون الصلبان ، وفى مقدمتهم جان دورليانز يحمل راية الجيش الضخمة ·

وقف الجيش على الشط الشمالى تحت سماء غائمة منخفضة، والرياح الباردة تسفى التراب من الغيطان غير المزروعة تثيره على الوجوه · الخيل التى تغطى الساحة الواسعة بين جذوع الأشجار المقطوعة الناتئة على أرض غير مستوية ومبلولة ، لها صهيل ولجب وحمحمة ، والمياه تتقلب وتمور فى الترعة الواسعة لا توحى بالأمان ، والضفة زلقة موحلة عميقة الانحدار ·

كانت الطلائع فى آخر الليل قد سبرت المخاضة وجربت غورها القليل ·

اندفع رهط من الفرسان فى المقدمة ، وهم يصيحون بنداء فرقهم :

– روان ·· ! روان ·· !

– بورجونى ·· ! بورجونى ·· !

– باريس ·· ! باريس ·· !

– بارداة الله ·· بمعونة الله ·· ! أورشليم ·· !

– بوردو ·· ! مالو ·· ! مونتجواســـــان دنيس ·· ! مونتجواسان أندريه !

وانحدرت الخيل وقوائمها تغوص فى الوحل ، ثم تراجعت وهى تحمحم ، وترفع سوقها الامامية أمام المياه الخضراء المتموجة ·· ولكن نداءات الحث ونخس المهاميز وضرب الجنوب وهتافات الحرب المألوفة الصاعدة كالهدير المضطرب أثارت حماستها فاندفعت تضع سيقانها فى الماء وتخوض وتطس الماء · وترتفع المياه رويدا على جنوب الخيل التى تجد تحت ســـنابكها مواقع لتثبيت الحوافر · وامتدت صفوف الخيل على طول مسافة بعيدة وارتفعت صيحات الفرح من الجيش الواقف على الشاطىء المرتفع سرعان ما استحالت الى صيحات تحذير وهلع ، وهتف الملك بنفسه ينبه الفرسان المنحدرة حواليه ، فقد غاصت بعض رؤوس الخيل فجأة فى المياه وانتزع التيار فرسانها وامتلأت التَرعة الواسعة بالرؤوس تطفو وتغوص والأذرع تلوح وعلى صفحات المياه المضطربة خوذات مقلوبة تهتز وتمتلىء بالماء وتغوص ، والضجيج واللجب يصم الآذان ، وثياب مبسوطة متموجة انخلعت عن أصحابها وسحبها التيار تطفو وحدها على الماء وسروج تهتز وتنقلب دون جياد ، وصيحات الاستنجاد لا تكاد تسمع فى قلب الصياح والهتافات ، بعيدة يائسة · ولكن كوكبة من الخيل كانت قد أخذت رؤوسها ترتفع رويدا عن سطح الماء واذا هى

تصل الى الشاطىء الآخر وأصـــحابها يشورون بأذرعهم فى فرح ويهتفون ، وعندئذ نسى الفرسان زملاءهم الغرقى ونسوا راية الجيش وقد جرفها التيار من يد جان دورليانز الذى ضاع هو أيضا بين الحطام الغارقة التى أخذتها المياه الى بعيد · ونزل الجيش ، والخيل تطس الوحل ورشاش الماء تسلك الآن المخاضة الخطرة فى الاتجاه المأمون ·

صعد الكونت دارتوا الى الشط المقابل ، يشهق من الماء وبرد الصبح الباكر ، ولكن جواده الضـــخم الأصيل ركين تحته وطيد القوائم ، وانطلق يعدو الى مقدمة فرسانه الذين تجمعوا على الشط تدور بهم خيلهم وهم يتصايحون ويتنادون وينظمون صفوفهم ، واذا بفرقة كبيرة من فرسان المصريين تلوح أمامهم غير بعيد ، من نحو ثلثمائة فارس ، بعمائمهم الصفر وأقبيتهم القصيرة على زردياتهم وجيادهم الخفيفة ، رماحهم شارعة ، وراياتهم ترفرف ·

ترامت السهام قليلا بين الصفين ثم لاح أن المصريين وجدوا أن لا قبل لهم بالعدد الكبير من فرسان الجيش الصليبى الذى ظل يعبر المخاضة ويصعد على طول الشط المترامى ، فثنوا أعنتهم ، وانكفأوا راجعين يعدون بأقصى ما تطيق خيلهم أن تعدو ·

واذ رأى دارتوا فرسان المصريين يولونه ظهورهم منطلقين الى معسكرهم فى الشمال ، هتف ثملا بنشوة عارمة بنداء حربه :

– مونتجوا ·· مونتجوا ·· !

ونخس جواده يعدو وراء الفرســـان المصـريين ، يثب فوق مجارى المياه الصغيرة الضيقة ، ويخترق الحقول القراح السوداء الطينية التى لم تزرع هذه الســنة ، ووراءه وحواليه زلزلة من سـنابك الخيل تنفض خلفها قبضـــات الطين المتطايرة ، والجيش

الصليبى قد تدفق على البر الذى يقع فيه المعسكر المصرى كطوفان قذفت به الترعة الواســـعة ينقض كســـيل من المياه تعفنت وطال احتجازها يحمل ركاما من النفايات المبلولة لطخها رشاش الطين ·

كان المعسكر المصرى لم يكد يتيقظ بعد ، فى بكرة الصـــبح وقد أغفى ليلته آمنا ، تقطع المياه العميقة كل طـــريق بينه وبين الفرنسيين الذين مكثوا فى مخيمهم الشهور الطوال لا يعرفون أن يسلكوا اليه سبيلا ، وقد تقطعت بهم كل الحيل للعبور ، واطمأن الأمير فخر الدين الى أن الفرنسيين قد ضيق عليهم وأحدق بهم ، وكان التدبير بينه وبين السلطانة أن يبقيهم فى معسكرهم تناجزهم فرق المتطوعة بالهجوم السريع والاختفاء وتنوش أطرافهم وتوهن جلدهم وتبلى صبرهم ، حتى يسقط المعسكر فى النهاية من الحصار والبرد والضنك ، كثمرة فاسدة فى أيدى المصريين ·

لذلك كانت المفاجأة تامة اذ ارتفعت الصيحة بهجوم الفرنسيين، من الجنوب ، وتجاوبت بها خيام المعسكر المصرى · فزع الجنود الى سلاحهم خارجين من الخيام يكملون لبس ثيابهم ، وفزع الفرسان الى دروعهم وخيلهم فى غمرة اليقظة المفزعة ، ينطلقون ويتجمعون فرادى وشراذم قليلة تتضخم وتلتئم باضطراب ، وضجيج المباغتة يصم الآذان ويلقى بالروع فى الصفوف الكثيرة المتراوحة التى تتقدم من تلقائها دون قيادة ·

كان فخر الدين فى حمامه الســـاخن ملتفـــا بازاره الكتانى الأبيض الناعم الوبر ، والمياه الحارة فى الحوض تنفث البخـــار الأبيض فى جو الحمام فيلذ للبدن ويحلو على الجلد ، وعبق بخور الخزامى يتأرج فيحمى الهواء وتطيب رائحته ، وقد أخذ جســـمه القوى المفتول يستريح لنفاذ البخار ، وتترطب عضلاته وتمرن وتلين، واذ بالصياح البعيد فى غبشة الصبح تتردد أصداؤه ، والصـــريخ

يعلو ويضطرب ، ورئيس نوبته يقرع عليه الباب ويدخل بدون اذن متفزع الأسارير طائر اللب ٠

ـ الفرنج ٠٠ الفرنج ٠٠ هجم الفرنج على البلد ٠٠ اخترقوا الباب الشرقى واقتحموا المدينة ٠٠ !

بغت فخر الدين ،وخرج مدهوشا ٠ فألقى على جسمه بعض ثيابه كيفما اتفق له ٠ وركب فرسه من غير اعتداد ولا تحفظ لينظر الخبر ويأمر الناس بالركوب ، فلم يلبس درعا ولا خوذة ، وفى ظنه أن الفرنج مازالوا بعيدين وان الوهم قد أخذ بالناس مأخذه ، ومعه شرذمة قليلة من مماليكه وأجناده ٠ واذ نزل الى الشارع الكبير فى اتجاه الباب الشــــرقى ، والناس يطيرون حواليه هاربين على وجوههم ، صارخين من وقع المبادرة والمباغتة ، لقيته كتيبة الداوية وعلى رأسها فارس ضخم البنيان حليق يتدلى شعره تحت قناعخوذته الفضية المقساة ، شارعى الرماح ، متشحين بوشاحهم العسكرى الأبيض وعليه علامة الصـــــليب الحمراء الكبيرة ، دروعهم تقلقل وتصطفق كأنهم حصون بشرية منقضة من الحديد ، تصرخ صرخات وحشية ٠

ارتد المماليك والأجناد من حواليه أمام تدفق هذا الحديد الذى ترتج له الأرض ، وثبت فخر الدين وحده ، فى يده سيف مسلول وفى مرفقه درقته ، يكاد يكون فيما عدا ذلك عاريا من السلاح والدروع ، وفرسه الخفيف يدور ويهجم ، يكر وينقض ، وهو يدفع عن نفسه الرماح بدرقته لا يهتز على سرجه ٠ ولكنه وجد نفسه فى قلب دوامة من الخيل والرماح والحديد والسيوف المستقيمة العريضة ، وصراخ الفرنسيين الوحشى يصم أذنيه ، رؤوس الخيل ترتفع فوقه ثم تميد ، وتصهل فى وجهه صهيلا ثاقبا ، والأقنعة الحديدية تطوف به من كل جانب ، الرماح تمرق أمامه وحواليه كأنها أشياء حية ترمى نفسها

عليه فى خطوط حادة مستقيمة ، والعالم كله يضج ويتدهور ويتقلب به · أحس الحديد البارد يغوص فجأة فى جنبه وســـمع قرقعــة ان تنقصف أضــــلاعه ، دون ألم ، وتتهدم جدران العالم ، واعتورته السيوف من كل ناحية وسقط الأمير ، ومزقته سنابك الخيل ·

كانت الشوارع قد امتلأت بالفرسان والجنود المتصارعين ، والفرنسيين يتقدمون فى سيل مكتسح ، ورعيل من الدواية قد هجموا على الجامع ودخلوا عرصته على الشيوخ والمصلين الذين كانوا يبتهلون ويتضرعون ، فداستهم السنابك ، وتناثرت الدماء والاشلاء على الجدران المكسية بالفسيفساء والآيات ، وعلى المنبر والأبسطة ؛ وخرجوا فى ضجيج مروع يطأون الرجال الذين يجرون فى الشوارع يلتمسون مواقعهم ·

أما المعسكر فى خارج المنصورة فقد هب كله للدفاع ، والفرسان مازالوا يتكمون بالدروع والزرديات اذ تهجم عليهم فرسان الغزاة ·

وفى وسط هذا السيل العارم من الفرنســـيين كان جان دى جوانفيل ، بجســـمه الذى يميل الى الرقة ، وعينيه اللتين تعودتا النظر فى الكتب والأوراق تطلان ، تعلبيتين ضيقتين ، من خلف قناع خوذته الحديدية ، قد رأى فارسا من فرسان العرب ينهض الى فرسه ليركب ، ويمسك له تابعه بقياد الفرس · انقض عليه دى جوانفيل بضربة مصمية من سيفه ، تحت ابطيه ، وتطرح القاضى ضياء الدين بن أبى الحجاج صاحب ديوان الجيش ، على الفور ، وسقط على الأرض ، فأغمد جوانفيل سيفه وانفلت راجعا · هب تابع القاضى ضياء الدين الشاب الى فرسه ، ودار الى جوانفيل وقد سل سيفه وجاء الى جانبه وصوب له ، بقوة الانتقام التى لا تغلب ، ضربات مزلزلة بين الكتفين ، حتى بطحه على وجهه ، وارتطمت خوذته

بعنق جواده ، وما كان بوسع الفرنسى أن يسل سيفه لولا أن مد يده الى سيف آخر على سـرجه ، ولحقته كوكبة من الفرسـان الفرنسيين فانحرف التابع الشجاع فى غمار صـفوف الفرسـان الهاجمين والمدافعين وطوته المعمعة ·

كان الفقهاء وأهل الدين يطوفون بساحة القتال ، وسط الخيل والرجالة ، فى هرولة واثقة غير عجلة ، يرفعون المصاحف ويكبرون، ويهتفون بالمعسكر : يا للاسلام ·· يا للاسلام · ! وعلى رأسهم الشيخ عبد الله بوجهه الوضـىء الهادىء يبث الروح فى القلوب وتشتد العزائم لمجرد مرآه ، وهو يتلو القرآن والى جانبه يلازمه كظله الكاتب الشاب محمد بن عثمان يقرأ معه دون كلل : « فقاتل فى سبيل الله لا تكلف الا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأسا وأشد تنكيلا ·· » ·

والجنود قد التأمت صفوفهم الآن ، وانتظمت ، اصـطف النشابون وفى أيديهم قسيهم على أطراف المعسكر يحولون دون تقدم كوكبات عديدة من الفرسـان المهاجمين ، ودارت حبال المناجيق وارتفعت أذرعها تحمل الأحجـار الكبار وتطوحها على الغزاة ، والساحة الآن قد ازدحمت بأمواج المقاتلين من الجانبين ، وتكاثفت الحشود ، واشتد الضرب ، وحميت الصيحات · وما عاد أحد يرى الا سيقان الخيل ودروع الجند · كل يقاتل الآن ، ويكر ، ويحامى عن الضربات ، وقد ارتفعت الرياح تثير الغبرة وتسفى الرمال على الوجوه المتفصدة بالعرق تسيل عليها خيوط رفيعة من دماء الجروح الخفيفة والخدوش التى لا يبالى بها بل لا يحس بها أحد ، والثياب تتمزع ، والرمى بالسهام يصبح أشق وأصعب لوثاقة الصـفوف والتحامها ، فما عاد ينفع الا السيف والرمح ، والهراوة والبلطة ،

والكرة الحديدية والفأس ، وتجالد الجسوم والصراع البدنى المباشر الصريح ٠

التفت الشيخ عبد الله ، فى زحمة الجنود المتقاتلة ، واذ بضربة من أكرة حديدية تسقط من أحد الفرسان الفرنج على زميله الشاب الذى كان فمه يرتعد قليلا ، وان كان صوته ثابتا يتلو الآى الحكيم ، وفى دقة مكتومة انشج رأسه وانفطرت عظامه ، وتهاوى الشـــاب وسقط كتلة واحدة ثقيلة بالموت الوحى المفاجىء ٠ صفوف الجنود تزحم الشيخ عبد الله وتدفعه الى الامام ، وهو مازال يتلو القرآن . والدموع على خديه الرقيقين لا يحس بها ، ومن خلالها يرى الوجه الشهيد وعليه نظرة الدهشـــة الأخيرة ٠ كان أحب اليه من الأبن والأخ الأصغر ، سقط وفى عظام رأسه فجوة غائرة يسيل منها دم قليل بطىء ، فى عينيه دهش ، كأنه لا يصدق أنه يموت ٠

ارتطمت سيول البشر المدرعة المسلحة فى الســـاحة الكبيرة واصطفق الحديد بالحديد ، الدروع الثقيلة القائمة الزوايا والأوشحة البيضاء المعلمة بالصـــليب الأحمر ، بالأقبية الصفراء والزرديات الطواعة الدقيقة الحلقات ، الاجساد وقد تشابكت بالأذرع والسيقان الصدور تضغط على الصدور ، فى ملحمة مضطربة وشـــاسعة ، السواطير ترتفع بجهد ثم تتراخى ذراع المدافع لحظة واحدة فتنقض الفأس على الأكتاف تفلق الحديد والعظام ، قضبان الحديد تخبط الزوايا وتطوح بالأجسام ، الجلل المدورة الشائكة السنان تنشب فى الضلوع ، السيوف تغوص فى مواطن الأجساد التى تنكشف عنها الدروع ، وزئير وحشى مجلجل يدوى ويدمدم فيغرق الأنين الخافت للجرحى الساقطين وصراخ الموتى ، تدوسهم الاقدام والسنابك ، وثم جنود يتصـــارعون على الأرض راكعين على الركب بوجــوه مشدوقة الأفواه شائهة القسمات من بذل آخر الجهد واعتصار غاية

قوة العضلات يتدحرجون ويتراكبون بالأذرع والسيقان كأنها كلابات حديدية حول الأعناق والأكتاف حتى تسنح نهزة فاذا أحدهم مجندل صريع ٠

وهذه السيول المتدفقة من الجند والخيل تغمر الساحة حتى أسوار المنصورة وتهضــــب فى الشوارع عارمة متقلبة مشـــتبكة الأجسام ٠

هجمت المماليك المصرية من خارج الأسوار واقتحمت المدينة وراء الفرنســيين وعلى رأسهم فارس أســـمر طوال تحت خوذته الحديدية المذهبة تتقد عيناه بنار زرقاء متوهجة ، احدى عينيه عليها نقطة صغيرة بيضاء وفوق رأسه ترفرف رايته عليها شارته ، الأسد ، يحملها فارس من خواصه على جواده ، وفى تيار القتال المرتطم على الجدران والأسوار ، والمنسرب يهدر ويفور فى الأزقة والحارات ، تفرق عنه زملاؤه : أقطاى وقلاوون ، وسنقر ، ورجالهم ، يهجمون على فرسان الداوية ويدخلون فى صفوف الكتائب الفرنسية ٠

وبيبرس الأزرق العين يرتفع على الموج البشرى المصـــطفق بالحديد والســـلاح فوق جواده الأبيض الضليع الخفيف على ذلك حتى يصل هو وفرسانه فى دفقة لا ترد الى باب قصر السلطان ، تدور تحته الفرسان وتقرقع الرماح على الدروع ، وهم يحملون على الفرنج صائحين صيحات القتال فى حشـــد كثيف تدفعه قوة لا غلاب لها ، كجبال الصخر يرمى بها التيار تدق الجسوم وتصرع الخيول ، حتى تزعزعت أركان الفرنسيين واندحروا من أمام القصر وانحسرت جموعهم عن الباب ٠

عاد الفرسان الظافرون يقودهم بيبرس وقد تملكته قوة خارقة الى قلب المعترك فى شوارع المدينة ٠ تراجع الفرنسيون أمام حملات

المماليك البحرية وارتدوا ناكصين يتعقب فرســـان المماليك فلولهم المبعثرة ٠

وعندما كان بيبرس يمر بحارة ضيقة أمام فرن مهجور مفتوح الباب مازالت تتقد فى تنوره نار لا يعنى بها أحد نظر تحته فاذ بفـــارس فرنسى ملقى على التراب وعليه رداء فخم باذخ مطـــرز بالذهب وثوب أمير ٠ كان الكونت دارتوا قد أصابته ضربة مجهولة المصدر فى وسط أمواج القتال الهادرة وسقط على الأرض ، وانحسرت موجة القتال وتركته مرميا جنب الطـــريق لا يهتم به أحد ٠ لكن بيبرس نزل فنزع عنه درعه الملوكية ورداءه الموشى على رسم الزنبق ونخس جواده الأبيض واندفع وسط السوق يهتف بالجنود :

ـ هذا درع الملك ورداؤه ! مات الملك عدو الله وعدوكم !

وهو يرفع الدرع الحديدية اللامعة الملطخة بالدم والوحـــل والرداء الباذخ يتطاير الريح بخرقه الممزقة عند الأطراف ٠ وردت عليه صيحة واحدة هادرة طويلة متعاقبة الموجات من حشـــود الجنود والفرسان : هاه ٠٠ هاه ٠٠ الله اكبر ٠٠ الله أكبر تزلزلت لها المنصورة من أولها الى آخرها صيحة النصر القريب والحملة الصادقة ، وانقض الجنود على الشوارع يطهرونها من الفرنسيين الذين لاذوا بحمى الجدران والبيوت ٠

وقد شحبت السماء وتطاير السحاب على وجهها وفى النهار بقية من ضوء العصر ومازالت المعركة محتدمة تدور ٠

الفصل الحادى والعشرون

كانت شوارع المنصورة تلفظ جموع الصليبيين المنكسـرة والمندحرة نحو الباب الشرقى وضجيج القتال مازال فى عنفوانه ، والأرض قد أصبحت زلقة من برك الدم ، والأشـلاء التى مزقتها سنابك الخيل متناثرة بين الدروع والاسلحة المحطمة ، والجرحى والمحتضرون قد زحفوا حتى جدران البيوت يئنون أنينا خفيضـا يائسا ، وشراذم من جنود الصليبيين المتخلفين تجرى هاربة بنفسها أمام الفرسان المصرية التى تنقض عليها هائجة ثملة بخمر القتال والنصر ، والاحجار الضخام تتدحرج فجأة من سطوح البيوت المغلقة الصامتة على رؤوس الغزاة المذعورين وطسوت الزيت المغلى تندلق فجأة من النوافذ عليهم وتنطلق منهم صـرخات ألم الحريق المروع وهم يرفعون أذرعتهم ووجهوهم التى شواها الزيت ويسقطون وهم يزعقون زعقات الرجال اذ يموتون محروقين ، وتتكون منهم كومات أخرى من القتلى الذين غصت بهم الأزقة وخمت بهم المدينة ٠

وكان النهار قد أخذينحسر وضوء الشمس الغاربة يلقى فى الشوارع ظلالا طويلة ، بين الأبواب الموصدة والنوافذ المسدودة٠ وقد

ظهرت فى الشوارع منذ الآن قطعان الكلاب الضارية تقفز فوق أكوام الجثث وتنبش الجرحى والقتلى على السواء والمحتضرون يقاومون الأنياب المعراة فى عواء صـــــادر من أعماق حلوق هذه الحيوانات المتألقة الأعين ويصرخون صرخات الموت ، وقد تغطت سماء المدينة فى الغسق بسحابات كثيفة من الغربان والحدأ والصقور تدوم ثم تنقض فجأة وهى تزعق بين البيوت وترتفع بأجنحتها العريضـــــة الثابتة ترف بما انتزعته المخالب الحادة من اللحم البشرى ٠

وعلى طرف البلد كانت تدور معركة بالسيوف بين جماعة من فرسان الصليبيين ورهط أكبر من فرسان المصريين ٠ كان ايرار ديزاميراى يركض بجواده خارجا الى الحقول من ناحية الشمال ، ومعه دى جوانفيل وراول دى وانون عيناه الزرقاوان تبصان من فتحة قناع خوذته وهنرى دى لويس فى دروعه الضخمة التى تدور حول جسمه السمين اذ رأتهم كوكبة من الفرسان المصريين تخطف شوارع البلد وراء المنهزمين ، واختلطت الصيحات وهدير السنابك ، وارتطمت الرماح والدروع ودارت الخيل تتواثب وتصهل وتشـــب على قوائمها الخلفية وتنقض ٠ وجاءت ضربة طوحت بجوانفيل من على فرسه فهب على الفور فى حماية رمح دى وانون لا يرى جوانفيل الا العينين الصـــــلبتين الباردتين من وراء الخوذة فوقه ، وهجم رجال الاشراف الفرنسيين على المماليك ، بينما نزل النبلاء يجرون يحتمون بالبيت المهدم ، يثبون فوق الأحجـــــار ويقتحمون الأبواب برماحهم ٠ وهم الآن يستندون بظهورهم الى الجدران ٠ وقد سلت السيوف تصطدم وتقرقع ، والمسايفة سجال بين الفرسان والأتباع من الجانبين ، وقد هبطت ضربة على الوجه الوسيم الذى طالما تمرغ فى صدر جاريته العربية الوافر ، واذ ايرار ديزميراى يحس الدم ينبجس من وسط وجهه ، وعيناه الزائغتان وقد سقطت عنهما الخوذة تريان مزقا دامية رفيعة تمسك أنفه المجدوع الذى سقط على

فمه والمخاط والدم يغمران فمه ولهما طعم فيه ملوحة خفيفة دافئة لزجة . وكان راول دى وانون يحس كتفيه محطومتين من ضرب صفحات السيوف الثقيلة ، وهيوديكوسيه يسيل الدم على وجهه من ثلاثة جروح عميقة ، والأحجار المهدمة على الأرض تخبط السيقان المتواثبة ، والجدران تدنو وتبتعد فى سورة المعركة ، وصليل السيوف المرتطمة له وقع جامد رصين كأنه يدق القلوب .

وحلقات المسايفة فى الشـــارع وفى حوش البيت وحجراته . تتثاقف الســـيوف فى غير وهن ، لا تصـــدر عنها الا أنات مفاجئة مكتومة ، وصـــرخات مكظومة فى الهجوم والنكوص ، والطيـــور السوداء العريضة الجناح تسف على الجدران المكسورة ، وترتفع ، رفع ايرار ديزميراى عينيه الغائمتين الى أعلى جـــدار يقف عليه غراب ضخم ، هادىء لا يراع ، يرقب الحركة المائجة العنيفة فى انتظار الواثق الخبيث .

همس ديزميراى وقد سقط على الأرض يستند بمرفقيه الى حجر كبير خشن الأطراف ، وزملاؤه ، خلف صف ملتحم من أتباعهم الذين يصدون الجنود المصريين ، قد وقفوا ينهجون والســـيوف منكسة فى أيديهم المتخاذلة :

ــ أيها السادة . أنتم تعرفون أن حياتى الآن أصبحت فى خطر جسيم فلا تظنوا انى أهرب عنكم وأهجركم . سوف أمضى الآن من وراء ، أدعو النجدة من كتيبة الكونت دانجو ، فقد رأيته هناك بين الحقول .

وانحنى جوانفيل عليه ، بوجهه الطويل الشاحب وهو يقول :

ــ أنت تشـــرفنا ياســيد ديزميراى .. اذ تذهب تدعو الى نجدتنا ، وتنقذ حياتنا ، مغامرا بحياتك .

ـ لم تعد لحياتى الآن قيمة ٠

وهو يتشبث بالأحجار ويتسلق الحائط الخلفى وكفاه تتعلقان بخشونة الحجر كأنها تتعلق بالحياة ، ويصعد على فرسه ورأسه يدور والأرض ترتفع اليه وجسمه مرمى على عنق الجواد اذ يهمج به لا يكاد يمسك بعنانه نحو صفوف الكونت دانجو ، والعالم يغيم ويغيب حواليه ويعود فى دق سنابك خيل كثيرة ، ودماؤه قد أغرقت صدره وثيابه ، ويحيط به الفرسان ويسمع لغته منهم كأنه يسمع آخر موسيقى فى حياته ، وفى ألفاظ متقطعة ممزقة يشير الى الكونت دانجو يقف الى جانبه عاليا ركينا قاسى النظرة كالحصن ، ويتهاوى الفتى الوسيم وقد ضاع وجهه تحت طبقة دم متجمد تشقه خطوط من الدموع ، والفجوة الغائرة الحمراء فى وسط هذا القناع البشع ، غضاريفها البيضاء مدببة الأطراف متساقطة فى خيوط ومزع متهدلة على الأرض ، وعيناه ثابتتان تنظران الى السماء لا تريان شيئا ٠

عندما جاءت احدى موجات الهجوم الأخيرة بجنود المصريين وفرسانهم الى هذه البقعة من الساحة ، كانت بينهم بهية فى ثيابها السابغة تحمل قربة من الماء تسقى الجرحى والظمآنين ، وتمر بين جثث القتلى فتغطى شهداء المقاتلين العرب بثيابهم وتدعو الشيخ عبد الله يتلو عليها الصـــلاة ، ويتركها للمتطوعين يحملونها الى المسجد والى مقرها الأخير ، ورأت بهية فى الساحة فرنسيا ضخم البنيان عليه ثياب نفيسة ، عيناه الشاخصتان الميتتان تحدقان فى السماء ، وقد غاب وجهه تحت قناع فظيع من الدماء ومزق اللحم المتهتك ، فأشاحت ببصرها سريعا ، ولم تخطر فكرة ما على الاطلاق بذهنها الذى جمدته مشاهد القتال طول النهار ٠ وبقى الفرنســـى شيئا مجهولا لم يعرفه أحد ، فريسة من بين آلاف ، للضباع والذئاب التى ظلت تعوى طول الليل ، وتنقرها مخالب ومناقير حادة تعلو فى سماء الليل وتتناوشها السباع الوضيعة ٠

وفى الليل كانت فلول الحملة قد ارتدت ومعها الملك الى الضفة الجنوبية من بحر أشموم والمياه تجرى سريعة فى الظلام ، تلمع عليها الرماح والدروع والخوذات وتتقلب بجثث الخيل والرجال ، ممدودة الأذرع ، يطفو الموج بسيقانها ، وترتطم وجوهها بالدروع ، مفتوحة العيون ، وقد أقام الفرايار دى سوناك ، قائد الداوية ، حاجزا من الأخشـــاب والأحجار حول موقعه ، وهو ينتقل بين الجنود الذين نهكتهم المعركة ، والعمال الذين يقيمون المتاريس فى ضوء المشاعل وقد عصب رأسه على عينه التى تحفر فى رأسه ألما عميقا لا يطاق ، فقد فقئت يومها فى القتال · واذا بالمناجيق العالية التى تطعن صفحة السماء المعتمة بحبالها وأذرعها الطويلة تتحرك من جانب المعسكر المصـــرى وتدب فيها الحياة واذا بصـــوت كهزيم الرعد المجلجل يقصف ويقرقع وأزيز ضخم تمتلىء به جنبات الليل والنار الأغريقية تطير فى السماء متوهجة بالنور كأنها تنين هائل ينفث لسانا أحمر طويلا له فحيح وصريف ، وتنقض على المعسكر وهى تضيئه كله فتلمع الأسلحة والوجوه المرفوعة فى ذعر حيوانى تفتقد كل مهرب للخلاص وألسنة لا عداد لها من اللهب تنبثق على جسوم الجنود وتنشب فى ثيابهم وتثب من أخشاب المتاريس وتطير بجوانب خيامهم، والصراخ الثاقب يترامى فى صـــيحات طويلة متصـــلة من الذعر الأخير الكاوى الذى لا يطاق · والجنود تجرى فى الليل كالنمل تحمل سطول الماء ترميه على النار فيتطاير عنها بخار له نفث ونشيش وتزيد النار توهجا وضراما ·

وأمام معســـكر الملك أقام جوتييه دى شاتييون المتاريس . والحرس يطوف حول المعسكر على الخيل يتنادى ، وسرية من الجند قد رابطت تحت المناجيق التى غنمها الفرنسيون من المعسكر العربى ، قائمة داكنة على الربوة المرتفعة التى تطل على الساحة · والاجسام المحطومة المرضـــوضة لا تكن الى راحة ، والقلق من الأصـــوات

الغامضة الرهيبة التى ترتفع من معسكر المصـــريين كأنها دمدمة غاضبة مكتومة تسرى تحت الأرض ، والفزع الذى يضرب ضربات مفاجئة مذهلة كلما قصفت السماء برعد هذه النار الهائلة واشتعل المعسكر بضوئها وارتج بزئيرها ، وبرد الليل وقلقلة المعسكر كله فى نومه المضطرب ، كلها كابوس فادح يضيق الخناق على جنود الغزاة الذين تقوضت أركانهم ، وارتموا فى الليل على الأرض ركاما يتنزى ويتقلب بمخاوف قابضة لافكاك منها ٠

وما أن أخذت ظلمة الليل الطويل تنجلى رويدا والسماء تصفو وتقل فيها النجوم حتى كان المعسكران يتيقظان وتدب الحياة على الجانبين ٠ وفرق النشابين تلقى بمطر حديدى رقيق نافذ السنان على المعسكر الصليبى وتندفع موجات صغيرة من المتطوعين على رأسهم رجل ربع القوام مجدور الوجه صخرى المظهر يهتف ويشور حاملين فئوسا وسواطير وهراوات وسيوفا عريضـــة من غنيمة الفرنسيين المندحرين بالأمس ، وترتمى الموجات فى مد وجزر متلاحق تبغى الاستيلاء على المناجيق ، وتتلاحم الجنود وتفترق ، حتى اذا أشرقت الشمس كانت ساحة المعسكر المصرى كلها قد انتظمت صفوفا ملتئمة من الفرسان على خيولهم ممتدة حتى مدى البصر من ستة آلاف فارس دارعين فى كامل عدتهم واعتدادهم ، ووراءهم جيوش لجبة من المشاة تغطى البرية والحقول السوداء حتى حافة الأفق ٠ والاعلام والسناجق ترفرف فى خطوط مســـتقيمة فوق الرؤوس ، ولمعان الدروع والسلاح يومض تحت الشمس ، وتدور الجوارح عالية فى السماء ٠

وأقطاى على جواده الأشهب اليوم أمير الجيش المصرى ، وقد تكمى بزرديته ولبس خوذته المكفتة بالذهب ، وحوله زملاؤه وصفوف الرسل والطواشية ، وهو ثابت فى سرجه ، عيناه هادئتان

واثقتان تحت الحاجبين المقترنين الأسودين وأوامره تأتى متلاحقة سراعا · القراغلامية تنطلق فى كل اتجاه ، والفرسان تتحرك فى نظام من موقع الى موقع ، والثغرات فى الصفوف تنضم وتمتلىء ، والصفوف تكثف وتصلب أمام المواقع القوية من معسكر الصليبيين وتخف وتنبسط أمام الأجنحة الضعيفة منهم ، حتى علت الشـــمس وأصبح معسكر المصريين كأنه الآلة المشحوذة التروس والسنان ، لامعة بالقوة الكامنة الهائلة ، متعددة الأجنحة والأذرع ، معقدة التركيب ، تهتز فى استعدادها للانطلاق وسحق كل العقبات ، ليست فيها فجوة ولا موطن اختلال ·

ومرة أخرى دقت الطبول تقصف لها جلجلة تهد القلوب ، فيها نبرة الثقة الوطيدة بالانتصار ، والمزامير والأبواق تدوى فى نداء مرتفع فسيح يملأ الآفاق ويملأ الصدور برياح التحدى والكبرياء ·

صعدت صيحة التكبير عالية فى زئيرها المتلاحق الموجات . وانقضت كتيبة بيبرس فجأة ، تنهب الأرض كأنها جسم واحد هائل يصرخ وتتلاحق خبطات سنابكه تقرع الأرض دراكا ، واذ هى تدخل فى صفوف كتيبة الكونت دانجو وتشتتها تشتيتا ·

تنقلت الفرق على رقعة الميدان فى نظام مدروس دقيق · فرق النشابين بقسيها تنهمر منها سيول النشاب . وفرق المنفطين تبعث النار الأغريقية بأجنحتها الهائلة من اللهب تئز وتقرقع وتلقى ألسنة لا عداد لها من اللهب فى وسط جموع الفرنسيين ، وفرق المنجنيقيين خلف آلاتها العالية ، ترتفع أذرعها الخشبية الهائلة وتندفع منها الأحجار الضخمة ، ثم تسقط على الجنود المذعورين فى دوى وهدير يرج الأرض ويسحق الأجسام والأطراف · والفرسان تكر وتعصف، والمشاة تلتحم وتشتبك ، وعجاج المعركة قد كسى الوجود المشبوبة

بالتراب تسيل عليه خيوط العرق ، وقد نفذ المصريون فى وسط صفوف الاعداء ، يعملون فيها التنكيل ٠

أسفر اليوم عن نصر مؤزر مبين للمعسكر المصرى ، وعندما غربت الشمس كانت الوجوه المتبعة كلها مشرقة باسمة والأجسام ثملة بنشوة النصر واشتعلت المواقد فى الليل وحولها جماعات الصعايدة تغنى أغانيها المترامية النبرات وتصفق ، والرجال ، على التعب الذى يتنزى بهم ، يرقصون ويخطبون ٠ والموشحات والمدائح النبوية ترتفع فى نغماتها الرتيبة على المزمار أمام الخيام ٠

وخلع أقطاى على الجرحى أكسية ومنحهم الهبات ٠ وصلى الفقهاء على الشهداء وكفنوهم وواروهم ثرى الأرض الطيبة ٠ والقرآن يتلى فى قصر الملك وقد أوقدت القناديل وأمرت شجرة الدر فخرج السماط السلطانى حافلا بالطعام لعامة الجمهور ، ونثرت البدر الذهبية فى ساحة القصر وتخاطفها الناس فى فرح كأنهم يلعبون ٠

أسفر اليوم عن مقتل قائد الداوية وهلاك كتيبته وقضى على كتيبة الكونت دى بواتييه وأبيدت الآلاف من فرسان الأعداء ورجالهم وظلت الضوارى والضباع تجوس طيلة الليل فى ساحة القتال وقد بشمت وتخمت من الجيف ٠

وعندما أمر لويس أن تلقى بالجثث فى بحر أشموم وفى النيل ، لفظتها المياه بعد أيام وجرفتها الأمواج شائهة منتفخة ممزقة الأوصال تغطى وجه الماء ، وظل الجنود ثمانية أيام يفصلون جثث الموتى من قتلاهم ويلقونها فى حفر عظيمة على شط النيل وقد خيمت على معسكرهم سحابة ثقيلة من النتونة لا تطاق ولا تنجاب وسقطت خيولهم فريسة لوباء لا يرحم ٠ وتفشى المرض فى صفوفهم المنهوكة

المضيق عليها وشحت الأقوات ونفدت المؤن وتهرأت الخيام · وبلغ الجوع بهم أن أكلوا فى صيامهم الكبير سمك النيل الذى يشم من جثث قتلاهم · وتناهى المرض بهم حتى جفت سيقانهم ويبست وأسودت جلودهم وتربت وتشققت وأصبحت كجلود النعال الجافة التى أبلاها القدم فى خزائنها المغلقة ، وتعفن اللحم فى لثات أسنانهم وفاحت منها نتونة خانقة ، وكانت الحمى والجوع تنفضهم نفضا ، والدماء تسيل من أنوفهم ويتساقطون صرعى ·

والمعسكر المصرى ما يفتأ يناوشهم وسرايا الفرسان والمهاجمين تخز جنوبهم وتتحيف من أطرافهم ليل نهار ·

حتى أمر لويس التاسع بالانسحاب ·

الفصل الثانى والعشرون

كانت الترانيم فى المعسكر الصليبى كأنها أغنيات الجناز ، وعيد الفصح يحل عليه فى أعقاب الوباء الذى تتساقط بين يديه الرجال والدواب ، والمجاعة التى تتألق فى العيون وتشد الوجوه المنحونة البارزة العظام ، والموت الذى يسير فى المعسكر ، كائنا له ريح تعصف بالخيام الممزقة ٠

وفى ليلة الثلاثاء أوقدت نيران عظيمة على شط النيل ، وعلى ضوء ألسنتها المتراقصة العالية حمل المئات من المرضى على المحفات وعلى أكتاف واهنة مترنحة نحو السفن الراسية استعدادا للرحيل ٠ والهواء فى أوائل ابريل يهب على المعسكر المقوض الأركان ، يسفى التراب على الحطام المتناثرة حتى مدى البصر ، فى العتمة المخوفة التى امتلأت بحركات الرجال والخيول ٠

على شط النيل صفوف ممتدة من المرضى على الأرض تنتقل بينها أشباح الرجال ، تكاد تتهاوى لولا وقفة أخيرة من العزم وارادة النجاة ، النيران لا تكاد تدفىء الأوصال المرتعدة بالحمى ، الأنين

الطويل الغـــائب عن الوعى يترامى فى الهـواء ، فيه يأس ونداء لا يسمعه ولا يلبيه أحد ، يختلط بصرخات غاضـــبة وردود جافية خشنة من الرجال • وقد غاصت السفن قليلا قليلا تحت ثقل حشود الهاربين المتراكمة المكدسة على السطوح والأبراج والملتصقة حتى بالحوافى ، يتعجلون المسير ، والنوتية يرفعون المراسى ويبسطون الأشرعة ويشدون الحبال ، وتقلع السفن واحدة بعد الأخرى ، فى الظلام ، حصونا مترنحة يطويها الأفق ، مثخنة بالجراح التى تطأ قلوب الرجال وسطوح المراكب على السواء •

كان الملك قد عهد الى مهندسه جوسلين دى كورفان ، وقادته ، أن يفكوا حبال القنطرة الخشبية التى تصل بين المعسكرين ، ويحلوا رباطاتها ، ولكن الرجل النحيـــل الذى ألهبت جســـمه الذابل وقدة الحمى ونفضته رعدتها ألقى بالأمر الى بعض رجاله ، وهرع الى سفينة يتعلق بسلم الحبال ، ويصعد على جنبها الخشبى المنزلق المبلول المخضر من طحلب الماء وأعشاب النيل •

ومضى الملك على جواد صغير ضئيل الجسم ، وعليه كساء حريرى ، وحوله قادة المؤخرة ، على رأسهم جيوفرى دى سارجين بقامته الطويلة العريضة العظام ، خلخلها المرض ، تتساقط عليها ثيابه وقد اتسعت عليه وتهدلت ، ولكن فى أضلاعه قوة باقية من الولاء لسيده ، وجوتييه دى شاتييون بوجهه المربع العنيد ، ومعهما نحو خمسمائة فارس ، وشقيقا الملك ، يشقون طريقهم بين الغيطان فى الليل •

وقد ابتعدوا عن المعسكر ، اذ جاءتهم منه صيحة مروعة ترتفع من عند الأفق ، هدير متطاول من الفزع ودق سنابك الخيل ، يصحبه فحيح وضوء يبرق من بعيد ، ساطع له قرقعة الرعد كأنما تنتقض السماء وتتهدم فى زلزال •

وانما كانت الفرسان المصـــرية قد عبرت القنطرة التى أغفل الفرنسيون تدميرها واقتحمت المعسكر الفرنسى المهجور بما فيه من أثقال وعتاد ، وانقضت على بقايا المنســحبين على النيل ، ومعها المناجيق يجرها أبناء البلد الأشـــداء من الصـــعيد والفلاحين ، وزراقات النار يديرها النفطيون ويقذفون منها ألسنة النار الأغريقية المتطاولة التى تنفث لهبا له ذلك الزئير المروع الذى طـــالما أقض مضاجع الفرنسيين ٠

نشبت النار بشراع المراكب المنسحبة ، وتســاقط من على صواريها أشباح الرجال يطسون الماء ويرتطمون بجدران السفن ، والألسنة الدقيقة تلعق الأخشاب وتتراقص وترتفع وتتناثر بسرعة خاطفة ، فاذ مواقد مليئة باللظى المتأجج المضطرم تتقلب فى النيل ، والصـفوف الممتدة على الشط تتهاوى وتســـكن فيها كل حركة ، وحشود الهاربين تحصدهم السيوف وتطيح بهم الخيول ٠

كان يحيى يتسلق ذراع زراقة النار ، وعلى وجهه الجهم الجامد القسمات نظرة الجد ، ويتعلق بالحبال بين جسم الزراقة العالى المسحوب وذراعها الطويلة الجسيمة ، ويطوح بنفسه بين الحبال ، كأنه يلعب فى المولد ، مســـتمتعا باللعب أمام جمهور غفير ، وهو وحده يؤدى عمل عشرة رجال ، يفك الحبال ويوثقها ، وينزل متعلقا بطرف الحبل حتى يثب الى الأرض بخفة البهلوان ، ويشير لاهث الأنفاس ، سعيدا ، فاذا بالأنبوبة الضخمة التى تحمل الأسهم تعلو رويدا رويدا ، وفى فوهتهـــا الوعاء الملىء بالنفط والمزيج الكبريتى الثمين ، وينحنى الرجال يشدون الحبال المثقلة بجهد التوتر بين الذراع الخشبية وبرج الجسم الركين ، وهم يهتفون هتافهم الصعيدى العميق الأجش ، بلغة أهل بلادهم ٠٠ هيـــلا هوب ٠٠ هيلا ٠٠ هوب ٠٠ ! حتى تبلغ الحبال أقصى درجات توترها وتصر البكرات صريرها الحديدى المشـــدود ، وينظر يحيى الى قائد الفرقة على

جواده ، بعباءته وزرديته ، فيومىء اليه القائد ، ويصرخ يحيى مرة واحدة ، كأن فى صرخته كل الانتقام لمواجعه القديمة ، ومواجع بلاده كلها :

ـ بالله ٠٠٠ !

فيفلت الرجال الحبال وينبطحون أرضا على الفور ، يدفنون وجوههم فى الثرى الطيب الذى فركته الأقدام فى جهد التشـــبث ٠ وتنطلق السهام مجتمعة لها صفير وأزيز وتشتعل النار تزأر وتهدر ، وتضيىء السماء بالوهج الأحمر المتقد ، وتتجاوب صيحات الذعر والاحتراق من جانب الغزاة ٠٠ ومرة أخرى يسقط النوتية والجنود فى الماء يهزون أذرعتهم بحركات مجنونة ينفضون عنها النار الناشبة التى تهب سريعة خاطفة تشوى الوجوه حتى يطويها الماء ٠

لم يكن يحيى وحده قد أشاح بوجهه وان كانت عيناه قد طرفتا بحركتهما اللاارادية من سعر النار ، لكن وجهه الجامد يظل ثابتا يتتبع مسير جناح النار العريضة المقرقعة اذ يسقط فيلف المعتدين بألف ريشة وألف لسان من ضرام ٠ وهو يعود فينظر الى الجماعة الصغيرة تنهض من على الأرض ، هاتفة ، وان كان فى قلوبها الروع، وينضم اليها رهط آخر من الفلاحين يجرون الزراقة الضخمة على قاعدتها الخشبية ذات البكرات ، وفى وسط الرجال يلمح يحيى فى الظلمة ، امرأته ، متلفعة بثوب زيتونى سابغ لكنه محكم لا يعوق الحركة ، وعلى وجهها نقاب ، وشعرها ملفوف معقوص تحت طاقية من طواقى الرجال ، ومعها فريق من النساء يضعن أكتافهن الى القاعدة الخشبية ويدفعنها مع الرجال ٠ ويطوف شبح ابتسامة على ركنى الفم القاطع الحاد الشفتين ، حتى اذا استقرت الزراقة فى موقعها الجديد ارتفع يحيى على حبالها يطوح بنفسه ليفك الحبال ويوثقها بالبكرات ويطير جســـمه اللدن الطويل المرن بين الذراع الضخمة والبرج الخشبى من جديد ٠

وقد هب المعسكر المصرى من الضفة الأخرى وسنابك الخيل لا ينقطع دقها فوق القنطرة الخشبية ، تتدفق وراء الجيش المنسحب بأمواجها التى لا تقف ولا تفرغ ، وصفوف الرجالة تمتد فى الليل طويلة لا نهاية لها والأغانى ترتفع منهم بترجيعها الموقع الموزون . اذ يخرجون لملاحقة المشاة الفرنسيين الناكصين ٠

كان حسن بن منصور يطير الآن فى الفجر ، على صهوة فرس خفيفة ، بلقاء ، تلمع النقاط البيضـــاء فى جلدها من العرق ، بين النقاط السوداء ، ووجهه المجدور الصخرى يلفحه هواء أخذ يشتد ويعصف ، وحوله كوكبة من الفرسان والى يمينه أسامة على فرسه الصهباء ، انتفخت عباءته البيضاء بالهواء كالشراع ٠ كان حسن قد لقن ركوب الخيل وأصبحت له قيادة وامارة ، وتجمع بين يديه فوج كبير من الفلاحين ، مشاة وراكبين ، يوجههم فيأتمرون بقوله ٠ وقد أبلى فى القتال طيلة الشهور الثلاثة الماضية ، وحصل بين يديه الأسرى الكثيرون ، وأحسن ادارة السيف وفروسية الحرب ٠ كان أسامة يعلمه اليوم فاذا هو غدا يفوقه ويغلبه ٠

وأسامة اليوم ، فى ضوء الفجر ، قد ثبتت عيناه على فلول من الجند الفرنسيين تبدو من بعيد ، ولم تعد فيهما نظرة الاستخفاف بالعالم ، والسخرية بكل شىء ، بل بريق ثابت عنيد ٠ وهو يسمع بين دقات سنابك الخيل صرخة طويلة لا يسمعها الآن ٠ ويرى وجه جعفر ابن عمه مفتوح الفم جاحظ العينين يسقط مدهوسا ، وفى صدره ضربة خنجر يدفعها أسامة بيده حتى المقبض ٠

كان أسامة قد رأى ابن عمه يعود فى صباح الثلاثاء المشهور ، بعد أن عبرت الحملة الفرنسية مخاضة بحر أشموم الى المنصورة ومعه أكياس كبيرة معلقة تحت عباءته ، على جنبى فرســـه ، ولم

يتردد جعفر فى أن يروى عليه ، بزهو وفخار ، كيف كسب خمسمائة قطعة ذهبية من مال الكفار ، ودلهم على المخاضة ، ويقول :

ـ ٠٠٠ وأقدر الآن يابن العم ان أملك ابل القبيلة كلهـــا ، وما عادت بى حاجة الى الرعى والخروج الى الصحارى والقفار ٠ خمسمائة ٠٠ خمسمائة قطعة ذهبية الواحدة منها تنطح الأخرى ٠ !

وضحك فى استمتاع ٠ لكنها كانت ضحكته الأخيرة ٠ وعندئذ وقف أسامه عيناه الصغيرتان تتقدان وقال له بصوت أبح مكتوم :

ـ تبيع السلطان وأمة المسلمين ؟ وتفتح أنت بيدك ثغرة للكفار ينهبون البلاد ؟

ـ مالنا نحن والبلاد والسلطان ؟ ماذا نالنا منهم ؟ لم أخن عهد القبيلة ولا ذمة شيخنا ٠

ومازال أسامة يسمع الصرخة التى تدوى ، ويحس يده على مقبض الخنجر الذى يغوص فى قلبه ولحمه ٠ ابن عمه ٠ أقرب اليه من الأخ والولد ٠ لكن يده لم تتخاذل ، لم تتخاذل ، ذراعه لم يشل ، وليس فى قلبه ندم ، بل وجع قابض يشد الأوتار ولا يرتخى أبدا ٠ لم تعد عيناه تلمعان بالسخرية والاستخفاف ، بل يثقلهما بريق آخر من العناد والنزوع الى الفداء بشخصه وحياته ٠ وفى هذه الشهور الثلاثة أتى وحده بما يشبه المعجزات من أعمال المخاطرة ، كأنه يطلب الموت ويجرى وراءه ٠ ولم يصبه خدش ، على كثرة مانكل بالاعداء وألقى بنفسه بين صفوفهم ، يطيح بســـيفه ولا يمل من الطعان ٠

وهم الآن يركبون فى أدبار الغزاة الناكصين ، وبعد لحظات قلائل سوف يمسك السيف من جديد ، وسط هذه الصفوف التى تقترب منهم ، اذ تركض خيلهم اليها ، ويعود السيف يشرب الدماء

من جديد ، لا يرتوى ، يثأر بطريقة ما ، لمقتل ابن عمه ، كأنه يشفى غلة لارى لها ، كأنه يلتمس أن يضحى بنفســـه ، ليبرئها من اثم متغلغل فيها ، اثم هو الخير بعينه ، هو واجبه الذى لم يكن منه مندوحة · ولكنه على يقين بانه قد أتى الفريضة التى يقتضيها منذ الآن ولاء عميق ، مازال يشعر بالتياث الجريمة والأثم يلطخ نفسه ومازال يسعى ليغسله عنها · ولن يطهره منه الا شىء واحد نهائى ·

وحسن الى يساره يقترب منه بجواده ، ويلتفت اليه بحركة الفارس البارع الواثق ، وصخرة وجهه تشرق فجأة وتتهلل ، كأنما ينبع فيها نور داخلى طيب ، **وهو يلهث قليلا اذ يقول :**

ــ ياليت معنا الآن صاحبنا ذاك · كنت أحب أن أراه معنا على حصـــانه الأسود ، ليروى قلبه من مرأى هزيمة الغادرين · هزيمة لن يقوموا بعدها على حيلهم يا أسامه · قصـــمنا الليلة ظهورهم ·

ويعود اليه أسامة من قبضة الحلم السىء الذى يعصر قلبه ، ويقول بصوت خفيض :

ــ فجأتنا الأحداث يا حسن · أما أنا فلم أره منذ أيام كثيرة · هل رأيته من قريب ؟

ــ يالله ·· ذكرتنى أنت الآن · لم أره منذ زمن طويل أنا أيضا أين ذهب الرجل ؟

ــ ما من أحد يعرف حركات هذا الغريب ولا سكناته · حتى اسمه وبلده مازالا سرا · وان كان فى ظنى أن شـــيخنا عبد الله يعرف ·

ــ قال له الغريب ؟ أم عرفه الشـــيخ وحـــده ، ومن وراء الحجاب ؟هذا الشيخ ولى كريم · سقط عليه الفرسان يوم المنصورة،

وسقط بين يديه محمد بن عثمان رحمه الله · ولكن الله أحاطه بدرع من عنده · ببركة القرآن ونعمة من عند الله ·

كانت الريح قد اشتد عصفها ، اذ انطلقت صـــيحة التكبير والتهليل من فرسان المصريين ، وهم ينفذون بين الفلول المتناثرة التى تجرى أمامهم بين الحقول ، والسيوف قد سلت تلمع عليها أشعة الشمس الأولى ·

والريح على النيل ، من بعيد ، تدفع سفن الفرنسيين التى بسطت أشرعتها ، وترميها على السفن المصرية المتربصة لها ، والتى كان السـلطان الجديد طورانشـــاه قد نقلها على ظهور الجمال ، مفصصة الأخشاب والألواح ، من خلف المعسكر الفرنسى ، فقطعت عليه طريق الامداد ، وأحكمت توثيق حلقة الحصار ، وأســـرت شوانيهم وسفنهم الحاشدة بالمقاتلة ·

نوتية السفن الفرنسية يشدون آخر الجهد فى عضـــلاتهم ، يحاولون انزال الأشـــرعة وربطها بالحبال ، ولكن التيار يجرف السفن ، كأنها جثث أخرى ضخمة طافية لا تملك من أمرها شيئا · وتتلقاها صيحات الفرح من سطوح السفن المصرية ، وتنهمر عليها سيول من السهام ، وتندفع فى اخشابها وصواريها نار النفط تنبثق من الحراقات المصرية ·

كان مأمون الفران يشعل النفط بخرقة ملتهبة يدفعها بيده ، وهو فوق المنجنيق الذى يقذف أنابيب النفط ، على سطح الحراقة كانه يشعل تنور الفرن فى حارة الفرانين بالمنصورة ، والريح تلعب بالنار أمام وجهه ، وتردها عليه أحيانا ثم تخطفها الى أمام ، لكنه ثابت القدم على قاعدة ذراع المنجنيق ، بين الأشـــرعة المربوطة بالحبال المتينة فى صواريها ، والمنجنيق يهتز ويتمايل من الموج ، ولكنه لاينى يتناول الخرق المبللة بالنفط من الرجال يرفعونها اليه ،

وهم متعلقون بالصارى الكبير ، يلقفها الواحد منهم من الآخر ، حتى تصل اليه فيغمسها بسرعة فى مجمرة النار عن يمينه ، ويدفعها بحركة خاطفة مدربة فى مؤخرة الأنبوبة ، ويهتف رجال المنجنيق من تحت ، وتنطلق الأنبوبة تصب النفط المشتعل على سفن الفرنسيين الضخمة التى تتمايل على الموج ، ثم يتغطى سطحها بالنيران والدخان الأسود الكثيف · والحرارة قد توهجت بالوجوه النشطة الجادة المعقودة فى عمل فرح دائب ·

ورأى مأمون من موقعه بأعلى المنجنيق ، فرنسيا يتحامل على نفسه ويلقى فى النيل بحق صغير ، ثم يلقى بنفسه فى المياه من سفينته ، قبل ان يدركها مركب صغيرة تهتز بما عليها من مقاتلة المصريين ·

كان جوانفيل ، محموما ترتعد أسنانه واهن القوى ، يخبط الماء بذراعيه يلتمس النجاة بأن يسلم نفسه ، من تلقاء نفسه ، الى السفينة التى كان عليها مأمون · فهو ان بقى فى سفينته فلا نجاة له · وعندما رفع رأسه ، يشهق وينفث الماء ، رأى المقاتلين المصريين يتواثبون على السفينة التى ألقى بنفسه منها ، ويصيحون ، سيوفهم مسلولة تخبط رقاب رجاله وجنوده ، واذا هم يسقطون فى صرخات الموت الزاعقة الأخيرة ، على الأخشاب ، ويتطوحون من على الحافة ويطسون الماء اذ يغوصون ، والنيل قد امتلأ بشظايا الخشب المتفحمة ، مازالت النار عالقة ببعضها تطفو فى اتجاهه فتلفحه ، والصناديق المفتوحة تتمايل بهدوء على الماء ، والثياب المبسوطة تغوص رويدا رويدا من البلل ، والحطام يصطدم به ، ولولا ان كان يسنده أحد بحارة سفينته من الشاميين ما استطاع ان يصل الى جدار السفينة ·

رآه مأمون اذ يجره جند أمير السفينة ، وجوانفيل يشهق ،

ويترنح ، وينفض نفسه من الماء ، ويقول بصوت مرتعد محموم :
ـ ابن عم الملك ٠٠ ابن عم الملك ٠٠ !

فيشير الأمير يحول دون الجند أن يقتلوه ، ويلقون عليه قباء من ملابس الأمير مبطنا بالحرير ومنطقة بيضاء يشد بها وسطه المتهاوى المخلوع ويدفئه ، وطاقية صفراء من الجوخ ، بعد أن نزعوا عنه ملابسه المبلولة جميعا ، وانكشف جسمه الضاوى اليابس المشدود فى الهواء ، وجففه الخدم بمئزر من الصوف كثيف الوبر ٠

وعندما نزل مأمون من المنجنيق متعبا ولكنه هادىء الأوصال مستريح النفس ، طاف بذهنه أننا ياأولاد العرب ناس طيبون ، ولا أقول يا مأمون سذج بلهاء ٠ ومازال عندنا كرم أبناء البلد وشهامتهم ٠ هذا الغادر الذى أتى يقتحم ديارنا يريد أن يسلبنا الكرامة والقوت والحياة نفسها ، مع الآلاف المؤلفة من قومه ، آثمين عداة باغين ، يتهددون وينذرون ويزهون بالطغيان ٠ ومع ذلك فنحن نأويه اذا استجار بنا ، وندفئه من برد ، ونؤمنه ، ونطبب له أيضا ٠ والله قوم طيبون ٠٠ !

وابتسم لنفسه ، وهبط الى قاع السفينة ، وهو يلقى نظرة أخيرة طيبة لا عداوة فيها على الأسرى الفرنسيين ، ومعهم هذا الشريف منهم يسقيه جند الأمير من دواء عزيز ثمين ٠

حط مأمون رأسه على ذراعه ، بين الرجال ، يحس نفسه فى عائلة كبيرة حميمة وثيقة الأواصر ، كلهم أخوة ، وكلهم شداد القلوب وطيبون ٠ ونام على الفور بعد الجهد الطويل ٠

الفصل الثالث والعشرون

كان الليل يوشك أن يهبط ، والريح قد سـكنت ، والغيطان الفسيحة ممتدة حتى حافة البصر ، يحيط بها هذا السور الغامض البعيد من الشجر ، والملك لويس التاسع على جواد صغير منخفض، بين رعيل كثيف من فرسانه وحرسه ، يقتربون من بلدة تلوح معتمة تهتز بين بيوتها الطينية الصامتة ذبالات مسارج قليلة ، وخاوية موحشـة كأنها مهجورة · والخيل قد أخذ منها التعب ، ومؤخرة الجيش المنسحب تتقدم بطيئة واهية القوى ، متقاربة كأنها تلتمس أمنا في الصحبة ، ودفئا من برد الخوف والليل المقبل المحمل بالنذر ، والمصير المجهول · وتتجاوب ، من وراء ، صيحات القتال والكر ، من فرسـان المصـريين الذين يناوشـون المؤخرة ويخزونها . ويعرقلونها ·

لويس الملك القديس صامت مقهور القلب ، تهدمت أوصـال جسمه جميعا من المرض والوصب ، ممسك بمسبحة ، يقود حصانه بيده اليمنى ، وفي ذهنه خليط من الأفكار المضطربة مهوشة من تعب المسيرة الشاقة تحت التهديد المستمر ، وألم القروح الموجعة من أثر

الوباء ، ومرارة الهزيمة والانسحاب وما لحق بجيشه من خراب ٠ والفرسان حوله على جيادهم المنهوكة ، تبلدت عيونهم وجمدت قلوبهم طافحة بالمرارة ٠و كانت الى الطريق أشجار طويلة السيقان فى ذؤاباتها أغصان صفراء الورق ، ناحلة فى السـماء المعتمة ، صامتة ٠ جاء فارس شاب عظام وجهه الطويلة الشـاحبة تشى بالقلق الذى يفترس نفسه ، واقترب من جيوفرى دى سيرجين قائد المؤخرة ، **وقال وهو ينهج :**

ـ الفرسان العرب يقتربون ياسيدى بأعداد كبيرة ٠

فأجاب جيوفرى دى سيرجين ، ورداؤه الثمين يتهدل على منكبيه العريضين الهزيلين ، فى الظلمة القليلة ، **كأنه غراب ضخم جاثم على فرسه :**

ـ وما حال دى شاتييون ؟

ـ يقاتلهم هو وفرسانه ، ويعطلهم قدر ما يسـتطيع ٠ **لكن الموقف حرج ٠**

قطع دى سيرجين صفوف الفرسـان والنبلاء ، واقترب من الملك :

ـ عفوا يامولاى ٠ يجب أن نسـرع بالاحتماء فى البلد ٠ الاعداء يقتربون والموقف يتحرج ٠

هز لويس التاسع رأسه فى اقتناع ، وضعف ٠ كانت الآلام والتعب قد أخذت منه مأخذها ٠ والدنيا تدور حوله فى كابوس صامت مظلم ٠ ويحس أن هذه الليلة لن تنقضى ، ولن يطلع عليه النهار ، احساسا قابضا لا يريم ، وغريبا ٠ فليست هذه الليلة الأولى التى يقبل عليها وقد دارت عليه الهزيمة ، لكنه كان يجد فى نفسه دائما أملا وقوة ٠ أما فى هذه البلاد الغريبة ، وسط هؤلاء الناس الذين يدفعون عن أنفسهم وعن أوطانهم ، وعن دينهم ، بحماسة خارقة ،

ونسيان للذات لا يكاد يصدق ، واقبال على طلب الموت كأنهم يشتهونه ويتمنونه ، هذا ما لم يلقه فى حروبه السابقة فى المانيا · وقد كان يظن أنه يحمل عليهم برجال وهبوا أنفسهم للذود عن الصليب ، وضحوا بالدنيا فى سبيل اعادة المجد الى القبر المقدس · وهز رأسه مرارا ، فى يأس · لم يجد حواليه فى محن الحملة الا مقاتلين يجرون وراء انتهاب المتع واللذائذ ، وينسون القتال ، يسعون وراء السلب والربح ، ويسعدون بالغنيمة السهلة · من كان يصـــدق أنهم ـ فرسان فرنسا ونبلاءها ـ يقيمون مواخيرهم ، نعم مواخيرهم حتى تضج بالفســـاد والخطيئة ، حول منزلته ، وعلى رمية حجر من مقامه ؟

من كان يظن أن هذه الجموع الغفيرة من النساء اللاتى أقبلن مع الحملة ، تحت راية الصـــليب ، يبعن أنفســهن وأجســادهن للشيطان ، ويوقظن فى الجيش شهوات الدماء الغليظة ؟ وهاهو ذا أخوه قد مات تحت سنابك المصريين ، وجيشه الضـــخم قد تفتت الليلة بين هذه الغيطان الفسيحة ، وتناثر أشلاء ·

الليل المخوف مقبل ، مجهول المصير · وحزن الموت فى نفسه ، اذ يقع بصره على ربوة صغيرة ، من تلك الربوات العالية التى تقوم دائما عند مداخل قرى هذه البلاد · عليها القبور المنخفضة الطويلة ، يضوء بياضــها بالليل ، كأنها تحدجه البصـــر بعيون لا تغمض ، عارية من الشجر · كأنها تضم فى هذه الارماس شهودا يقظين أبدا ، يتجهون اليه بالاتهام الذى لا يستطيع ان يدفعه عن نفسه ·

دخلت صفوف الفرسان الشارع الضيق فى مدخل البلدة ، ودبت حركة سريعة اذ خرج بعض أتباع الحملة من البيوت يفتحونها لفرسانهم ونبلائهم · هذه البلاد خاوية على عروشها ، اقفرت من

أهلها ، يتركونها للمغيرين ، تركة ثقيلة لا يعرفون ما يصنعون بها ٠ الحقول قد بقيت بغير زراعة ، ولم يعد خوار البهائم الذى يوحى بالخير والبركة يسمع فى هذه الآفاق الموحشة ٠ وأوى الملك الى بيت صغير جدرانه من طين عار ، حجراته ضيقة ٠ خرجت منه امرأة فقيرة من سـكان مدينة باريس ، بدينة تلملم شـالا قذرا متهدل الحواشى على صدر عار ضخم مكور بذىء ، وعيناها القلقتان السريعتان تضيقان اضـطرابا وانفعالا لمرأى الملك يدخل بيتها ٠ وانحط الملك على دكة خشبية فرش عليها بعض القش وفوقه ملاءة سرير انتزعتها المرأة فأتت بها من الداخل ،ورمت الى الأرض قماش الخيام الذى أسود من العرق والذى كان يغطى القش ٠ والتعب يطحن عظامه ، وكأن شرايينه جميعا قد فرغت من الدم ، ليس فيها الا ألم الارهاق الأخير وبرد الوحشـة والخواء ٠ ولكن مسـامعه التى تدور وتطن تقتحمها ضجة مختلطة وصيحات ونداءات ، وصهيل خيل فى الليل ، وسنابك تجرى وتلف ، والهتافات التى ترن فى أذنه غريبة منذرة ، هتافات الفرسان المصريين الذى طالما سمعها ، لكنه فى كل مرة يرتعد لغرابة وقعها ولغتها المجهولة ، على رغم ما منحه الله من بسـالة قلب وشـدة عزم ، وعلى خبرته بفنون الحـرب والفروسية ٠

الصيحات تقترب وتخفت قليلا ثم تشتد ٠ والنزال سجال على رأس الشارع نفسه ، والبلدة الصـغيرة قد أحيط بها ، ومؤخرة الجيش كلها قد وقعت فى حصار لا منجى منه لها ٠

وبقلب متدهور استقر لويس التاسع على أن يرسل أحد كبار فرسانه ، فيليب دى مونفور ، ليفاوض قائد الفرسان المصريين فى عقد هدنة ٠ لم يبق الا هذا السبيل ، لانقاذ البقية الباقية من الحملة، ومن كرامة ملكها ٠

كان دى شاتييون هو الفارس الذى بقى يدافع عن الشارع الضيق ، وحده تقريبا ، مع ثلة قليلة من فرسانه وجنوده ، والله يدرى أين ذهبت بقية الفرسان والقواد ؟ عساهم أيضا ينافحون ، بما تركه لهم الاندحار من بقية عزم وصبابة قوة ، دفاعا عن أنفسهم أمام هذا السيل العارم من الغضب الذى تدفق عليهم ·

اقبل فيليب دى مونفور ، فى ردائه الثمين ، كأنه كاردينال من كرادلة الكنيسة ، لمفاوضة قائد المصريين ، مع نفر من فرسانه ، من غير سلاح ولا درع ، يلوح بطلب الامان · فأدخل على بيت كبير وقفت الخيل العربية النشطة أمامه ، وسبقه القرغلامية السود الى جمال الدين محسن الذى استقبله جالسا مع رهط من الأمراء ، قد جعلوا عماماتهم ونعالهم ، على بســـاط مازالت تبدو عليه الجدة والرونق · المعركة ما فتئت تدور فى الخارج ، على نواصى البلدة · وهناك صيحات هذا الفلاح المصرى تدوى فى الليل ، على فرســـه البلقاء ، وبجانبه فارس بدوى تطير عباءته فى الليل ، وترفرف فى كل مكان ، فى شرق البلد وغربها ، سيفه لايزال يرتطم بالســـيوف والدروع والأعناق ، كأنه شيطان تنشق عنه الأرض فى كل مكان · ودى شاتييون يتقهقر ببطء ، تدفعه قوة لا غلاب لها ، يتخلى عن الأرض بالرغم عنه ، لا يبقيه على فرسه الا العناد ·

المفاوضات تبدأ ، والطواشى جمال الدين محســـن ، بوجهه السمين وشفتيه النديتين يسمع الى المترجم ينقل عليه عرض الهدنة من ملك الفرنسيين ، واذا بصيحة تدوى فى الشارع ·

خرج أحد منادى الملك من آخر الشارع يجرى ، مذعورا ، كأنما يطارده حلم له ألف مخلب ، ويصيح :

ــ أيها السادة الفرسان ، أيها السادة الفرســـان جميعا ،

سلموا ·· ! سلموا ·· ! أمرنى الملك بأن أنقل اليكم أمره بالتسليم · لا تتركوا الملك قتيلا هنا ·· سلموا ·· !

كان الرعب قد أشعل الرجل بنار لاذعة ، والكلمات تنثال منه فى صيحات يائسة :

ـ سلموا ·· سلموا ·· لا تتركوا الملك قتيلا ·· !

خفتت ضجة القتال ، وتراجع الفرنسان الذين هدهم العتب وأثخنتهم الجراح ، كأنهم ارتاحوا ، بعد لأى ، الى التسليم · وترددت الخيل متحيرة ، ثم ارتفعت صحيحة واحدة هادرة :

ـ الله أكبر ·· ! الله أكبر ·· !

انقض حسن بن منصور على فرسه البلقاء ، وقد سل سيفه عاليا فى الهواء ، وجهه المجدور يلمع فى الليل بنار متوهجة · ومازالت آخر المناوشات المترددة ترتطم وتتصادم · دى شاتييون لم يغمد سيفه ولم يلق درعه · وأسامه مازال يناجز شابا مندفعا على جواده ، نسى كل شىء فى سورة رعب مستميت يحفزه الى القتال دون هوادة ، كالحيوان الذى يحدق به الحصار ، فيستمد من يأسه قوة لا هدف لها الا الضرب والرد بالظفر والمخلب ·

أحس أسامه نفسه يتهاوى من على فرسه الصهباء ، وفى صدره شىء بارد حاد يدخل حتى الأضلاع · كان يطلب الموت ، ولكن الموت عندما جاءه لم يعرف أسامه عنه شيئا · لم يفهم ماذا حدث ·

رأى السماء الزرقاء الداكنة ، بعيدة فوق رأسه ، فيها عذوبة رائعة ·

لم يرها قط بمثل هذا الجمال · والنجوم كثيرة تومض فى سلام · والأشجار تهتز أغصانها بين النجوم ، هادئة ، مورقة ، غضة وجديدة · وقد ساد فى الأفق كله صمت حلو ·

سقط الفارس البدوى الشجاع الذى طالما اسـتخف بالعالم وآذاه العالم ، سقط فى لحظة من السـعادة والمتعة العميقة بجمال الكون ، لم يعرف أنه يفارقه ٠

انقضت كوكبة من الفرسان على الشاب الفرنسى الذى كان يدور بفرسه ، يريد الفرار ، لكنه يجد نفسه مندفعا يقتحم ، فى لوثة الذعر المجنون ، صفوف المصريين ٠ واعتورته سيوف كثيرة ، وهو لا يسمع الا صلصلة الحديد الرقيق الحاد ٠

كان أسامه هو آخر شهيد فى معركة الليلة ٠ أسقط الفرنسيون دروعهم وسلاحهم على الفور ، وهب جمال الدين محسن وأمراؤه يحيطون بأسراهم فى البيت الكبير ، وانفتح الطريق الى ملك فرنسا الذى وجدوه على فراشه من القش ، جالسـا فى قبضـة التعب ، مقوض الأطراف ، رجلا مريضا مهدود الحيل ، كأنه أى فلاح نحيل متعب ، خربت زراعته ٠٠ !

عندما وجد أقطاى أن الحقول أمامه قد أقفرت من كل مقاومة ، نزل وفرسانه وجنوده يجهزون على البقية الباقية من فلول الجيش المنهزم الى بعيد ، وعندما اقترب من « منية أبى عبد الله » مع كوكبة من فرسانه ، رأى العلم الضخم الحريرى المشقوق الذى طالعه منذ نحو عام ، على شط دمياط ، منكسـا متهدل الأطراف على تراب الغيطان ، يمسك ساريته أحد العبيد ، ويسـقط القماش المريض الثمين من على جانب الحصان ، يمسح الأرض ٠

كان علم الجيش الفرنسى قد سقط فى « منية أبى عبد الله » مع ملك الفرنسيين وشقيقيه دى بواتييه ودانجو ، ونبلاء مؤخرة الجيش جميعا ، لم ينج منهم أحد ٠

وأقبل حسن بن منصور ، وجهه الصخرى كأنما شققه الألم ولوعة الفقد · ورآه أقطاى من بعيد ، وخفق قلبه · كانت على الفرس البيضاء جثة ملفوفة بالعباءة البيضاء · وجاء يخب من بعيد حصان فرنسى ملوث بالدم ، ليس عليه راكب ، كان دى شاتييون قد سقط فى المعركة الأخيرة وما عاد أحد يعرفه وسط القتلى الذين امتلأت بهم الحقول وشوارع البلدة ·

كانت المنصـــورة لم تهجع بعد ، عندما أقبلت طلائع الموكب تخترق الباب الكبير ، ودوت طبول النصر من قصر السلطان ونفخت أبواق البشائر فى الليل ، وخرج الناس يملأون الشوارع ويتناقلون الأخبار · وقف الشيخ عبد الله امام عتبة الجامع ، فى حشد متزاحم من الناس ، والقناديل قد لمع ضوؤها من وراء خصاص النوافذ ، والأبواب ماتزال تنفتح ويتدفق منها الناس ، وهتافات التكبير تنطلق من الوجوه اللامعة بالفرح ، والحديث السريع يســرى بين الناس متطايرا بالبهجة والانفعال ، والعيون تتطلع فى اتجاه الباب ، بين الناس الذين لا يعرفون بعضهم بعضا ، وقد أختهم نشوة النصر ، بعد أن آختهم الشدة والمحنة :

ـ تمت عليهم الكسرة بعون الله · الحمد لله ·

ـ ملكهم طلب الأمان من جمال الدين محسن الصالحى ·· فأمنه ، وسوف نراه الآن أسيرا ذليلا ·

ـ وهل لهم أمان أو عهد ، الظلمة الآثمون ؟ والله لتجز رأسه هو وأكابر قومه ، وترسل على الحراب الى القاهرة ، لترشق فى سورها ·

ـ معاذ الله يارجل ·· ! ماداموا قد طلبوا الأمان ·· ! والله ما ننقض عهدا أخذناه ولا نكسر أمانا ، حرام عليك يا رجل !

ـ حسب المجرمين الغادرين ذلة أن ملكهم يقاد أسيرا لا حول له ولا طول ٠٠ ! كفانا الله بذلك نصرا مؤزرا من عنده ٠٠ أسمعت أن جيشهم قد أبيد وتمزقت صولته ؟ الحمد لله ٠

ـ النصر للمؤمنين ٠٠ ألم أقل لك دائما أن مصـــر محمية باذن الله !

ـ هذا الشيخ هناك ؟ تراه ؟ هو أول من بشرنا بالنصر ٠٠ وكراماته معروفة مشهورة ٠ فى أشموم طناح أتاه بشير من السماء وقال له : أبشر يا عبد الله ٠٠ أنتم منصورون باذن الله !

ـ هذا الشيخ هناك ؟ تراه ؟

وانشق الطريق بين الصفوف المتدافعة الفرحة ، واقبل الفرسان يفسحون السبيل ، وظهر جمال الدين محسن ، والى جواره فارس الدين أقطاى ورعيل من الفرسان والأمراء ، والمشاعل تتوهج يحملها الخدم ، وتلقى على المشهد الحافل بأنوار متقدة كأنها تغنى وتهتز بسعادة خاصة لها ٠

ـ أتراه ؟ هناك ٠ وراء جمال الدين ؟ ذلك النحيل الأصفر الوجه ؟ هو الملك الظالم ٠

ـ لا يرفع رأسه ولا بصره ٠ هل أحس الآن جريرته وثقل اثمه ؟

ـ ذلك الذى كان يزهو بجيشه ويتهدد سلطاننا رحمه الله ٠ كسر الله جبروته ، واستذلت رجالنا عنقه ٠

ـ وهؤلاء فرسانهم لعنهم الله ٠ تأمل الوجوه القاسية الغليظة٠ يقولون أن لهم فى صدورهم احجارا فى موضع القلب ، لبسها لهم الشيطان ٠

ـ يا شيخ اعقل · قلوبهم جاحدة لم يشرق عليها النور ، أى نعم · ولا يعرفون الا الجور والعسف لكنهم بشر مثلنا وانما أضلهم الشيطان وشهوات الدنيا ·

شق الموكب طريقه حتى دار فخر الدين ابراهيم بن لقمان ، وكان الخدم يهتفون بالناس أن يفسحوا الطريق والساحة أمام الباب ويردونهم بالمقارع يشهرونها ولكنهم لا يمســـون بها أحدا ، كأنهم يشاركون الناس الفرح ، وكأن الليلة ليلة عيد ·

ومنذ الصـــباح وكل السلطان غياث الدين طورانشاه عبده الطواشى صبيح المعظمى ، وقد جعله أمير جانداره ، وصفيه ، وقائد خاصـته ، بأن يحفظ ملك الفرنســـيين وأخويه ، وعدة من أكابر قومه ·

عندما تيقظ لويس التاسع من النوم القلق المفزع طيلة ما بقى من الليل وأجال عينيه المثقلتين حول الجدران الغريبة ، والبســاط المنقوش ، وسمع حديث الحرس والخد ميلغطون حول الباب ، ويدخل بعضــهم اليه والى نبلاء فرنسا معه ، فيلقون عليهم نظرات التطلع والاستغراب ، عندئذ لم تبق له الا مســـبحته يتلو عليها صلوات طويلة ، فى قبضة هذا الكابوس الذى أقامه هو بنفسه ، وأراد ان يحكم حيطانه ، فاذا هى تطبق عليه ، وتوقع به فى أسرها الوثيق ·

دخل عبد حبشى فحل رائع البنيان ، وعليه طيلسان حريرى لامع باذخ ، وفى يده عصا ذهبية ، وعلى رأسه عمامة هائلة من الحرير الأحمر كأنها الجمر المتقد · ودخل وراءه رجل ربعة غليظ الكتفين ، وصبية يحملون الحديد والمطارق · وهتف صبيح شيئا ، بصوته الأجش ، وأحاط الجند بالملك الأسير ، صامتا منهوكا والنهار لم يشرق بعد ، كان التعب قد لازمه فى نومه ولم ينقشع ، وأجلس الملك على البساط ، وركع أمامه الحداد وأحيط بالقدمين الناحلتين

اليابستين بقيد من حديد دقه الحداد بمطرقته طرقات بارعة عالية لها رنين مكتوم ·

وأشراف فرنسا ينظرون ، قلوبهم معقودة بالخوف والانتظار ، لا يتكلمون · والساحة الخارجية قد اكتظت بالأسرى من الجيش المنكسر ، وأقيم لهم سرادق ضخم ، جلس صاحب ديوان الأسرى على بابه ، يقيد أسماءهم وصفاتهم ، وهم يدخلون صفوفا طويلة لا تنتهى كالقطعان ، قد عفرت وجوههم الحليقة المغشاة بزغب خشن ، وتمزقت ثيابهم ، عزلا من غير سلاح · لم يعودوا الآن الا بضاعة تشترى بالفدية ، أكواما لا قيمة لها من لحم بشرى مهين · ولى عنهم العتو وجـــبروت العدوان · وعندما أهل أقطاى فألقى بنظرة الى هذه الحشود التى يثور لها لغط مدوم خفيض ، وتفوح منها روائح الزحام والعرق والأجساد المركومة فى الضيق ، ثبتت نظرته فى الفراغ قليلا ، وتذكر شيئا كان قد قاله أسامه الشهيد ، رحمة الله عليه · قال له ان للعدالة شريعة قاسية ، صارمة ، لا تعرف حيدة ولا التواء ، ذلك فى هذا الحيز المكدس بنفايات الحملة الظالمة ــ هو منطق العدالة ·

جرت العدالة على سننها · وتقدم أمر الملك المعظم غياث الدين طورانشاه لسيف الدين بن الطودى ، وقد كان وصل معه من كيفا ، وله منزلته عنده فى القصر بعد أن تقلد الحكم ، بأن يقتل الأسرى من الفرنج · تلك شريعة الحرب ولا مندوحة عنها بعد الهزيمة · ولو قد حدث أن حاقت بنا الهزيمة لما نجا شيخ أو طفل أو امرأة من سيوف الفرنسيين ولقامت مجزرة كتلك التى أقاموها فى بيت المقدس عندما اقتحموه ·

وكان النيل فى كل ليلة يحمل الى البحر بقايا الأسرى التعساء، لايفرق بين القائد الغازى الذى جاء ينهب ويثرى ويستشرى ، وبين الفلاح المخدوع الذى غرر به ولقى مصرعه هنا ، على أرض غريبة ·

الفصل الرابع والعشرون

نهض السلطان الشاب طورانشاه من السماط ، وعلى وجهه وسيم ثقل ووخامة تجعل الأسارير الدقيقة مظلمة بسحابة التعب من أثر السهر والليلة العاصفة المعربدة التى قضـــاها حتى قبيل الفجر بقليل ، بين الحريم والغلمان ، كأنه يقطع الأمواج الهائلة الكبيرة من بحر المتعة الصاخب برياح تحمل جسمه الممشوق المتين الناحل ، وتحطه ، ترفعه وتخفضه بين الأجسام المكشوفة لمتعته · وتسللت ابتسامة لم يحسها الى قطوب وجهه الذى يقلد به أباه ، ورأى جلساؤه عينيه تغيمان بشبهة الابتسامة البعيدة الخاصة اذ طافت بذهنه صورة تلك الجارية الشقراء التى كانت وحدها بين الجوارى عاصفة من اللذة والمتعة والبهجة ، فى سراويلها الشفافة التى اتخذتها على زى سراويل الغلمان ، وشفتيها القانيتين بخمر المجون ، وجسمها المبذول · واذ نهض لم يملك الا ان ينعقد وجهه من ألم الصداع الذى انبثق كالبرق يخطف فى رأسه بضوء ساطع من الألم · شرب كثيرا بالأمس · كانت الأقداح تمتلىء وتفرغ من السائل الأصهب الرقراق والعالم يضىء ويزدهر ويضج بنغم مدو يتطلب المزيد والمزيد · مزيدا من الخمر ، من الأجســـام المدورة

والمفتولة بشباب الصبا ، مزيدا من غناء الجنكيات والعوديات ومن ألحان الرقاصات المتثنية فى نشوة متمطية أو فى اهتزاز حار · وهو لا يذكر بوضـــوح ماذا حدث بعد أن نثر بدر الدنانير بين ندمائه وخاصة مماليكه وغلمانه · لا يبدو فى ذهنه الآن من ذلك الا رؤوس الشموع على الخوان ، متقدة تنظر اليه بعيون متآمرة فيها نوايا شــريرة وتنبت لها لحى ، وتتخذ قســـمات هؤلاء الأمراء الذين يناصبونه العداء منذ أقبل من كيفا · النار المتوهجة تحيط برأس أقطاى ، ورأى بيبرس وقلاوون وأيدك وكثيرين غيرهم ، تحدجه البصر الحاد من وسط النار ، والشفاة مزمومة قاطعة بنية القتل · وهو فى دوامة غضب ساطع يندلع فى دمائه ، يهب واقفا ويسل سيفه، وصيحات الجوارى الثاقبة وهتاف الغلمان ، بقاماتهم اللدنة الطرية، تدوى فى أذنيه ·

ينقض بسيفه ، يطيح الرؤوس المحدقة اليه من ذبالات الشموع المتقدة ، ويهتف بصوته السكران الطافح بالثمل الغاضب :

ـ هكذا أفعل بالمماليك البحرية ·· هكذا أفعل بالبحرية ·· هكذا أفعل برأس أقطاى ·· وبيبرس ·· وقلاوون ·

والسيف يصفر اذ يطير برأس شمعة تلو أخرى · والصيحات الحادة تعلو ، والضـــحكات الناعمة المخمورة تترامى · والقاعة تمتلىء بأشباح فى العتمة المتزايدة ، وهو يصيح ، وشموع جديدة تأتى وخمر جديدة ، ويشير بيده فتأتى نساء جديدة وغلمان جديدة · وهو يتطرح على الفراش ، ويطلب المزيد ·

ألقى السلطان الشاب نظرة هوجاء حانقة على جلسائه الذين هبوا واقفين ، ينتظرون انصرافه الى باب الحريم فى خيمته الشاهقة الواسعة التى أقامها هنا ، على شط النيل ، فى فارسكور ، تمتد

أطنابها العالية وسقوفها العريضة ، على الأعمدة الخشبية المتينة ، مدت بينها الممرات ، وجعلت فيها الحجرات الواسعة تلو الحجرات ، مفروشة بالأثاث الفاخر والرياش الثمين · وفى نفسه المثقلة بخمار الأمس حنق مدفون مكظوم · هذا أقطاى الصلف المتكبر ينظر اليه ، ويتابعه النظر ، من تحت حاجبيه الكثيفين ، وبيبرس وراءه يثبت عليه عينيه الزرقاوين الشريرتين ، وجوه وراء وجوه ، كلها تبغى هلاكه ، كلها تتآمر عليه ، كلها تفيض بالغل عليه · انه السلطان هو · وله أن يعز أحباءه وأصفياءه الذين أتى بهم من المشرق ، حيث قاسموه شظف المنفى · وله اذا شـــاء أن يذل هؤلاء الذين أحاطوا بأبيه يوغرون صدره عليه · بوسعه أن يقطع أصـــحابه الاقطاعات الواسعة · أن يجعل من خدمه أمراء مادام يحلو له ذلك · وليس لأحد أن يعقب عليه · وقد ظفر بملك الفرنجة واستأسره ، وها هو ذا الجيش المغير قد أبيد وانكسرت شوكته ولن تقوم له بعد الآن قومة · من حقه الذى لا ينازع أن يستمتع بالسلطان وأن تكون له صولة السلطان ·

عندما دخل طورانشاه من باب الدهليز السلطانى وفى ذهنه هذا الغضب على الأمراء ، ونوايا دفينة يعمل فيها الفكر ، بغموض ورغبة فى الراحة والنوم ، سمع ضجيجا فى الخارج ولغطا · هؤلاء الناس لا يفتأون يعكرون عليه صـــفوه ليل نهار · ودائما يثيرون ضجة ·

لكنه فوجىء بوقع أقدام تجرى خلفه ، وصيحة مكتومة لحارس بابه ، صيحة رجل مطعون فى القلب يسقط ، وتتحشرج صرخته · ومرة واحدة نفض طورانشاه عن نفســـه خمول الافطار الدسم ، وخمار السكرة المعربدة الذى ينوء برأسه · كان يمر عندئذ فى ممر ضيق طويل مسقف بالقماش ، فى طريقه الى الحريم · فأسرع الخطى على البساط ، لا يلتفت خلفه · ولكن العتمة الخفيفة بين قماش

الخيام المتين الذى يحجب الأصوات ، تنشق عن شبح طويل اسمر ، ويلمع سيف ، ويحس نفسه يسقط ويداه ممدودتان الى أعلى · وخطى كثيرة تجرى من الباب اليه ·

فى الضوء القليل رأى وجها جهما معقود الأسارير على القتل، عينين زرقاوين كالحديد المصقول · وميض السيف ، وألم لاسع فى يده ، وأزيز خاطف للسيف اذ يعصف ، وأصابعه المرفوعة ، وقد سقط على ظهره ، يمر بها الحد القاطع للسيف ، والدم ينبجس أحمر داكنا فى النور الخـــافت الذى ينفذ وراء قماش الخيام ، وعظام أصابعه قد بانت من الضربة القاطعة · لكن الخدم والمماليك الكثيرين قد ظهروا منذ الآن فى آخر الممر ، وهذا الشبح الطويل الأسمر يشق قماش الخيمة بسيفه ويقفز منه ·

وثب طورانشاه على قدميه ، يترنح ، ورأسه غائم ثقيل يشقه الصداع · وقد تيقن أن المؤامرة قد نضجت الآن · وهو لا يدرى ما اذا كان هؤلاء القادمون آتين اليه بالنجدة أم مقبلين يجهزون عليه · وقد تخلى عنه كل صلف السلاطين وكبرهم الآن · ولم يعد الا رجلا مذعورا يجرى يفر بحياته · وانطلق من الممر الضيق الى البرج الخشـــبى العالى الذى أقامه وســـط الدهليز السلطانى · وهو يصيح :

ـ من جرحنى ؟ من هجم على ؟

كان مماليكه يجرون وراءه ، لكن الرعب قد أخذ منهم ، فقد كان المتآمرون ينقضون وراءهم ·

قال أحد مماليكه :

ـ هذا واحد من جماعة الحشاشين الباطنية يامولاى · أولئك الذين يلبسون السواد ·

كان السلطان قد وصل الى البرج ، فأستند اليه لحظة قصيرة قبل أن يدركه مماليكه ، وليس فى وجهه اطمئنان اليهم ولا الى أحد ٠ وقال لنفسه :

ـ لا والله ٠٠ ليســـوا الا المماليك البحرية ٠ هذا أعرفه ٠ ودخل البرج ، وأقفل عليه الباب وحده ، محاصرا ، قد أحيط به لا يدرى أين يفر بنفسه ٠

اقتحمت الخيل الدهليز السلطانى ، وتقوضت أعمدة الممرات الأمامية ووقعت السقوف المتخذة من القماش ، على الأرض ، والخيل الكثيرة تطؤها بالسنابك ، وقد اضطرب الجمع المحتشد حول البرج وارتفع له هدير ولغط ٠

ـ هرب بنفسه ٠

ـ هل رآه ؟ هل عرف من دخل عليه ؟

ـ لابد أنه عرفه ٠

جاءت صيحة آمرة غاضبة نهائية مشحونة :

ـ أمحوه والا أبادكم ٠٠ !

الهتاف يتتابع ، ويؤتى بمنجنيق من مناجيق النار الأغريقية ، ويصوب الى البرج وينصب منه هدير آخر مدمر مقرقع ســـاطع ، والنار تنشب بالبرج وسط الصياح ، والقسى تســـدد ويطير منها النشاب يرشق البرج ٠ واللهب يئز ويتصـــاعد بألسنته الكثيرة الحمراء على أخشاب البرج ٠ الشاب الوسيم الممشوق القوام ، قد علقت النار بثيابه الغالية ٠ وسقطت عمامته ، وهو يلقى بنفسه من البرج ، يثب ممسكا يده باليد الأخرى يقطر منها الدم ، ويركع على الأرض أمام أقطاى ، وعلى وجهه المشوه بالعذاب ضراعة مذعورة :

ــ أجرنى يا أقطاى ·· أما أحد يجيرنى يا مسلمين ؟ أجرنى أجارك الله ·· !

لم يمد اليه أقطاى يدا ، نظر اليه بكل الغضب الذى يعتمل فى صدره ، هذا الفتى الأهوج المعربد ، لم يركب فرسا لقتال ولم يخرج لحرب ، وبين يديه السلطنة والدولة · الشهداء يموتون فى ساحة المعركة ، وهو مقيم على لهوه ولعبه ومجونه · يؤمر الخدم ويعهد بوظائف الدولة الى العبيد والطواشية · وينكث بعهده · عندما ذهب اليه فى كيفا ، ركب اليه الصحراء المخوفة بأقصى ما تركض به الخيل من سرعة ، يدعوه للعودة الى مصر والجلوس على عرش أبيه . كان طورانشاه عندئذ هو السماحة كلها ولطف العبارة وحسن الوفادة ، ووعده أن يمنحه الاسكندرية بكلها اقطاعا له وامارة · وعندما عاد نكل عن الوفاء بوعده · وأقصى كبار الرجال عن وظائف الدولة ، وأعطاها لعبيده وخصيانه ·

رأى طورانشاه جمود النظرة فى عينى أقطاى ، والصمت ، وأحس النذير الرهيب ، فقام يجرى الى النهر ، يصيح بصوت مكسور :

ــ ما أريد ملكا ولا سلطنة · دعونى أرجع الى كيفا يا مسلمين ·· من فيكم يصطفينى ويجيرنى ؟ نزلت لكم عن الملك والولاية · دعونى ارجع · هبونى الحياة فقط ، لست أريد ملكا ·

كان الصمت قد ساد لحظة قصيرة · والروع قد أخذ بالجند من مرأى سلطانهم ، ممزقا متدهورا جريحا يفوح الحريق من طرف ثيابه ، معفر الوجه ، يستجير ، لكن سهما انطلق يئز نحوه ، اذ هب طورانشاه يجرى نحو النيل ، فكأن السهم كسر سحرا أوقف الأيدى عن الحركة ، وعلى الفور تلاحقت السهام تصفر وتئز وتطير حول الرجل الهارب · والوقفة الثابتة التى ألمت بأقطاى تفتتت فاذا بحياة

عارمة تسرى فى أوصاله ، فهو يجرى خلف الهارب وقد عادت اليه مرونة جسمه وتدفقه بماء الثورة الذى يغلى ويفور · جرى خلفه بيبرس وقلاوون وسنقر وثلة من الأمراء · بينما وقف العسكر الى وراء ، لا يتقدم أحد منهم بنجدة · كان طورانشاه مكروها لم يعرف عنه خير ·

ألقى أقطاى بنفسه فى الماء ، خلف السلطان الذى غاص ثم ارتفع به الموج ، يضربه بذراع واحدة ، فى ذعر الفرار · الى أين ؟ كيف ؟ لا يدرى · انما يحفزه شىء لايقاوم فهو يخبط الماء ، كأنه يرى نجاته فى الشط الآخر ، أو فى سفينة من هذه السفن الكثيرة التى ازدحمت على سطوحها المقاتلة ، والجنود ، والبحارة ، وأسرى الفرنسيين المحبوسين فيها أيضا ·

وفى وسط تيار الموج المدوم ، والصيحات التى تسقط اليه من السفن ، من الشط ، من السماء نفسها ، أحس طورانشاه وراءه بالاذرع الكثيرة تضـــرب رشاش الماء ، وطعنة مفاجئة فى جنبه ، ووجوه قاسية مزمومة الشفاه ، يحيط بها الماء والرشاش أو لعلها انها رماح الشموخ تنفذ فيها هذه الرؤوس الصلبة ، هذه العيون بدويتها الفاتنة · ولم يعد يحس طورانشـــاه ألما بل طعنـــات من حديد بارد ، طعنات كثيرة · ويحس برد النصال الحديدية ينفذ اليه والماء يعلو ويصطفق حواليه والسماء فوقه تغرق فى الأمواج ·

اهتزت السفينة الراسية بالشط تحت أقدام المماليك ، وعباءاتهم الموشاة المطرزة على أكتافهم ، تتدلى من فوقها السواطير والفؤوس. وفى أيديهم السيوف المسلولة وقد ثملوا بخمر غريبة من مقتل السلطان ووقوع السلطنة فى أيديهم · كان أقطاى وبيبرس وأمراء الفرسان قد عادوا الى المخيم وأرسلوا الرسل الى البلد يدعون الى عقد مجلس

من أعيان الدولة وأهل المشورة للنظر فى الأمر · أما المماليك الشبان فقد اندفعوا يصخبون ويهتفون الى السـفينة التى كانت مزدحمة بالأسرى من نبلاء فرنسا ·

كان جوانفيـل قد برىء من المرض ، وعاد اليه شـىء من عافيته ، وقد هرع الى حافة السفينة ، ومعه هومبرت دى بوجيه ، والكونت بيير دى بريتانى ، والكونت جان دى سواسون وعدد من الأشراف ، فيهم الشيفالييه بودوان دبلان ، وكان يفهم القليل من العربية ·

تركهم جند الحراسـة عندما ارتفعت الضجة وجاء الهدير المضطرب من الجموع المحتشدة على الشاطىء أمام برج السلطان وخيمته ، فى هذا الصباح المشرق الحار من مايو ، وشاهد الأسرى مقتل السلطان واشتعال النار فى البرج وحركة الفرسان التى تدوم على الشط ·

ثم ارتدوا عن حافة السفينة اذ ارتفع اليها هذا الرهط الصاخب من المماليك الشبان · وتزاحم الأشراف والنبلاء راجعين يصطدمون ببعضهم بعضا ، وقد روعهم هتاف الفرسان المسـلحين وسيوفهم المسلولة التى يبرق حديدها المشحون المرهف بوميض كاب أزرق فى ضوء الصبح ·

همس جوانفيل وقد وجد نفسـه يرتطم بدبلان ، تحجزهما أجسـام زملائهما من خلف ، ويتعثران فى الحبال الملفوفة المكومة فى حلقات متينة على سطح السفينة :

ـ ماذا يقولون ؟ وما الخبر الآن ؟

ـ لست أدرى ياسيدى · ولكن اسمع ·· مهلا ·· سـوف يقطعون رؤوسنا ·· ! الآن حانت الساعة ·· !

التف الأشراف حول راهب طويل يرتدى عباءة سوداء ، وفى

ضجيج الهتاف والصياح والمناقشة الحامية التى ثارت بين فرسان المماليك ركع الأشراف ، وقد تيقنوا الموت ، حول الراهب ، وبأصوات ملهوفة عالية أخذوا يهنفون بدورهم ، لا يكادون يسمعون ما يقولون، واختلطت اعترافات الفرنسيين بخطاياهم ، **وصـــيحات المماليك فى مناقشتهم العنيفة :**

ـ اغفر لى يا أبتاه ·· اغفر لى ·· قتلت وسرقت واخطأت ـ لم أف بنذرى للسيدة العذراء ولم أوقد لها الشمع ـ زنيت وحلفت كاذبا وضربت أبانا الذى فى السموات ـ ارحمنى يارب ـ اخطأت ، أخطأت ، خطيئتى عظيمة ـ ومن القديس يوحنا المعمدان ومن جميع القديسين أن تصلوا من أجلى الى الرب الهنا ـ اخطأت كثيرا بالفكر والقول والعمل ـ يا والدة الاله القديسة الى ظل حمايتك ألتجىء ·· ماذا الآن يا دبلان ؟ لماذا لا يسرعون ؟ ـ يا ملاك الله يا حارسى · أيها القديس بيير شفيعى ، يا من أفتخر اننى دعيت باسمه ··

ـ ليس الآن ، ليس الآن ··

دفع بالأسرى الى جوف السفينة ، فى حيز ضيق يفوح بعطن الخشب ، ورائحة نفاذة من التبن ، وبقايا القش يعلق بالأخشاب ، ووجد جوانفيل نفسه مدفونا فى وسط أجسام زملائه ، والحرس على رؤوسهم يسددون اليهم الحراب ، فلا يستطيعون رفع رؤوسهم ، بل قد تمددوا بعضهم فوق البعض ، ورائحة الأجسام وعرق الخوف وعطن السفينة تخنق الأنفاس ، راقدين وقد تصـــلبت أطرافهم ، يتململون فى أوضـــاعهم التى تنخلع لها المفاصـــل بتعب الالتواء والازدحام والضيق ، والليل قد هبط ، ولا يمر ، فى نومتهم القلقة المتحشرجة بأنين التعب والجوع ، وفى أحلامهم السيئة صيحات بلغة غريبة ، وسيوف تومض فى الماء ، ونيران تنشب بأخشاب السفينة ، ووجوه قاسية تلمع فوق الفؤوس بين أمواج حريرية من العباءات الشرقية الباذخة ، حتى الصباح ·

عندما أشرق النهار ، جاء الى السفينة قائد من أمراء المماليك، وتنحى الحراس عن فوهة الفتحة التى ألقى الأسرى فى جوفها ، مكتظين متراكبى الأعضاء ، وسمح لهم بالخروج ، يبسطون أذرعهم ويشدون صدورهم المرضوضة ، وينشقون ريح الصباح ٠

بعد أيام اقلعت بهم السفينة الى الشمال وعرف الأسرى أن الاتفاق قد انعقد بين أمراء المماليك الجدد على توثيق العهد الذى كان لويس التاسع قد قطعه على نفسه بدفع فدية قدرها خمسمائة ألف جنيه ذهبا والجلاء عن دمياط ، مقابل اطلاق سراح الأسرى ٠

بعد ثلاثة أيام من قتل طورانشاه كانت جثته الممزقة مازالت ملقاة على شاطىء النيل وقد جرها المماليك الى البر وتركوها ٠

فى الليل ، كان الشيخ عبد الله يسير على الشط ومعه رجلان على وجهيهما جمود وقترة ، ملامحهما متبلدة من طول ما شاهدا من الموتى وطول ماغيباهم فى القبور ٠ والشيخ [illegible] الجثة التى انتفخت وشاهت ، ولها ريح نتن خانق [illegible] ، عيناه منكستان وجوخته الزرقاء ناصلة [illegible] مازالت متماسكة الخيوط ، متينة ٠ وقف الشيخ [illegible] الحفرة وقرأ الفاتحة وصلى بينما الرجلان يحفران حفرة عميقة مستطيلة فى أرض الشاطىء ٠ وعاد الموكب الصامت الحزين : ثلاثة رجال فى الليل ، نفوسهم ثقيلة ولكنها هادئة ٠ هذا هو مجد الدنيا وصولة الملك وجبروت السلطنة ٠ هذا ما بقى من الرجل الذى ركب عواصف المغامرة والمتعة وثمل بخمر الامارة واللذة : هذه الجثة العفنة المنتفخة الشائهة ٠

الملك لك وحدك يارب ٠ أنت وحدك صاحب الملك العظيم ٠

السماء فى الليل فوقهم عالية سامقة ، تتناثر فيها النجوم ، تحمل رسالة غامضة ، تلهم القلب بخشوع ومهابة ٠

الفصل الخامس والعشرون

كان الطريق الى دمياط تغطيه الخيل تحمل الفرسان المصريين فى صفوف كثيفة تمتد وتواكب الطريق بين الغيطان ، والهواء يحمل تلك الملوحة التى يتفتح لها الصدر من نسمات البحر ، فى الصباح الحار · والتراب يثور فيكسو العباءة المملوكية التى يرتديها لويس التاسع ، على جواد عربى عالى المنكبين ، وحوله الحرس ، ووراءه أخوه شارل دانجو ، أما أخوه الثالث الكونت دى بواتييه فقد كان مازال أسيرا ، رهينة بانفاذ الاتفاق · وقد دفع لويس نصف الفدية المقررة له ، حملت اليه من دمياط ، ومن فرنسا · والنبلاء الأسرى وراءه ، بين الفرسان المصريين الذين تخب بهم خيلهم كأنها ترقص ، فى موكب حاشـد ، يتنادون ويضـــحكون ، وتنطلق الخيل تركض ببعضهم ثم تعود ، وفى صفوفهم نشـــوة فرح لا تقاوم · ففى يوم الجمعة الماضى ، وبعد مفاوضات ومشقة وتأخير ، سلم الفرنسيون دمياط وخرجوا عنها ومضت بهم السفن ، منهزمين ، فقدوا الشطر الأكبر من جيشهم ، وتركوا فرسانهم وشبابهم صرعى على الأرض التى جاءوا يغتصبونها · ودخلت الراية الى دمياط ، عادت ترفرف

على قطعة حية ، نزف عنها الدم ولكنها حية ، من جسم البلاد ورفعت الراية تخفق فوق سور دمياط ·

وقد اقترب الموكب الحاشد من دمياط ، على طريق النيل · وهناك على ثغر دمياط بضع سفن قليلة باقية من سفن الحملة ، على أهبة الاقلاع ، تنتظر عودة الأسرى · ومر الموكب بسفينة ضخمة وقفت على الشط ، تبدو خالية مقفرة السطوح ، ليس عليها الا رجل واحد ·

وعندئذ صفر الرجل بفمه نغمة خاصة ، والتفت الى الخلف · وعلى الفور هبت من جوف السفينة صفوف متعاقبة من الجنود ، تحمل القسى والدروع متمنطقين بالسيوف ، ووثبوا الى الشاطىء بسرعة ، فاصطفوا عليه ، ورفعوا قسيهم ، وســددوا سهامهم ، يغطون موكب الأسرى ·

صدر أمر غاضب من قائد الحرس ، وركضت الخيل المصرية متتابعة على الطريق ، واذا بالملك والنبلاء الأســرى قد أصبحوا وحدهم على ضفة النيل ·

ألقى من السفينة بلوح خشبى امتد بين حافتها وشط الماء · وتلفت الأسرى فاذا هم قد خلصوا من الأسر ، وحدهم مع جندهم على الطريق · ونزل لويس التاسع من على جواده ، وتبعه شقيقه ، وسائر أمراء حملته · وهم يخطون الآن آخر خطواتهم على أرض مصر ، ويسرعون ، فمازال فى نفوسهم قلق وخشية · كأنهم لن يجدوا أمنا أبدا حتى يرفعوا أقدامهم عن هذه الأرض التى داســـوها واقتحموها ، هذه الأرض التى انتفضت تحت وطأتهم وانتقضـت عليهم ، ولفظتهم عنها ·

بسطت الشرع ، وأقلعت السفينة ، كطائر بحرى يفرد جناحه ويفر ·

أقبلت خلف الفرسان قوافل طويلة من أهل دمياط ، عائدين الى البلد الذى وقع فى المحنة خـــلال شهور طوال تقارب العام . والقوافل العائدة الآن تشـــيع فيها بهجة العودة وفرحة اللقاء ، والوجوه متعبة أثخنتها الآلام ، لكنها مشرقة بوهج داخلى يتغلب على كل أوصاب الجســـد ، ويبث فى الدماء عزما ونشوة . وبين الناس المزدحمين ، والدواب ، والأطفال الذين يتعلقون بثياب أمهاتهم كأنهم فى نزهة ، ضـــحكات وصـــيحات ودعوات ولغط وحكايات وابتسامات على الوجوه ، وهتاف بالدواب أن تســـرع المسير . وحلقات من الشباب يرقصون وهم سائرون على الطريق ، وطبول تدق ومزامير تنفخ وصيحات بالتكبير والحمد والصلاة على النبى ، والجمال ترفع رؤوسها فوق الأعناق الشاهقة ، ويصدر عنها رغاء أجش عميق ، والخيل تصهل ، والكلاب تجرى وتلعق أيادى الأطفال والصبيان وتنبح وتتواثب ويضـــحك لها الأولاد ويجرون خلفها وتنادى الأمهات عليهم ويمددن اليهم أياديهن ويهتف بهم الرجال فى نبرة غضب لا تخيف أحدا ثم يبتسمون .

وفى وسط التراب الكثيف الذى يثور تحت الأقدام كانت تسير قافلة صغيرة من البغال عليها خيام مربوطة وحبال وأوان وطبل كبير . وخلفها امرأة عجوز تمسك بيدها طفلا يتنزى بالمرح ويحجل من السرور بقرب الوصول . وأمام القافلة رجل طويل فى قسمات وجهه جمود ، لكن عيناه أصبحتا الآن رقيقتين هادئتين ، تسير على خطوة منه الى الوراء امرأة ممشوقة العود عليها عباءة زيتونية اللون ، سافرة الوجه ، وعلى رأسها عصابة من قصب أحمر مدورة تنسدل ذؤابتها على جدائل أثيثة وافرة ناعمة .

والوجه الأسمر الدقيق الملامح تبدو عليه ، فى الضجة والزحمة، سكينة ورقة وسلام . وفى العينين المتلألئتين ، رغم التعب وطول المسير ، طمأنينة نابعة من محبة كانت ضائعة ثم عادت . نظر اليها

الرجل نظرة قصيرة سريعة ، ورفت على وجهها ، ردا على نظرته ، ابتسامة سريعة كأن فيها حياء وخجلا ، كابتسامة فتاة غضة العمر فى مقتبل الشباب · ولكن القافلة كان ينقصها القصير النشط ذو الملابس الصفراء الكابية · خيمت سحابة حزن على السماء الوادعة الفسيحة الهادئة فى عينى بهية · كان مسرور قد خرج يوم المنصورة، وكانت دائما تلحظه الى جانبها وورائها ، وهى تسير بين الصفوف تسقى الجرحى وتواسيهم · وفى غمرة هجوم مفاجىء من فرسان الغزاة ، وبين ضجيج الخيل وصلصلة الحديد ، سقطت بهية على الأرض ، واندفع جسم نشط متوثب متوتر يقف بينها وبين ضربة سيف هابطة طائشة من فارس يركض بجواده · وسقط مسرور على الفور ، ودار جسمه المتوثب اليها ، وقد خمدت حركته وغاضـــت منه دفقة الحياة ، ونظر اليها بعينيه العميقتين اللتين طالما تتبعتها نظرتهما العاشقة الصامتة · نظر اليها ، ولم يبتسم ، ولكن عيناه مازالتا تنطقان بقصيدة حب لا تموت ، قصيدة لم يقلها قط ، وما كان يجرؤ أبدا أن يقولها ، لكنها ظلت تتوهج فى نفسه الصامتة الغريبة ، وفى عينيه ، ولم يسكتها الموت ·

عادت أصوات الموكب العائد ، بأغانيها وضجيجها وهتافاتها ترتفع حول بهية ، والشجن العميق فى قلبها تخفت أصداؤه ، رويدا رويدا ، الحزن البعيد الذى مازال هناك ، لكنه هادىء ، يوشك أن يكون أسى مضنى عذبا على ابنها الفقيد ، وعلى هذا الرجل الذى عاش ومات لها · ذلك كله سوف تغنيه الليلة ، مع أناشيد الفرح والانتصار ، داخل أسوار دمياط ، على أنغام الأرغول ، وفى دفء

النظرة الحانية المحبة التى عادت الى عينى رجلها هذا الذى يسير أمامها وقد لانت قسمات وجهه الخشنة ، كأن أمواج الكفاح الذى خاضا غمراته معا ، وتعرضا للموت فيه معا ، قد غسلت قلبيهما وعادت بالحنان والمحبة ٠

وهى ترمق ابنها الصغير فى يدى جدته ، وقلبها يدر بالحنان والرقة ، وتشيع فى نفسها بهجة هادئة ٠

أسوار دمياط تبدو من بعيد ، ومن خلفها مئذنة الجامع الكبير وقبابه ، شاهقة رافعة الأبراج ، ومن تحتها ، أضلاع الصحراء ٠

القـــــــاهرة
٣٠ ديسمبر ١٩٥٩

ادوار الخراط

الفهـــرس